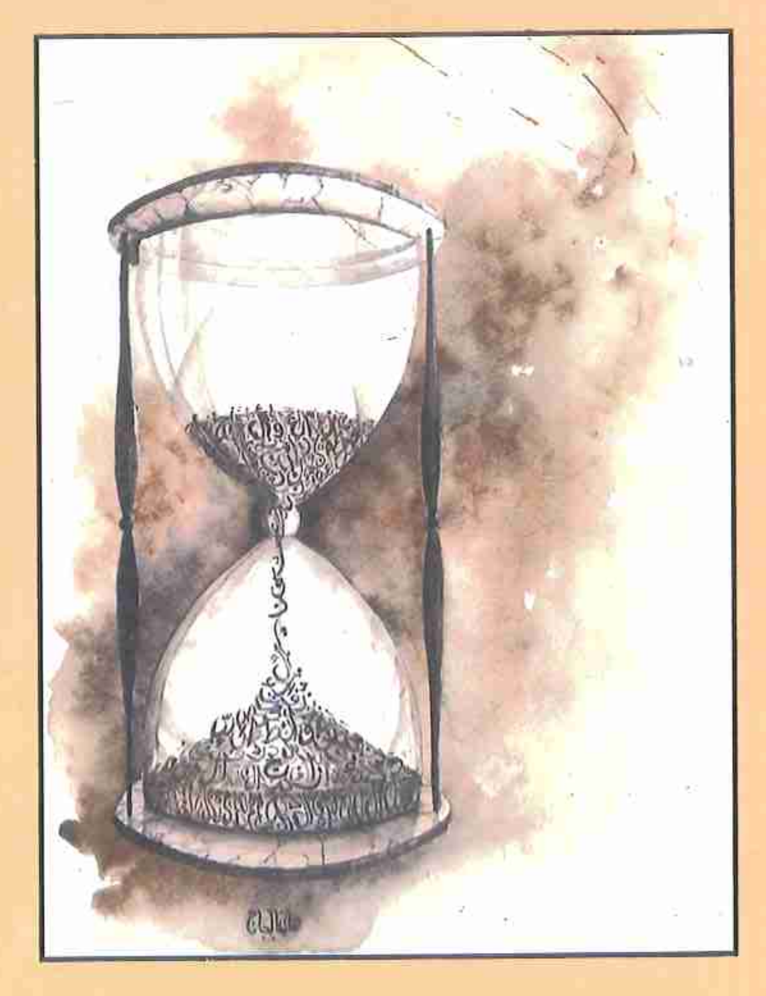
ظلال من حياتي

خيوط متفرقة من نسيج الحياة



أ. الدكتور محمد رجب البيومي

عميد كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (المنصورة) سابقاً

عضو مجمع البحوث الإسلامية - رئيس تحرير مجلة الأزهر







أ.الدكتور محمد رجب البيومي

عميد كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالمنصورة سابقاً
عضو مجمع البحوث الإسلامية - رئيس تحرير مجلة الأزهر



خطوط : أ. أحمد المفتي

صورة الغلاف : م. هاني الحاج

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

هاتف: ٦٦٧٦١٧٢ (٢) ٠٠٩٦٦

فاكس: ٦٦٧٦١٠٧ (٢) ٠٠٩٦٦

ص.ب: ٥٣٤١٣ جدة ٢١٥٨٣

المملكة العربية السعودية

إطلالة

الحياة مرحلة يعبر الإنسان منها إلى ما بعدها وخلالها يمر بأحوال مختلفة فيرى ألواناً من آمال الحياة المشرقة ومواجعها المبكية، والتجارب تصقل النفس الإنسانية عبر الأيام ولكل إنسان في حياته وقفات تأمل وذكريات مع النفس لا تخلو من سرور وحزن ورضى وغضب في أحوال من الصحة والمرض والغنى والفقر..

وبعد ذلك فالحياة هي الحياة والإنسان هو الإنسان..

فميراث الذكريات له طابع خاص فهي تجارب إنسانية مرت بالإنسان في حياته وسجل بصمة شخصيته عليها وتركها معيناً للمتأملين قدم من خلالها خبرة في الحياة وفي ذلك عبرة.. وهذا الكتاب الذي يقدمه الأديب البارع الأستاذ الدكتور/محمد رجب البيومي عن ذكريات من حياته يتميز بميزات عديدة، إلا أن السمة البارزة عبيق الصدق الذي يضوع من أرجاء الكتاب، فقد حرص مؤلفه أن يسجل خلجات النفس وشفيف الروح بأمانة الصدق، فالصدق هو الذي يرفع من قيمة الكلمة ويزيد من شرف العبارة وتظل الأجيال المتعاقبة من القراء يعرضون المكتوب على موازينهم

المختلفة فيمكث في القلب الكلمة الصادقة..

على أن هذا الكتاب حوى خبرات ومواقف الإنسان وتجارب الحياة والجرأة في البوح عن مكنون النفس فيما لو مر بغير مؤلفه لوجد من العسير أن يعبر عن مكنون نفسه..

أضف إلى ذلك ما احتواه الكتاب من طرائف أدبية ومختارات شعرية في حسن النظم وبهاء اللغة ورشاقة العبارة ودقة التصوير فروعة الأسلوب تأسرك وكأنك تقرأ قصيدة الذكريات الأدبية.

وكل ذلك نابع من نفس تحب الخير للناس فيما أحسب فإذا الحب يفيض من جوانب الكتاب كالنهر الهادر.. الهادي في أدب راقٍ وشاعرية متقدّة..

هذا هو «ظلال من حياتي» فانعم أيها القارئ الكريم بما تقرأ وتأمل..

عمر بن حسين الموجان

مقـــدمـــة

أصدرتُ كتاباً تحت عنوان (أعلام العصر وكيف عرفتهم) تحدثتُ فيه عن لقاءاتٍ علمية حظَيتُ بها مع نُخْبة من كبار العلماء والأدباء والأصدقاء، وكشفتُ عمّا يُنبئ عن بعض اتجاهاتهم الفكرية، حيثُ سجلّتُ ما تفضلوا به من حديث تلقائي في سَمر مؤنس، وما أجابُوا به عن أسئلة كانت موضع اهتمامي، وقد قرأَه أحد الفضلاء من أصحابي فقال لي لقد ترجمتَ لنفسك حين سجلّتَ خلواتك الفكرية مع هؤلاء! فقلتُ لم يدر بخاطري أن أترجم لنفسي بدءاً. فإذا كانت ملابسات القول أظهرتْ بعض ما قمت به في ميدان الفكر، فقد جاء ذلك تابعاً غير مقصود. فقال الصديق، وما المأخذُ في أن يَروي الإنسان سيرة نفسه صادقاً، فقد يكونُ بها من العبرة ما ينفع القارئ! فأجبت بأني لست صاحب دور قيادي له أثره في الناس حتى يشغلوا بتاريخي وأنبائي. لقد تحرج الأستاذ الكبير أحمد أمين من تأريخ حياته حين قال في مقدمة كتابه:

«لستُ بالسياسي العظيم، ولا ذي المنصب الخطير الذي إذا نَشر مذكراته، أو ترجم لحياته أبان غوامض لم تُعرف، أو مخبّآت لم تظهر، فجلّى الحق وأكمل التاريخ، ولا أنا بالمُغامر الذي استكشف مجهولاً من

حقائق العالم فحاول وصفه وأضاف ثروة إلى العلم، أو مجهولاً من العواطف كالحب والبطولة وزاد بعمله في ثروة الأدب وتاريخ الفن، ولا أنا بالزعيم المصلح المجاهد، ناضل وحارب، وانتصر وانهزم، وقاوَم الكبراء والأمراء، أو الشعوب والجماهير فَرضوا عنه أحياناً، وغضبوا عليه أحياناً، وسَعد وشقي وعذّب وكرم فهو يروي أحداثه لتكون عبرة. لستُ بشيء من ذلك ولا قريب من ذلك. ففيم أنشر حياتي» فقال صديقي: ولكنّه مع هذه الملاحظات قد نشر حياته، لأن الزمن زمن الديمقراطية التي يُتَح لكل إنسان أن يروي عن نفسه ما كان.

قلتُ: لدى أحمد أمين ما يقوله فهو أستاذ كبير، ومحقق بليغ، ومؤرخ نابه، ولكن ليس ما لديّ:

فقال: لقد تحدثت عن نفسك في كتاب (كيف عرفت هؤلاء) وهو بالنسبة إليك تاريخ ناقص فلا بُدّ أن يكمل!

ومضتْ برهة فقال صديقي: أذكرُ أنّي قرأت لك منذ خمسين عاماً حديثاً في أحد أعداد مجلة الرسالة الممتازة ذكرتَ فيه فصلاً عن نشأتك الأدبية وأثر مجلة الرسالة في تكوينك، فلم لا تتابع ما بدأت!

وضعت يدي على جبهتي كمن يتذكر، ثم قلت: لقد ذكّرت مني ناسياً، فإذا كان ما سأكتبه من هذا الطراز فما أهون أن أكتب؛ ولكن هل سيقبل عليه القارئ؟

فابتسم صاحبي وقال ملاطفاً: الحديث الذي أشير إليه لاقى ترحيب الأستاذ الزيات ونشره في أحد الأعداد الممتازة التي تصدر سنوياً في رأس كل عام، وقد يكون لصاحب الرسالة رأى في إشادتك بالمجلة ما جعله

يسارع بالنشر!! وليس في ذلك ما يعيب فالرسالة ذات تاريخ حافل لا ينكره أحد. وقد مضى دهر على هذا التاريخ وكنت متحدثاً عن صلتك الأدبية بالمجلة الرفيعة: فلتكمل حديث الأمس بما أشير عليك به اليوم!

خلوت إلى نفسي، فوجدت لديّ ما أقوله، في مرحلة العمر الفسيحة، وإذا كان القراء يرحبون بالقصّة المتخيّلة كما يرحبون بالقصة الواقعية، فليكن ما أكتب من قبيل القصص الواقعي وإن لم يأخذ سمته الغني! وهو في أيسر أمره حوادث تروى ومواقف تشرح!

ثم بدأت أكتب ما أتذكر، وقد يكون فيما فاتني لغيابه عن الذاكرة، ما هو أجدر بالحديث، وسألتزم الصدق فلا أتزيد في خبر، أو أتوسع في مشهد، لأن بلاغة الصدق تغني عن كل تزويق، وحسبي أن يعلم القارئ تاريخاً واقعيًا لحقبة زمنيّة، هي في مجموعة خطوات إنسان عرف طريقه فَسارَ فيه؛ وإذا لم يبلغ غاية ما تمناه، فحسبه أن بذل ما في قوته كي لا ينحدر إلى مستوى يتحاشاه! وقد وفقه الله فوقاه ويلات العثار، ووعثاء الطريق، وما كل ما يتمنى المرء يأتيه، كما رأيت أن أختم هذه الشجون بحديث صادق عن وقفتي أمام غار حراء، وهي وقفة تركت صداها البعيد في نفسي فأحببت أن أخلدها في هذه الصفحات.

محمد رجب البيومي

عـــن والــــدي

اضطربَ الْقلَمُ في يدي حين حاولتُ أن أتحدّث عن والدي، لأن ما بنفسي عنه أكبر مِن أن يتناولَهُ القلم، فقد كان مع أبوّته الحانية رجلاً مؤمناً كأحسن ما يكون المؤمن، لا يَبرحُ تفكيره أمَر الله ونَهْيه، فهو يهتدي في كلّ حركة بما يعلمُ من قول الله، وحديث الرسول ﷺ، وقد أورثَهُ ذلكَ مهابةً واعتزازاً لدى الناس في قَرْيتِي فهو موضعُ الأمانة، تُحفظ عنده الودائع، وكأنّه بنْكٌ رسمي، وقد يدَع الرجل لَدْيه مِن المال ما لا يُطْلعُ أبْناءه عليه، وأذكرُ مما أذكُر أن رجلاً من هؤلاء تُوفّي فجأة وعَلاَ الصراخ عليه في جَوف الليل، وجاءَ النبأ إلى أبي فلَم ينتظر إلى الصباح، بل اتّجه فوراً إلى عائلةِ الميت، وقَدَّم ما لديه من الوديعة، ورجَع مسروراً لأنّه رفع عن كاهله حملاً ثقيلاً.

وقد انتقل إلى رحمة الله في يَوْم الجمعة الذي يُوافق الثاني من شهر رمضان سنة ١٤٠١هـ وقد اجتمع الناسُ للصلاة في المسجد الكبير، وقامَ الخطيبُ الأستاذ يوسف أحمد يوسف فأدَارَ الخُطبة على حديث الموت يمهّد بذلك إلى حديثه عن والدي. وقد عَلق بذَهني ما وُصف به أبي من أنه «رجل المسجد» لأنّ هٰذا الوصف أقربُ الأوصاف إليه، ولقد عاش أكثر

حياته تاجراً يعملُ في متجره، فليسَ له بالمسجد وظيفةٌ رسمية يحرصُ على أدائها ولكنّ المسجد كان يأخذُ منه أكثَرَ مما يأخذ متجره من الزمن، حتى أنّ الذي كان يريد لقاءَه لأمرٍ ما يتجّه إلى المسجد أول ما يتجّه، فإن لم يجْده فإلى المتجر، وكانَ إذا أراد أنْ يختبرني في أجْزاء القرآن، وأنا طِفل ناشئٌ يَصحبُني للمسجد لأُلقي على سمعه كتاب الله بَعْدَ أنْ أتوضأ، وحين التحقتُ بالمعهد الديني قال لي وصيّة هامّة، وكررها مِراراً. قال يا بنّي، إذا أردت أن تذاكر دروسك في أيّ علم من العلوم فابدأْ بقراءة سُورة من القرآن، فإنّ تلاوة الكتاب تَفتح عليكَ وتُسهّل ما يَتعسّر من المسائل العلمية، كما قالَ لي، إنْو حينَ تبدأُ المذاكرة أنّك تستجيب لأمر الله إذْ تُذاكر مادّة الدرس. فهذه النّيّة الصادقة لها أجرها عند الله، وسَتَكْسبُ ثوابها، وكنتُ في أثناء الطلب أحرص على تنفيذ هذه الوصية ما استطعت!

وقد تعودتُ صغيراً منذ بدأتُ أفكّر فيما حولي من الأشياء عَنْ بصيرة، أنْ أجد بابَ منزلنا يُفتح قُبيل الفجر دائماً، حيثُ ينهض والدي إلى الصلاة، كما رأيتُ والدتي تشجعّني على الذهاب معه صيفاً أو شتاءً، مهما تدفّق المطر في الطريق، ولم يكنْ نور الكهربْاء قد دَخل القرية بعد، ولكنّ نور التّقوى كان يشعّ في كل أفقٍ من آفاقها، فالناس يَنسلُون من كلّ حدب إلى بيت الله، الصغار مع الكبار دائماً، فإذا كان الوقت وقتَ رمضان، فالدنّيا تموجُ، والمسجدُ يأتلق، وكأنّ مهرجاناً دينيًا يُقام بالمسجد ساعة الفجْر وكان عمّي الشيخ محمد البيومي إمَامَ المسجد، فإذا تخلّفَ لأمرٍ شغله حلَّ والدي محلَّه، فإذا نهض للقراءة أخذ يرتّل في ابتهال، وكنتُ أحرصُ على أن أصلّي الفجر وراءَه يوم الجمعة لأسمعَ سُورتي السجدة والدهر مرتلةً بصوته المؤثر، وقد حفظتُ السورتين من إلقائه قبل أن يأتي

دَورهما في مكْتب القرية، ولهُ في القُنُوت خُشوع، وإخْبات يُنسيك الملك في الدنيا، فلا تذكر إلاّ أنّك بين يدي الله!

واستطراداً أذكر هذه الحادثة، لمْوقف أبي معي بإزائها، إذْ دَخَلْتُ المسجد بَعدِ الصلاةِ الأُولى للفجر ذاتَ يوم. فرأيتُ أحَد الفقهاء يؤم الناس في صَلاةِ الرّكعتيْن، ولم ينَتْبهْ إلى أن اليومَ يوم الجمعة فيقرأ سورة السجدة، ويُسجد كالمعتاد، بل أخذَ يقرأ سورةً أخرى، ووَراءَه النْاس ولاَحظ ذلك شيخٌ مُسِنٌ من القريةِ، فنهضَ عرجاً يقول للإمام، هذا يوم الجمعة: إنِو الصلاة من جديد وأقرأ سورة السجدة، وكنتُ حينئذٍ طالباً بالسنة الثانية بالمعهد الديني، فأدركتُ أنّ الصلاة صحيحةٌ، وأنّ دعوة الإمامِ إلى قطعها خطأٌ غير صواب، وظَللَتُ أنتظر حتى انتهى الإمام فقلتُ له: كانَ عليك ألاّ تَقطع الصلاة، لأنّ قراءةَ السّجدة سُنّة، ولا يُقطع الفَرْضُ لأجل السنّة، وسَمع الشيخ المسنّ قَوْلي فغضب، وشتمني، ولكنّي تحديته! وجاءَ الأمر إلى والدي فاستدعاني وقال لي: إنّك أخطأت كلّ الخطأ حين جابهتَ هذا الرجل الكبير بخطئه أمام النّاس، ومن حُسن الأدب أن تَتْركَ المسألة تمرّ، فالصلاةُ أُعيدت، ولم يحدثْ ما يُوجِبُ بُطلانها، وطَلَبَ منّي أن أذهب إلى الشيخ فأُقبل يده، وأُبدِي اعتذاري! وقد قالَ يا أحمق ألاّ تعرفُ ما يقول العامة: «الأدب أفْضَل من العلم».

أعودُ من هذا الاستطراد، لأذكُر أنّ المسجد في عهد طفولتي كانَ مأوْى الغرباء مِن أبْناء السبيل. فعند الغروب يجتمع الغرباء تحت المئذنة، ويُوقِدُون النار في الشتاء مُصطلين، وقد تعوّد أهل الخير في القرية أَنْ يُرسلوا إليهم طعامَ العشاء، فكان أبي يُرسلني إلى هؤلاء بما يجودُ به الله، وبعد صلاة الفجر كان يمرّ ببعض الغرباء فيصطحبه إلى المنزل، وكذلك

يفعل كرام الناس في القرية، وأذكرُ أن منزلنا كان يستضيف واعظَ المركز إذا حضر لخطبة الجمعة، ولوالدي به اهتمام خاص، إذ يَحرص على أن يكون غَداؤه من أرقى ما يُقدّم للضيفان، والرجلُ أنيق في ملبسه، تجلّله العمامة البيضاء واللحية السوداء والمسبحةُ التي تتردّد حباتها بين أصابعه، وهو سيد المجلس، يتكلم فيُستمعُ، ويُشير فيتّبع. ومن ذِكرياتي معه، أنّه حضر ذات يوم بعدَ أن ألقى خطبة الجمعة، واتّجه إلى منزِلنا بصحبة والدي، مع اثنيْن من أصدقاءِ أبي، وكنتُ حينئذٍ طالباً بمعهد الزقازيق الثانوي، فرأيتُ أنْ أجلس مع القوم بعد تناول الغذاء الشهيّ، وقدّمني والدي إلى الواعظ، فقال عني إنّي طالب بالمعهد الديني، وكُنْتُ أنتظرُ من الشيخ أن يُجامِلَني ببعض التشجيع، ولكنّه عبسَ في وجهي، وقالَ في لهجة الاستنكار أنت طالب في معهد الزقازيق الديني ومن أهل العلم، فلماذا لم تحضر معك أثناءَ الخطبة كراسة تنقلُ فيها ما يقول الواعظ ليُفيدَكَ ذلك في بعض المواقف، أنتَ مقصّر جدًّا يا بنيّ! وأشكُوك لوالدك!

فُوجئت بهذا التأنيب، فلم أسكت، وقلتُ له يا سيدي، لقد فَتَحت عليَّ باباً من القول كنتُ أريد أن أُغلقه لأنّك في منزلي، ولكنّي أصارحك أنّي لم أسترح لخطبتك إطلاقاً، إنّك شَرحتَ قولَ الله عزّ وجلّ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ. وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ (المؤمنون: ١ ـ ١٠) فتحدثت عن الصلاة ولغوِ الحديث والزكاة، وطهارةِ العرض، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد حديثاً طائراً عامًّا

ليسَ به أيّ جديد! وكانَ الأولَى أن تقْصر خطبَتك على موضوع واحد، وأن تُشْبعه تحليلاً وتدليلاً ليخرجَ السامع بشيءٍ لم يسمعه من قبل! هذه لَيسْت خطبة يا سيدي!

انقلبَ وجه الشيخ إلى جذْوة حمراء، وتطلَّع إلى والدي يقولُ منفعلاً: ابنكَ يا شيخ أحمد يكْره تفسير القرآن، أهذَا يجوز؟ قلتُ للتّفسير درس يا سيدي، وأَدْركَ والدي حرجَ الموقفْ، فَغضبَ في وجْهي، وأمَرني بمُغادرة المكان، وعلمت أنه اعتذر للشيخ بما يقتضيه المقام وخَرجت غاضباً إلى والدتي ونقلت لها ما دار حرفاً حرفاً، وهي قارئةٌ حافظة لكتاب الله، فقالت يا بنّي الرجل في المنزل، وقد أخطأ وأخطأت، ثم انصرفَ الشيخ سريعاً على غير عادته إذ كان من دَأبه أن ينتظر حتى يُصلّي العصر بالمسجد، وقابلني أبي ضاحكاً فاطْمأْنَنت حين رأيت ابتسامه، وقال لي يا بنّي أنا معك في كل ما قلت، بل أزيدُك أنّي سمعت منه هذه الخطبة منذُ عامَيْن دون أن يلتفت إلى ذلك! وقد أَخرَجتُك كيْلا تزيّد في القول مع رجل لَه مقامه بين الناس! وقد قالَ لي في انفعال: ابنُك الطالب يحدّثني كأنه أستاذ بلْ كأنه عضو في هيئة كبار العلماء! أهذا يجوز!

وأواصل حديثي عن طفولتي، فأذكُر أنّي في سن الخامسة من عمري أُصِبْتُ ببعض القُروح فاصْطحبني والدي إلى طَبيبٍ بالقاهرة، في ميدان السيدة زينب، ونزَلنا بإحدى اللوكاندات في الميدان، فكُنْتُ أجدُ والدي يُوقظني قبل الفجر بساعتيْن لنذْهب إلى المسجد الزينبي، حَيْث يُصلّي متهجّداً، ثم ينتقلُ إلى مجلسِ شيخٍ مهيب يقرأُ درساً علمياً وحوَله الناس، ولأبي سرورٌ بالغ. وإشراقٌ مضيء، حين يأخذُ مكانه بين المستمعين، وأنا بجواره يُغالِبُني النعاس، ولا أكاد أعي شيئاً مما حولي، فإذا انتهى الدرس

بدأ شيخ حسن الصوت بقراءةِ آياتٍ من كتاب الله العزيز، وأنا على مضيّ الزمن لا أزال أتخيّل هذا المجلس العلمي في الحرم الزينبي، وقد سألت والدي عن الشيخ الكبير، فقال لي إنه العلامة الشهير الشيخ محمد السمالوطي عضو هيئة كبار العلماء، ومن عادته أن يقرأ البُخاري لَيليًا قبل الفجر بساعة، أما قارئ القرآن في الخاتمة فهو الشيخ أحمد ندا أعظم القرّاء في عصره، وحين مرّت الأيام واستطعت القراءة في كُتب الأدب وقعَ بين يدي كتاب (المختار) للأستاذ عبد العزيز البشري، فقرأتُ عن الشيخ أحمد ندّا فصلاً ممتازاً لا يخطّه غير كاتب كبير.

وقد حفظتُ القرآن، وانتهيتُ من المدرسة الإلزامية قبلَ العاشرة، ولزمتُ متجر القماش مع والدي عامين قبل أن ألتحق بالأزهر، وكانَ من بلدتي أستاذٌ فاضل هو الشيخ إبراهيم الخميس حالَ مَرضهُ دون الانتظام بالقسم العالي بالأزهر بعد أن أخذَ الشهادة الثانوية وكانَ مشغوفاً بقراءة المجلات الدينية مثل نور الإسلام والإيمان وهدى الإسلام والتقوى مما كانَ يصدر في هذا العصر، فإذا أدّى الصلاة في المسجد انتقل إلى مَتجر والدي، وجَعلاَ يقرءان مَا تجمّع من المجلاّت ويتناقشان في حديثٍ أفهم منه الكثير، وقد قرأ مع أبي كتاب (محمد المثل الكامل) للأستاذ محمد أحمد جاد المولى، كان الشيخ يقرأ وأبي يسمع، ولما رأى والدي حرصي على الاستماع، قالَ لي: أنتَ صغير وسأختار لك كتاباً يناسب عقلك، أقرؤه معك بعد انصْراف الشيخ. وكان الكتاب المختار هو «نور اليقين» للشيخ محمد الخضري، وقد ألمَمتُ به قدر استطاعتي، ولكنّه تركَ في نفسي حُبًا جماً لكتب السيرة النبوية فيما بعد، وما أذكرُ أنّ كتاباً جيّداً وقع في يدي لأحد المعاصرين متحدّثاً عن رسول الله ﷺ إلاّ قرأته باشتياق وكان

ذلك تمهيداً سابقاً، لأتفرّغ في سنّ متقدمة لكتابة تأليفٍ مستقّل تحت عنوان (السيرة النبوية في أقلام الرواد المعاصرين) حيث عَرضت كُتُب الفضلاء من أمثال محمد أحمد جاد المولى ومحمد حسين هيكل ومحمد فريد وجدى والعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم، ولم أنْسَ إلياذة الشاعر الكبير الأستاذ أحمد محرم، وقد طبعت الكتاب لجنة الدعوة بالأزهر الشريف، ومهّدت له طريق القبول.

والْتَحقْت بالأزهر فاشتدتْ صلتي العلمية الوُثْيقة بوالدي، لأنّه ملم بقواعد النحو تماماً، ودارسٌ لكتب الفقه الشافعي، فكانَ في الإجازة الصيفية يقرأُ معي المقرّر القادم في السنة التالية، وكانَ له اسمٌ بين نبهاء القرية في مجالِ الفتوى الدينية حيث كان مرجعاً دقيقاً في شئون العبادات والمواريث والطلاق، ولأجلِ ذلك قرأ كتباً كثيرة في التشريع الإسلامي تَجمع بين القديم والحديث، وكنتُ أشْهَد بعدَ تخرّجي من الأزهر مُناقشات والدي مع أخي العزيز الأستاذ محمود فهمي البيومي وهو مُحامٍ نابه دَرس الشّريعة الإسلامية دراسةً مستفيضة مع دراسة القانون الوضعي بكلية الحقوق! هذه المناقشاتُ التي تتعرض إلى قضايا دقيقة في مسائل الأحوال الشخصية من طلاق وزواج وميراث فكنتُ أستمع إليها، وأنا لاَ أستطيع الخوض في دقائقها! أنا الذي قضى بالأزهر أربعة عشر عاماً! وقد كانَ والدي رحمه الله يُخالفني مخالفةً شديدة في أمور يراني تجاوزت فيها حدّ الحق. وبخاصةٍ في مسائل الطلاق، إذ دَأبَ القرويّون من الباعة والتجار والفلاّحين على حلف اليمين المعلّق، بصُورة متكررّة، والطلاقُ المعلق يقعُ عند الأئمة الأربعة، ولكنّ قانون سنة ١٩٢٩ الخاصّ بالمحاكم الشرعية قد جعلَه غير واقع ما دامَ الحالف لم يقصد طلاق امرأته وعليه سارت الأحكام دون ردّ،

فكانَ أحدهم يجيئني كطالبٍ في الأزهر متسائلاً عن الحكم في طلاق معلق، فأفتيه بأنه لا يقع، ويصل الخبر إلى والدي، فيثورُ ثورة عنيفة، ويقول إني أحلِّل ما حرّم الله، وأنّ الأئمة قد أجمعوا على وقوعه، فكيف يعيش الرجل مع زوجته في الحرام! وقد كانت والدتي تهدئ من روعه وتقول له: إن ابْني يقول إن الدولة والمحاكم الشرعية، ودار الإفتاء، ولجان الفتوى بالأزهر وغير الأزهر، تتّفق معه فلماذا تغضب أنت؟ فيسكت ثم لا ينطق إلاّ بقوله (لا حول ولا قوة إلا بالله) ولا أريدُ أنْ أُحصي أموراً أخرى في غير الطلاق خالفتُ فيها المأثور مِمَّا يَعْتنقُه أبي بناءً على قراءاته من الكتب القديمة، على حين أرتكز إلى فتاوى معاصرة أصْدرها الكبار مِنْ أمثال محمد عبده ومحمود شلتوت وعبد الوهاب خلاف، مثل تناول قطرة العين في رمضان، وأخذ الحقن تحت الجلد فهما مفطران عند والدي، والفتوى الذائعة لدى هؤلاء الكبار تصحّح الصوم مع هذيْن، فإذا ذكرتُ للمستفتي ما أطمئنّ إليه ثارت ثائرة أبي.

ومما أذكرهُ من حسنات هذا الأب الورع، أنّه حفظ كتاب (شفاء الصدور في تفسير سورة النور) للأستاذ الكبير إبراهيم الحيالي، وجعله مادّة دروسه الليلية بالمسجد في شهر رمضان، والأستاذ الحيالي ذو بيانٍ مشرق يخالف منهج الذّين يكتبون وكأنهم يُلغزون، وكنتُ أقول لوالدي إنّ تفسير جزء عم للأستاذ الإمام محمد عبده يُعطي الكثير فيقول قرأته، ولكن الشيخ الحيالي يجذبني إليه بحَبْل متين، وقَد تتَبّع كل ما نشره الحيالي من فصول التفسير في مجلات نور الإسلام والأزهر وهدي الإسلام تتبّع الحريص العاشق فكانَ لا يمل قراءةَ ما كتبه عن سور الحجرات ولقمان والرعد بمجلة الأزهر، ويقولُ: لو أتاحَ الله لهذا الرجل أن يُفسّر القرآن جميعه على

هذا النحو لأتى بخير كثير، وأنا أوافقه تماماً في رأيه، وأذكرُ أن الأيام أسعدتني بلقاءِ الشيخ الحيالي فيما بعد، وحدثته عن غرام والدي بما كتب في باب التفسير، فجعل ينظر في ابتسام، ثم قال: لعلّ والدك الكريم يدعُو لي دعوةً صالحة. فهو رجل مبارك بإذن الله!

وحينَ بدأت أنشرُ مقالاتي بالمجلات الأدبيّة، كنتُ أُرسل بعضها إلى والدي إذ يهمّه أن يُتابع ما أكتب، وفي جلسةٍ هادئة معه، قال لي، أنتَ يا ولدي تكتب مقالات عن الغزل في شعر المرأة. وإنجلترا في مرآة حافظ، والجنّ في منطق الأساطير وشعر معروف الرصافي والزهاوي! وهذا جيّد، ولكنّ الأجْوَدَ منه أن تكتبَ كتاباً يفيدك في الدنيا والآخرة، قلت: في أي موضوع أكتب؟ فقالَ بدلَ أن تتحدث عن الرصافي والزهاوي وحافظ وشوقي تتحدث عن الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل، فتزدادُ علماً وفقهاً، ويدركك الثواب من الله، فكانَ حديث والدي مدعاةً لأن أكتب مُؤّلفاً مستقلاً عن الإمام أحمد بن حنبل في نسق أدبي يُزيل جفاف التراجم الفقهية، وحين قدّمته إليه في طبعته الأُولى الّتي نشرتها الدار القومية للنّشر في أوائل السّتيّنيات، كان فرحه به لا يصدق وقد اشترى من السوق عدّة نسخ منه، وجعلَ يُهديها لمنْ يزوره في منزله من الأحباب كما يصفهم، واتفق مع صديقه العارف بالله الشيخ علي عثمان رحمه الله، أنْ يقرآ الكتاب معاً، في جلسات تحدّد موعدها. وأذكر أن الشيخ علي عثمان قابلَني بعد عدّة أشهر فقالَ لي مبتسماً: الكتاب كلّه نور نور، وكان في نيتي أن أواصل الكتابة عن الثلاثة الأئمة. ولكنّ لله شئوناً تصرف الإنسان عما يبتغيه!

ثم انتقل والدي إلى رحمة الله، فشَيَعْته القرية تشييعاً يليق بمقامه،

ولعلّ خير ما سمعتهُ عنه بعد وفاته، ما حدَّثني به الأخ العزيز (محمد عماشة) وكان يشتغل في مفتتح حياته (بالحياكة) إذ قال لي في معرض التعزية: كنتُ إذا جاءتْني قطعةٌ من القماش للتفْصيل، ووَجدتها تزيد عن المقاس الطبيعي أعرفُ أنها مشتراة من محلّ والدك دُون أن أسأل صاحبها، لأنّ أباك كان يقيس القماش ويلفّه على المتر من الناحيتيْن، ليتأكّد من استيفاء المشتري حقّه دُون نقص، فكانت هذه الزيادة تأتي من تتابع الطيّات! قال الرجل: ولم أعهدْ ذلك أيضاً في تاجر غير أبيك، رحمه الله!

هذا بعضُ ما تسَنّى لي أن أقوله عن والدي وعنْ أثره في اتجاهي العلمي، راجياً أن يشمله الله برحمته، وأن يتغمّده برضاه!

امتحان زائف

حين بلغتُ الرابعة من عمري أرسلَني والدي إلى مكتب القرية، لأحفظ القرآن الكريم، وأتعلّم مبادئ القراءة والكتابة في اللّوح الخشبي الذي يُمسح كلّ يوم بعد أن أحفظ ما فيه ليُملأ من جديد، وكان زملائي من التلاميذ يجلسون على الحصير البالي، وفيهم من يبلغ الرابعة ومن يمتد به عمره إلى الرابعة عشرة، ولا حَرجَ في ذلك لدى الشيخ، فكلّهم يقرأ، والكبيرُ يعلّم الصغير.

وكنتُ لا أجد في المكتب ضِيقاً أو هَمّا، لأنّ والدتي كانت كلّ ليلةً تحفظّني المقرر من كتاب الله، فأُصبح وقد عرفت سلفاً ما سيُمليه الشيخ أو نائبه عليّ. وأقومُ بتسميعه حين يَختبرني الشيخ، فيعلمُ أنّي مجتهد، لا أضيّع لحظة واحدة في المكتب، ويقولُ لوالدي حين يزورني في المكتب إني ذكيٌّ وسريع الحفظ، وهو يبذل معي جهداً خاصاً، ووالدي يبتسمُ لأنه يعرف المجهودَ الذي تقوم به الأم!

وكانَ من عادة الشيخ أن يَصنع المقاطف والقُفف من خُوص النخل، وقد فَرضَ علينا أن نجمعَ الخوص، وأن نغمسَه في ماء البحر المجاور وقتاً غير قصير، ولي نصيبٌ وافر من هذا العمل، كما أنّ بعض الزملاء يذهبون

إلى الحقول فيجمعون لهُ (السّريس) وهو يختلطُ بالبرسيم، ليكوَن إدامه حين يتناول الغداء مع الجُبنة القريش إنْ وُجدت وإلاّ فِفي السريس الاكتفاء، وكان يقولُ لنا إن العُجول والبهائم تأكلُ السّريس فيكفيها ولا تحتاجُ إلى غذاءٍ آخر، فكما يقوم بغذاء الحيوان فإنّه يكفي لغذاء الإنسان! ونحن نُصدّقه لا سيّما وهو مكتمل الصّحة، لم يَشْكُ مرضاً، ووالدُه مثله قد زاد على الثمانين ويأكل مما يأكل، ولا يشكو مرضاً، مع أنّهما لا يذوقان اللحم إلاّ في العيدين حين يأتي إليهما هدّية من أولياء الأمور!

وكانَ موعدُ المكتب يبدأ من الساعة السابعة صباحاً، ثم نُغادره إلى المدرسة الإلزامية في الساعة الثانية عشرة، لأنّ البنات يتعلّمن في الصباح، ونحن نتعلّم بعد الظهيرة، على ذلك كان يجري النظام!

والذي يَجدُ ما يحمله تلاميذُ المدارس اليوم من الكُتُب المتعدّدة، ذات الحمل الثقيل وترى الحقائب المنتفخة بالكتب والكراسات لا يَعلمُ أنّنا في المدرسة القديمة، لم نكنْ نحملُ غير كرّاستيْن، إحداهما للحساب، والثانية للإملاء، أما كُتُب المطالعة فتُوزع علينا عند الدرس بالفصل، ثم يجمعها المدرّس لتوزّع في فصل آخر، وكذلك كُتُب الحساب والمحفوظات والأشياء. والأشياءُ هذه كانتْ بضعة أمور تتعلّق بالصحة وبسائط المعلومات بالطّبيعة والجغرافيا والتاريخ، والعجيبُ أنّنا بهذه الكتب الصغيرة عرفنا ما لا يعرفه أصحاب الحقائب المليئة اليوم، الّذين يأخذون الدّرس الخصّوصي بعد انتهاء اليوم المدرسي، ثم لا يبلغوا مَبلغاً من العلم إلاّ بشقّ النفس! فهل نحنُ في حاجة إلى أن نَرجع للوراء، والزمن يتقدّم في ضوءِ قواعد التربية وأصول التدريس.

وكانَ المفتش يزورُ المدرسة كل عام مرّة واحدة، ولا تتعدّدُ إلاّ في النادر، ولزيارته رَهبةٌ تشمل نفوس المدرسين وتنتقلُ طبيعياً إلى التلاميذ، فهو يدخلُ الفصل متشامخاً وينظرُ إلى المدرّس من علوٍّ شاهق، ويجابُهه بالخطأ أمام التلاميذ، ويعنفّه إذا سأل سؤالاً ولم يُجب عليه التلميذ بغير الصواب! وقد يَضطّر في اليوم التالي إلى الذهاب إلى مدرسة ليْسْت على الطريق الزراعي الّذي تَسير عليه السيارات، فينامُ عند العمدة ثم يُعَدُّ لَهُ (حمار قوي نظيف) يركبُه ومن ورائه أحدُ المدرسين حتى يبلغَ المدرسة المجاورة، ويَعُدّ المدرس نفسه محظوظاً إذا كان هو التابع المختار، وينتظر حتى يعود به إلى الطريق الزراعيّ، فيرحلُ بالسيارة حيث يريد.

وأذكرُ أني حفظتُ كتاب الله حفظاً جيداً، لا بمجهود المدرسة، ولا بمجهود المكتب، ولكن بمجهود والدتي ورعاية والدي وهو قارئٌ حافظ، وقد أُشيَع في المدرسة ذات يوم أن أحد الأثرياء من تجّار المركز (مركز المنزلة) قد تبرَّع بعشرين جنيهاً مكافأةً لأَحْسن تلميذ في مدارس الإقليم يَحفظ كتاب الله، وشَكَره مجلس المديرية الذي كان يقوم على شئون هذه المدارس. وقرّر أن تذهب لجنة (علمية) إلى كلّ مدرسة، فتمتحن من يتقدم للمسابقة، وتَخْتار التلاميذ الفائزين المتقدمين، ثم يتلُو ذلك امتحان ثانٍ يجمعُ الفائزين في المدارس المختلفة ليختار المسئولون منهم واحداً، على أن يضع كلُّ ممتحنٍ الدرجات الخاصة به سرًّا دون أن يطلَع أحدٌ على تقدير أحد، وكانت المسابقةُ مجالاً لنشاطٍ كبير في مكتب الشيخ وفي المدرسة ايضاً، حيْث اختير عشرةُ تلاميذ للامتحان، وكنتُ أحدهم، فجعلَ أولياء الأمور هذا الامتحان شُغْلهم الشاغل، وأذكرُ أننا قَضْينَا خمسة عشر يوماً في عملٍ متواصل، لا نَكادُ نستريح.

وجاء اليومُ المرتقب، فحضرتِ اللجنة الممتحنة، يتقدّمها السيد المفتش الّذي أصبح مَصْدرَ فزع للمدرسة بسلوكه الشامخ، ودار الامتحان الشفوي لكلّ تلميذ على حِده، ابتداءً من الساعة الثامنة إلى الساعة الثانية عشرة، ثم انتهى الأمر باختياري ممثّلاً للمدرسة وتلكَ هي الخُطوة الأولى!

وبعد أسبوعين ذهب المتفوقون من المدارس إلى مدينة المركز، وأُجري لهم امتحان مماثل برياسة السيد المفتش نفسه، وأخذ كلّ ممتحن يضع الدرجة في ورقة خاصّة به، وعند الرجوع إلى ما دَوّن من الأرقام، وُجِدَ رقمان متماثلان حازَا أعْلى الدرجات، فحار الممتحنون، فمنْهم مَن أوْحى بتقسيم الجائزة، حيثُ يأخذ كلّ فائز عشرة جنيهات ومنهم من تشدّد، وقال إن صاحب التبرع قد حدَّد شخصاً واحداً، وقد اشترطَ ذلك فلا بدَّ من تنفيذ رغبته، ورئي بعد الجدل المتواصل أن يُمتحن الفائزان مرة ثالثة ليقعَ الاختيار على الأفضل، وحُدّد ميعاد الامتحان بعد أسبوع، وكنتُ أحد هذيْن!!

وأزفت الآزفة، فذهبتُ في اليوم، والساعة المحدّدين، وكانَ المنتظرُ أن يبدأ الامتحانُ في الثامنة، ولكنَّ الوقت مضى حتى حانت الساعة الحادية عشرة، وعلمنَا أنّ عضويْن تخلّفا، ولم يَحضر غيرُ السيد المفتش وحده، وقد اتّصل بالمسئولين تليفونيًا في المنصورة، فقرّروا أن يقوم وحده باختيار أحد المتسابقين بعد امتحانٍ دقيق ونُودي عليّ، فوجدتُ الرجل يفتحُ المصحف الشريف، ويتنقل بي من سورةٍ إلى سورة قرابة ساعة ونصف، وأنا أُجيب قدر المستطاع، ثم أمرَ بانتهاء الامتحان، ونُودي المتسابق الثاني، فما رَاعني إلاّ أنّه خرج بعد أقلّ من خمس دقائق، وتعجّبتُ، فقلتُ له ماذا تمّ، فقال: سألني سؤالاً واحداً، وقالَ لي مبروك!

فَغَلى الدم في عروقي، ولم أجدْ بدًا من المواجهة الصريحة، فانتظرتُ حتى خرجَ المفتش متّجهاً إلى الباب، فقلتُ له في حدّة، أتمتحن الطالب في دقيقتين ثم تقول له مبروك: لو كنتَ ذكيًا لاستمرّ الامتحان ساعة، ثم أعطيته ما تشاء! فاصفرّ وجه المفتش، ونظر إليّ في غضب، وتركني!!

ذهبتُ باكياً إلى والدي، وحدّثته بما كان، فقال يا بنّي، إن الله لم يشأ لك الجائزة وما تشاءُونَ إلاّ أن يشاء الله! ومَن يدري لعلّ الله صَرْفها عنك منعاً لعيون الناس فقد أكثرُوا الكلام في المرّة الأولى حين فزتَ في المدرسة، وخافتْ والدتك عليك! إنْسَ هذا الموضوع، فقد صَنعت كلَّ ما تقدر عليه، وهذا يكفي.

كان ذلك في سنة ١٩٣٤هـ ثم التحقتُ بالأزهر بعد عامَيْن، وتخرجت سنة ١٩٥٠م وعيّنْتُ بالمنصورة، وقد غابَ عن ذهني تماماً موقف الامتحان القرآني، فما خَطر ببالي طيلة ستة عشر عاماً! وكنتُ أسكن في لوكاندة دار السعادة بالمنصورة لِقُربها من المدرسة وبأسفلِها مقهىً يحمل اسم اللوكاندة يجتمعُ فيه القاطِنُون بالدار وغيرهم، وفي ليلةٍ ما، نظرت في وجوه الجالسين، فدُهشت حين رأيتُ ملامَح رجل تُؤكّد أنه المفتّش تماماً ولم يَحُلْ مرور الزمن دُون تغيُّر هذه الملامح كثيراً، فجعلتُ أسأل نفسي أَهُو؟ أم غيره، ثم اندَفَعتُ إلى كاتِب الفندق أسأله أَلَدْيه اسمُ زائر يُعرف بتوفيق! وهوَ اسْمُه الذي أعرفه جيداً لكثرة تَرداده بيْن المدرسين إذ ذاك، فقرأَ معي الأسماء، وقالَ نعم، هُو هذا، وأشار إلى الأستاذ في مجلسه.

ولا أدري لماذا تملّكتْني رغبة شديدة في محادثته، وكنتُ حديث عهد بالوظيفة وأعدّها مصدّر فخرٍ لي! فحملتُ كرسياً إلى منضدته، وجلستُ

مواجهاً له، وأدّيت تحية القدوم في أدب، ثم قلتُ له: أنت الأستاذ توفيق مفتش التعليم الإلزامي منذُ زمنٍ قريبٍ! فابتسم وقال نعم: أتعرفني؟

قلت له: كيفَ لا أعرفك، وقد ظَلَمْتني دُون حق! فبَانَ الدّهش على وجهه، وقال لم أظلْم أحداً يا بنّي.

قلت أتذكُر التلميذ الصغير الذي امَتَحْنتهُ مع زميل له بالمنزلة في القرآن الكريم ومكثَ أمامك ساعة ونصف، وامتحنت زميله في دقيقتين، وقلتُ له مبروك! ثم قَابَلْتُكَ عند الخروج، وقلت لكَ لو كنتَ ذكياً لاستمرّ امتحان التلميذ ساعةً ثم تقول له مبروك!

أطرق الرجل إلى الأرض، وبانَ من ملامحه أنّه يريد أن يبكي، وقالَ لي: والله يا ولدي لم أنْس كلمتَك هذه ابداً، وكنتُ أقول في نفْسي، تفضحُ موقفك أمام ولد صغير! وأعضُّ على شفتي! لقد أَجبرني أحدُ أعضاء مجلس المديرية، وعقد حولي حصاراً ليلة الامتحان، وباحتياله تأخّر العضوان الزميلان ولم يحضرا، وقد عَلمتُ فيما بعد! ثم كانَ هذا الموقف شُؤماً عليّ، إذ لم يصلْح لي حالٌ في وظيفتي! لقد نُقلت إلى التدريس بالمدارس الثانوية وفي كل عام تَنْطبق عليّ شروط التقدم إلى امتحان الترقية إلى وظيفة المدرس الأول، فكنتُ أتقدّم، وينجحُ غيري وأتخلّف، وأنا أقولُ في نفسي: هذا عقابٌ سماوي أنزلهُ الله بك جزاء ما قدّمت، كلُّ عام أذكره يا بني، وقد امتنعتُ أخيراً عن بلاءِ الامتحان، وفضّلتُ أن أكون مدرساً فقط منعاً للكسوف.

ثم سكتَ كالمتألم، وأدركتُ مقدار آسفه، فلم أَشأْ أن أرجع إلى الموضوع، وكأنه أرادَ أن ينقل الحديث إلى ناحية أُخرى فسألني:

وماذا تَصْنع الآن؟ قلتُ أنا مدرس بالمنصورة الثانوية، لأنّي كنتُ الأول بمعهد التربية العالي، والأول يُعيّن فوراً بالمدارس الثانوية، وقد تلكأت الوزارة معي نصف عام، ثم صَحّحت الوضع!

فنظرَ الرجل كالمتحيّر، وقال تتخرّج من المعهد ثم تُعيّن بالمدرسة الثانوية، ونحن لا نبلغُ ذلك إلا بعدَ عشرين عاماً في المدارس الابتدائية!

قلت ذلك ما كان!

وامتدّ حديث الأستاذ فذكَر أنه جاء إلى المنصورة ليسوّي حالة المعاش إذ ليسَ أمامه غيرُ شهور بسيطة، وقد ملَّ العمل، ثم عَرض عليَّ طلباً سيُقدمه إلى المنطقة في الغد، وقرأت ما كتب فوقفتُ على خطأ نحوي لا يَقع فيه مثله! فقلْت إن الطلب لا بدّ أن يكتب من جديد وأشْرت إلى موضع الخطأ البارز! وكانَ الرجل قد استحيا، فسكتَ ثم قال: اكتُبْه أنت بأسلوبك! لقد مَضى عصرنا يا بنيّ! فصدعتُ بما قال، وأحضرت الورق والقلم وكتبتُ!

ولم أشأ أن أتركه بعد أنْ أنِس بي وأنستُ به، فصحبته إلى المنطقة التعليمية في الصباح، وكانَ المسئولون جميعاً من زملائه سبقتْ بهم الترقية، وتعدّته، فقابلوه باحترام كبير، وتحلّقوا حوله، جزاهم الله خيراً، وأسْرعوا في تلبية رجائه على أحسن ما يكون من الوضع الحالي! فكان في استقبالهم الطيب شفاءً لنفسه وبلسْم لجرحه، ورَجَوْه أن ينتظر مستريحاً في منزله، وسيصلِهُ كلّ شيء بالبريد دُون أن يكلّف نفسه زيارة ثانية!

وخرجَنا معاً، فرأيتُ أن أزيد في سعادته، فقلتُ له: إنّ مكانتك

معروفة، وأنت موضع التقدير والتجلّه من المسئولين، يعترفون بفضلك، وهذا وِسام لامع على صدرك فلا تأسف على شيء.

أصررت على أنْ أحمل حقيبته نيابةً عنه حين توجّه إلى القطار، وودّعته توديعاً صادق الحس، وحينَ وقفت أمام القطار، وهمّ بالركوب، انحنى على رأسي فقبلّني، وأسرعتُ إلى يده فقبلّتها! وهي الأيام!!

المعهد الديني ابتدائيا وثانويا!

— ١ —

التحقتُ بالمعهد الديني الابتدائي بدمياط، فكنتُ مسروراً سعيداً، لأنّ دِراسة المدرسة الإلزامية قد عرَّفتني قواعدَ النّحو، ومسائل الحساب، وشجوناً من حوادث التاريخ، فكان الدرْس العلمي في أكثره غَير جديد عليّ بالسنة الأولى، وكانَ لا يحتاج لاستيعابه ما يحتاجه غيري ممّن لم يَعرفوا ما أعرف، وكانتْ مدينة دمياط بالنسبة إلي القرية الصغيرة التي نشأتُ بها تمثّلُ في عيني شيئاً جليل الخطر، بشوارعها النظيفة، ومنازلها العالية، ومرافقها الحيوية وشارع البحر الّذي يمتد طويلاً، وقد أحاطت به الأشجار على الجانبيْن، كلّ ذلك قد أخذ بِلُبيّ وكانَ اليوم الدراسي يمتد إلى ما بعد العصر، تتخللّه فسحّة طويلة للغذاء، وأثناءَها تَفتح المكتبة أبوابها لمن يريد، وقد أَعجبني أن أجَد الجرائد اليومية، مع المجلات الدينية تُقدّم لمن يريد، فكنتُ أَحرصُ على قراءة الأهرام بالذات، فإذا فرغتُ طلبتُ بعض الكتب التي أجد أسماءها في الفهرس، ومن طرائِف ما أذكر أنّي وجدت كتاباً يسمّى «بالعمدة» ولم أَكن أعرف أنّ العمدة يشغلُ بعض المؤلفات، وهو ريفيٌ يرأس القرية فحسب، فطلبتهُ، فإذا به «العمدة» «لابن رشيق» ولم

يمكث معي طويلاً فأعدّته، وكان أمين المكتبة شيخاً لطيفاً فقال لي في ابتسام: العمدة كبير عليك، أطلْب كتاباً عنْ شيخ الخفر أو شيخ البلد على الأكثر، فابتسّمتُ لِما قال، ثم علمتُ أنّ إدارة المعهد تهيّيءُ دُروساً تطّوعيّة للناس جميعاً بجامع البحر بعد العشاء، فكنتُ أرتاد هذه الدروس في أكثر الأيام، وأخذتُ أوازن بين دَرس ودرس وأستاذ وأستاذ فأصطفيْتُ من الأساتذة مَن صادف هواي، وبهذه الدّروس تطلّعت إلى أفكار جديدة.

وقد حدّثني زميل لي بالسنة الرابعة أن شاعراً كبيراً في دمياط ويسمّى الأستاذ علي الغربي يجتمعُ بطلاب المعهد وطلاب المدرسة الثانوية في إدارة - الجريدة الّتي يقوم على تحريرها - ليستمع إلى قصائدهم حيْث يتولّى تصحيح ما يحتاج إلى تصحيح، ويَنْشُر ما يَراه جديراً بالنشر، فصمّمت على الذهاب إلى مجلسه، وكنتُ في السنة الأولى مستمعاً فحسب، إذ لمْ يَتَّيسّر لي أن أنظم شيئاً. وقْد سمعت منه أن ديوان حافظ إبراهيم أقربُ الدواوين للناشئ الصغير وكان في مكتبة والدي، فأحضرتُه معي عند زيارتي الأولى للقرية، وأخذتُ أجد سهولةً في فهمه، وفي حفظ الكثير من أبياته، ثم جاءت العطلة الصيفيّة فجعلتها خاصّة به حتى كدت أتلُوه عن ظهر قلب، ورأيتُ لساني يجيش بالشعر، فحاولتُ النظم في السنة الثانية، وعرضت ما أقُول على بعض زملائي، ولكني أستحييتُ أنْ أعرضه في مجلس الأستاذ الغربي، وكان ذلك أوْلَى كيلا أحرج.

أخذتُ أقرأ جريدة الأستاذ في شغف، فوجدتُ بعض الطلاب مِن زملائي ينشرون بها قطعاً نثرية، وشعرية في صفحتين خاصّتين بهم، ففكرتُ في أن أكونَ من بينهم، واشتدّت بي رغبة في أنْ رى اسمي بالجريدة تحتَ مقال أدبي، وكانَ زميلٌ لي قد نشر مقالاً صغيراً عن حسّان بن ثابت

أُعجبت به، فسارعتُ إليه بعد قراءته، وسلّمتُ عليه باشتياق وتقدير، فقال لي إن الأستاذ قد اختصر المقال إلى النصف، وأنّه يفعل ذلك دائماً لمعنى يَراه، فقُلْتُ ومن أيْن جِئت بأخبار حسان، فقال من كتاب الأغاني، وهو بالمكتبة فما لبثتُ في اليوم التالي أنْ ذهبت إليها، وطلبتُ من الأستاذ كتاب الأغاني، ولم أعرفْ أنّه يقع في عدّة أجزاء، وسارعَ الأمين فقدّم لي جزءًا، أخذتُ أقرأه، فكانتْ ترجمة جميل بثينة أوّل ما صافحتْ عيني، وعلى مدى ثلاثة أيام، نقلتُ من الأغاني أكثرَ ما راقني من شعرٍ وأحداثٍ، ومواقفٌ بين الحبيبيْن، وقَضيتُ يومي الخميس والجمعة، وأنَا أهيّئ مُلخصاً لما قرأت، حتى استوْت لي صفحتان مليئتان، فبيّضتهما بعناية، وسارعتُ إلى الجريدة، فلقيت أحد المحرريّن، وقدّمت إليه ما بيدّي، وفي العدد التالي وجدت المقال بعنوان «شهيد الحب» وأنا لم أكْتُب هذا العنوان، ولكنّ الأستاذ الغربي قد اختاره، وفرحتُ بما نشر من مقالي، وتحقق بذلك أمل كبير!

لم أدرِ أن نشر مقالي سيُحدث لي قلقاً مزعجاً، فقد شاء أحد رواةُ السوء أن يتصّل بالشيخ حسين البيومي شيخ المعهد الديني ويقول له: كيف يجوز لطالب في معهدٍ ديني أن يَجعل المحبّ شهيداً، وأنْ يذكر قصة غرامه، وكان شيخ المعهد أستاذاً للفقه الحنفي بكلية الشريعة، وعُرف بتشدده الذي يصل إلى درجة الجمود، فتأثّر بما سمع، وطلب حضوري إلى مكتبه، ورأيتُ أمامه جريدة دمياط فظَنَنتُ أنه سيُشّجعني ولكنّ انفعال وجهه منع هذا الظن، وقد سكتَ قليلاً، ثم قالَ في استخفاف، من الذي قال لك إن الذي يُحبّ فتاة عابثة يكون شهيداً، هلْ صِرتَ عضواً في لجنة الفتوى بالأزهر لتحكم في أمور الدين؟ أدَرْكتُ أني في مهبّ العاصفة فقلتُ يا مولاي أنا لَم أكْتُب العنوان، ولكنّي فوجئت به في أعلى المقال، قال: كاذب، كاذبٌ،

قلت تفضّل مشكوراً واسْأَل مدير الجريدة. فسكت ثم قالَ، هل ضاق الحديث أمامَك حتى لم تجْد غير سِيَر الحب والغرام؟ لماذا لم تكتُب عن الأئمة الأربعة أبي حنيفة أو الشافعي أو مالك أو ابن حنبل، أيليقُ بطالب العلم في المعهد الديني أن يتحدَّث عن العشاق والمجانين؟ قلتُ: سأكتب عن الأئمة يا سيدي! فتابع ذلك بقوله: التفتْ إلى دروسك بالمعهد، وَدَعْك من الكتابة. وأنتَ مفصول ثلاثة أيام حتّى أنتهي إلى رأي فيك!

ذهبتُ من فوري إلى أستاذ النحو الأستاذ عبد السلام الريس، وكان يُقدّرُني ويثني عليّ أثناء الدرس حين أسأله وحين يسألني. فأفهمتُه ما تم في مكتب شيخ المعهد، فطلب المقال، وقرأه، ثم قال، أنت لمْ تذْكر غير ما في كتب الأدب المقررة بالقسم الثانوي، فإذا كان الطّلاب يعرفون قصّة جميل في دروس الأدب، فلا حرجَ عليك إذا تحدّثْتَ عنه، غير أني سأحدّث الشيخ بالأسلوب الذي يرتضيه، وفعلاً اتجّه إلى مكتب الشيخ، ولا أدرى ماذا دارَ بين الشيخ والأستاذ، ولكنّ النتيجة كانت مطمئنة، حيث تجاوزَ الشيخ عن فصلي المؤقت، وطلب ألاّ أعود إلى الكتابة أصلاً وأن ألْتفت إلى دروسي!

كان صدى المقال قوياً في المعهد بعدَ تدخّل الشيخ، فعرف الأساتذة وأكثر الطلاب ما كانَ، وشجّعني بعض المتحررين منهم على الكتابة، ولكنْ بعيداً عن العشاق كيلا يغضب الشيخ ثانية! فقلتُ لهم إن الشيخ قد حرَّم عليّ الكتابة بأنواعها، فقالَ أحد الأساتذة سأسترضيه، وقد كان!

وكانت مجلة الرسالة الّتي يصدرها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات في مقدمة المجلات الأدبية الّتي تَشْترك فيها المكتبة، حيث تعرض أعدادها

بانتظام في قاعة المطالعة، وكنتُ أقرأ ما أستطيع قراءته من مقالاتها وقصصها وقصائدها، وأعُدّها أثمن زاد أدبي أتغذّى به! وفي بعض الأعداد رأيتُ مقالاً للأستاذ عبد المتعال الصعيدي يرّد فيه على الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد في مسألة نحوية تتعلّق بشعر الأعشى، ففهمتُ فهماً آخر غير ما عناه الأستاذ الصعيدي، وسارعت بالرد عليه، وكانت المفاجأة أن يُنشر رَدّي بعدد (٣٤٢) الصادر في (٢٠ يناير سنة ١٩٤٠) فأحدث دويًا آخر بين المدرسين إذ إنْ مجلة الرسالة هي مجلة الرسالة، والأساتذة يقرءونها بإجلال وتوقير، وحين جاء العدد التّالي حاملاً ردّ الأستاذ الصعيدي، ومُبيّناً تَسَرّعي في الفهم، لمْ يُنقص ذلك من قدري، لأنّ مجرد نشر الرسالة لي هو في ذاته مظنة تقدير، وأذكر أن الأستاذ محمد عمر الأستاذ بالمعهد، قد دعَاني إلى منزله مع بعض الأساتذة وكبار الطلاب، ليُثني عليّ، وليقولَ إني أضرب المثل الرائع لطالب المعهد الديني! فكانت لفتة كريمة منه.

وجاء موسم الهجرة النبوية، والمعهد يحتفل بذكراها كل عام، فأسعدني أن يدَعوني شيخ المعهد نفسه إلى لقائه، وأن يقول إني سألقي كلمة الطلاب في الحفل حيث اختارني عن ثقة، فاستعددتُ للموقف، وأخذتُ اقرأ المجلات الصادرة في هذه المناسبة، وهي كثيرة كثيرة، فكنتُ اختار المعاني الجديدة التي لم يُسبق إليها، حتى اكتمل ما يصلح للإلقاء، وصادفتْ كلمتي استحسانا، لأن أكثر المتكلِّمين تحدثوا عن المألوف المتعارف من مثل اجتماع دار الندوة، وصحيفة أبي بكر، والاختفاء في الغار ثلاثة أيام، والقدوم إلى المدينة، أما المعاني الجديدة التي اقتبستها من كبار الكتّاب، فكانت موضع ارتياح كبير.

— ٢ —

انتهت السنوات الأربع بمعهد دمياط، وانتقلت إلى القسم الثاني بمعهد الزقازيق وكان مفاجأةً لي أن أرى المدينة عاصمة الشرقية أشدّ احتفالاً بالندوات الأدبية والسياسية والدينية من دمياط، لأنّ الأحزاب السياسية كانتْ ذاتَ أماكن متعدّدة، ولها اجتماعاتُها التي تُقيم بها الحفلات والندوات، فلِلوفد والأحرار والدستوريين أشياعٌ كثيرون، وللجمعيّات الدينيّة مثل جماعة الإخوان المسلمين والشبان المسلمين وجمعية المحافظة على القرآن الكريم احتفالاتُها التي تتنافس في إقامتها، بحيث لا يخلُو أسبوع من اجتماع حاشد يُدعى إليه من القاهرة كبارُ المتحدثين، ولطلاب المعهد الديني نشاطٌ في هذا المضمار، حيثُ تقومُ المناظرات الفكرية، ويُحدَّدُ موعدها ويُختار لها نفرٌ من الأساتذة والطلاب معاً، وأذكر أن جمعية الشبان المسلمين، دعتْ إلى مناظرة اجتماعية تحتَ عنوان (المرأة والتعليم العالي) وكانَ ذلك في سنة ١٩٤٢ حين كان حديث المرأة يَشْغل الصحف، لأنّ كثيراً من عضوات الاتحاد النسائي بالذّات كُنَّ مِن عاشقات الظهور في الحفلات والأندية، وكن يشغُلنَ المجتمع بفيضٍ من الأحاديث والندوات والمقالات انْتَقل صداه إلى الأقاليم، فأقامت جمعية الشبان بالزقازيق ندوة عن التعليم العالي

للمرأة، وأنتخبت جماعة من المتحدثين فيها فريق يرى الاقتصار على التعليم الثانوي إلاّ لكليات الطب والتمريض والتربية ومعاهد التدبير المنزلي مما يلائم طبيعة المرأة، وفريقٌ يرى أن تُتاح الفرصة في جميع الكليات حتّى في الزراعة والهندسة الصناعية، وكنتُ أحد المتناظرين مُدافعاً عن حق المرأة في التعليم العالي بجموع فروعه، ولا أنكر أنِّي استعنت بمقال جيد قرأتُه للأستاذ الكبير محمد فريد وجدي بمجلة الأزهر تحتَ عنوان (هل للمرأة أن تتعلم العلوم العالية» فأفادني كثيراً. ومن الطريف أن الأستاذ الّذي يرأس مجموعة الرأي المعارض بدأ الحديث بقوله (فُرِضَ عليّ أن أنصر الاتجاه الخاص باقتصار المرأة على بعض الكليات) فكانَ ابتدأُه بهذه العبارة هزيمةً لهذا الرأي، لأنّ المعارضين قد أخذُوا من قوله أنّه لا يعتقد صواب ما يدعو إليه، وقد شاركَ الجمهور في التعليق وانتصر الرأي الداعي إلى تعميم الدراسة في كل الفروع، وقد خرجتُ من المُناظرة الحامية برغبة جامحة، في حضور الندوات والاشتراك فيها، وقد كانَ الطلاب لهذا المعهد، على وعْي، ممتاز، وثقافةٍ متطلعة بحيث يَفْضلُون كثيراً من خريجي الجامعات اليوم بمراحل عدة، إذ إنَّ المقارنة بين طلاب الأمس، وأساتذة اليوم تدَعُو إلى الاكتئاب، أمّا الذكرياتُ الموسمية كمولد الرسول ﷺ، وذكرى سعد زغلول، ومصطفى كامل فقد كانت تجد صدًى بعيداً لدى الجمهور، وكان الطلابُ من العاملين في نطاقها، وأذكرُ أن المعهد الديني بالزقازيق أقامَ احتفالاً بالإسراء والمعراج فتقدّم إليه من الطلاب عُشرون شاعراً كلّهم مجيد. واختيرتْ ثلاثُ قصائد تُلقى في الاحتفال، لم تكنْ بينها قصيدتي. وقد تلّقيْتُ النتيجة برُوح رياضية عالماً بأن الله قد مَنح الكثيرين من فضله ما لا يقتصر على الآحاد، وهي روح لزمتني في مختلف الأدوار.

ومهما نسيت من ذكريات معهد الزقازيق فلن أنسى حادثاً كبيراً، جلب عليّ من المتاعب ما لا طاقة لي به، فقد تُوفي صاحب جريدة الأهرام جبرائيل تقلا باشا، وخرجت الأهرام مُجلّلة بالسواد حداداً على صاحبها الصحافي الشهير، ثم جعلت تنشر الصفحات الكاملة حافلة بقصائد الشعراء كباراً وصغاراً وعلى رأسهم خليل مطران وعلي الجارم ومحمد الأسمر وعلي محمود طه وعباس محمود العقاد، ومَن لا يُحصون من الشباب المتطلّع طُلاّبا وأساتذة، فُحبّب إليّ أن أشارك في هذه الوليمة الشعرية التي فتحت أبوابها لكّل قائل، ونظمتُ قصيدة متواضعة كان من أبياتها التي أتذكرها:

أَنَشْبَ الموت في العرين سهامَهْ	فَعَزاءٌ إن أسكنت ضرغامه
كيفَ يُجدي العزاء في خطب شعب	أوقد الهمُّ في حشاه ضرامه
قامَ يستقبل الضياء صباحاً	فرأى الكون لم يُفارق ظلامه
فاجأته الأهرام سوداءَ ولَهى	نكّسَ الحزن فوقها أعلامه
وبكاءُ الأهرام أوّل شيء	يقفُ الشعب في ارتباكٍ أمامه
أين تقلا؟ قم اسأل اليوم تقلا	كيف ألقى إلى المنايا زمامه؟

وقد نُشرت القصيدة تحت عنوان (دمعة معهد الزقازيق) بتاريخ ١٧/٧/١٩٤٣) وأنا لم أختر العنوان، ولكنّ توقيعي كان هكذا (محمد رجب البيومي طالب بمعهد الزقازيق) فرأت الجريدة أن يكون العنوان مُعبراً عن معهد الزقازيق بأجمله، وكنّا في المسامحة الصيفية والمعهد غافٍ في الإجازة. وما كِدنا نبدأ العام الجديد في سبتمبر سنة ١٩٤٣، حتى وجدتُ مَن يدعوني إلى مكتب شيخ المعهد الديني (مثلما كان قبل في معهد دمياط)

فذهبتُ خالي الذهن عنْ أسباب المقابلة! وجلستُ أمام شيخ المعهد ليسألني غاضباً، مَنْ الذي جعلكَ تتكلم باسم معهد الزقازيق في رثاء صاحب الأهرام، قلتُ يا سيّدي أنا لم أكتب العنوان، ولكنَّ الجريدة هي التي اختارتْه، ولك أن تسألها في ذلك، قال مستنكراً أسأل الجريدة بعد ثلاثة أشهر! ثم قال ألا تعلم أن رثاءَ جبريل تقلا على لسان معهد الزقازيق يثير حساسيّة. وقد ألهمني الله الرد، فقلتُ إن الأهرام قد نشرتْ رثاء مستفيضاً للراحل بقلم صاحب الفضيلة الشيخ محمود أبو العيون شيخ المعهد الديني بالإسكندرية، وأنت تعرفُ فضلَ زميلك الكبير، وهو لم يستشعْر أدنى حساسية! قالَ: قرأت مقال أبي العيون ولم يُصادف ارتياحي! فقلتُ ومجلة الأزهر الناطقة باسم الأزهر الشريف نشرت مقالاً كبيراً في تأبينه وأشارتْ إلى حرصه على نشر البحوث الإسلامية بروح إنسانية لا نراها عند الكثيرين! فتطّلع الرجل إليّ، وقالَ! لا تَنْشُر من الآن شيئاً توقعه بانتسابك لمعهد الزقازيق لأنّك غير حصيف! وأعلن انتهاء المقابلة في شبه استياء!

خرجتُ متوتر الأعصاب، حائراً في موقف الشيخ، ولم تمضِ أسابيع حتى قامت مظاهرات من الطلاب تدعُو إلى عَزْله لتعسفات كثيرة قامَ بها بشأن بعض الطلاب الذين يُظاهرون حِزْباً سياسياً يكرهه، وتعدّدت مظاهر الإضراب، فرأتْ مشيخة الأزهر أن تبادر بنقله ليهدأ الموقف وقد كان!

أمّا الحادث الذي أسعدَني حقاً، وأمدَّني ببعض الثقة في نفسي، فهو تأليفي (مسرحية عذاب المستضعفين)، في فَصْل واحد، فقد قرأتُ بأحد أعداد الرسالة الممتازة التي كانت تصدر في مفتتح العام الهجري مسرحيَّة للشاعر الأستاذ محمد عبد الغني حسن تحت عنوان (هو النبي المنتظر) وقد جمع فيها نفراً من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام، ومنهم الأعشى وزهير

وحسان بن ثابت وقس بن ساعدة الأيادي، فجعلَ كلّ شاعر يتحدث عن همومه الخاصة. فحديثُ الأعشى عن الخمر والنساء وحديثُ زهير عن الحياة وما بعد الموت، وحديثُ حسّان عن شعوره نحو اتجاه ديني جديد، وحديث قس عن نبي منتظر سيبعث، وقد قرأتُ المسرحية عدّة مرات، وملكتْ على مشاعري وأنا طالب ناشئ، فتَساميْتُ إلى أن أنظم مسرحية تحت عنوان (عذاب المستضعفين) أجمع فيها بين عمّار بن ياسر، وخباب بن الأرت، وصُهيب وزنيرة وبلال ممّن لاقوا العذاب من جبابرة المشركين، ليتحدث كلّ ببعض ما لاقاه، وقد ابتدأتُها بحديث عمار حين قلت على لسانه:

عادتْ شِقوتي واشتدّ ما بي ... وطالَ تأوُّهي وعلاَ انتحابي
بكيتُ من السياط تدقّ عظمي ... وتَسلخ كل ثانية إهابي
فليتَ الموت يلحقني سريعاً ... فأنجُو من تباريح العذاب

وبعدَ ما يُشبه هذه المعاني ردَّ عليه صُهيب بقوله:

أخي عمارُ قد فاضتْ دموعي ... عليك أسىً وعاودني اكتئابي
فلا تُحزنك شدةُ ما تلاقي ... فإنّا كلّنا تحتَ العذاب

فيرد عليه عمار قائلاً:

ومَنْ مِثلي أمضّته الرزايا ... فكانَ مصابه شرّ المصاب
أبي تَحْتَ العذاب مضى شهيداً ... وَوارينَاهُ في جوف التراب
وَأميّ مثله بالأمس سارتْ ... مبكرة إلى دار المآب
فبئس العيش بعد أبي وأميّ ... فقد وَلّى لفقدهما صوابي

ودارت المسرحية على هذا النحو، فقد باذر بلال بتسلية عمار، فذكر ما أصَابه، وكيف وُضع الصّخر السّاخن على جسمه في حرّ الرمضاء، وأمية بن خلف يهوي عليه بالسوط، إلى أنْ جاء أبو بكر فنجاه بشرائه، وهكذا تتابع الحديث في تسلسل بين صهيب، وخباب، وبلال. ومِن أحسن ما أشار إليه خباب، حديثُه عن سيدته الكافرة التي جَعلتْ تحرق صدره بالنار، وشكواهُ إلى رسول الله مِن هول ما صنعت، فقال عليه السلام ستأخذ ثأرك عن قريب فسأله عمار:

ومـاذا تـمّ يـا خَـبّـاب عـجّـلْ	فـإنّـي عـن حـديـثـك غـيـر وانِ
هـلْ أدركـت ثـأرك مـن عـدوّ	يـقـلّـب فـيـك عَـيْـنَـيْ أفـعـوان

فقال خباب:

نـعـمْ صـدق الـرسـول وجـاء يـوم	قـريـبٌ قـد شـفـيـتُ بـه جـنـانـي
غـداة اصـابَـهـا داء عـضـال	لَـه فـي جـسـمـهـا وقـع الـسّـنـان
وقـال طـبـيـبُـهـا تـكـوى بـنـار	تـطـهّـر جـسـمـهـا مـمـا تـعـانـي
فـقـمـتُ بـكـيّـهـا ولـهـا صـراخ	يـزلـزلُ صـوتـه قـنـن الـرعـان

فقال صهيب:

لـعـمـري تـلـك مـعـجـزة لـطـه	وهـل لـمـحـمـد فـي الـنـاس ثـان

فرد خباب:

(وهلْ لمحمد في الناس ثانِ)

وما أريد أن أنقل المسرحية. فأثقُل على القارئ، ولكني أشير إلى حديث زنيرة باقتضاب حين عذّبها أبو جهل حيث قالت عنه:

يُفتّتُ جلديَ تحت السياط | إلى أن يَرى دمه يقطر
ويقذفُ بالجمر في مقلتيّ | إلى أن عميتُ فما أُبصر
وردّ الآله لعيني الضياء | فها أنذا بينكم أبصر

ويأتي الختام على لسان صهيب يؤكد نصرة الحق، وإنْ طال أمد الباطل، وهو ما أعنيه من المسرحية وقد نُشرت بمجلة (مصر الفتاة) فاحتلّت صفحتين كبيرتين، وقرأها المشرف على جماعة التمثيل (لجمعية الشبان المسلمين) فسعى إليّ بالمعهد الديني، وأخبرني أنّه اختارها لتكون تمثيلية الموسم في عيد الميلاد النبوّي وأنّ جماعة التمثيل ستقوم بأدائها على أحسن وجه، ولكنْ عليّ أن أحضر كلّ يوم إلى دار الجمعية، ليقرأها الممثلون أمامي، وأقوم بضبط الكلمات، ورعاية مخارج الحروف، لأنَّ هذه أول مسرحية شعرية تقوم بها الجماعة، وكان من بينها طالباتٌ بالمدرسة الثانوية، فاختِيرْت إحداهنّ لأداء دور (زنيرة) فأعجبت المشاهدين لروعة أدائها الّذي مثل المعاني أحسن تمثيل، وحينَ أُعلن عن المسرحية ذهب أكثر زملائي من طلبة المعهد الديني مع جمهور كبير ملأ ساحة التمثيل، وكانت ليلة العُمر بالنسبة إلى طالب مثلي، وقد قام رئيس الجمعية وهو محامٍ شهير بالتعقيب المشجع على أدوار الممثلين، وأبيات المسرحية فقوبل حديثه بالتصفيق.

هذا بعض ما أسطره عن ذكريات المعهد الديني بالزقازيق، وقد نَسيت بعض المواقف لطول الأمد، وفيما ذكرته ما يعوّهن ويشير إلى نمط الأسلوب.

* * *

كلية اللغة العربية بالقاهرة

بعدَ المعهد الثانوي انتقلتُ إلى كلية اللغة العربية بالقاهرة، ولم تكُن القاهرة غريبةً عن ذهني، فقد كنت أطالع في الجرائد، ما ينبئني عن شوارعها وآثارها التاريخية، وندواتها الأدبيّة الّتي كنتُ أحرصَ ما يكون على الاستمتاع بها، لِذلكَ ما كدت ألتحق بالكلية حتى اطمأننَتُ إلى بعض زملائي في السنوات العالية كي يكون رائداً لي في التعرف على ما أحب، وكان الرائد وفيًا أميناً كما وددت.

وأوّل مشهد علميّ رأيته، هو مناقشةُ رسالة علمية، فقد وَجدت في فناء الكلية عنواناً خاصًا بمناقشة رسالة في كلية أصول الدين يرأسُ لجنة مناقشتها الدكتور منصور فهمي باشا، وكانَ اسمه في هذا الوقت جهيراً يقرن بأسماء أحمد لطفي السيد وطه حسين والعقاد، أمّا المناقشون فمن صفوة أساتذة الكلية، وجميعُهم يحمل الدكتوراه من جامعات الغرب، قرأتُ الإعلان فصمّمت على حضور المناقشة لأشهد مجلساً لم اشهده من قبل، وقد راعني أن أرى ونحن في كليّة أزهرية طائفةً من الرهبان الدومينيكيين، ومن بَيْنهم الأب جورجي شحاته قنواتي، كما أرَى ثلاثَ سيدات أجنبيات يحضرن مناقشة رسالة في علم الكلام، ويحملنْ أوراقاً يُدوِّن بها ما يلحْظنه

من الأفكار الكلامية وبعض من ترددت آراؤهم من أمثال الزمخشري والقاضي عبد الجبار والفخر الرازي؛ فقلت في نفسي! ما شاء الله يهتم هؤلاء السيدات بأساطين علم الكلام، ويَحْرَصْنَ على مشاهدة المناقشة، ولا أرَى مصرّية واحدة تشاركهن هذا الاتجاه، ثم علمتُ أنهنّ صديقات الأب قنواتي، وأنه هو الذي دعاهن ليشهدْن نمطاً من التفكير الأزهري الحديث!

وكانَ الباحث الذي أعدّ الرسالة هو أستاذنا ـ فيما بعد ـ الدكتور عوض الله جاد حجازي وقد أبلى بلاءً حسناً في الإجابة، ثم نال أعلى الدرجات التقديرية، وحين ذَهَبْنا لتهنئته وجدّتُه يبكي! فعجبتُ لهُ أن يبكي بعدَ أن نال هذا التقدير، وقلتُ لعلّها دموع الفرح! وحافظ إبراهيم يقول:

شكرتُ جميل صنعكم بدمعي ودمع العين مقياس الشعور
لأول مرة قد ذاق جفني على ما ذاقه دمع السرور!

وقد جعلتني هذه المناقشة أحرصُ على شهود ما أستطيع مشاهدته في الرسائل الجامعية بالأزهر وخارجه، وأفدت كثيراً مما سمعت!

أمّا الكلية، فقد كان رجالها من خيرة الأساتذة، ولهم شيخ كبير هو الأستاذ إبراهيم الجبالي عميد الكلية، وكانَ من عادته أن يزور الأساتذة في المحاضرات، يجلس مستمعاً، ثم يناقشُ الطلبة والأستاذ فيما يعنّ له، والرجلُ رحمه الله طويلُ الباع في العلوم وفي دروس الأدب والنحو والبلاغة، وكأنه تَخصّصَ في هذه المواد جميعها؛ والجامعاتُ الآن لا تَرى من حقّ العميد أن يَزُور الأساتذة ويُناقشهم في دُروسهم، وكان الأوْلى أن تصرّ على هذا التقليد الأزهري القديم، لأنّ الأستاذ إذا توقّع مَجيء العميد اجتهدَ واستعد!! وتلك غنيمةٌ للطلاب!

وليَ مع هذا الشيخ قصةٌ طريفة، فقد كان من ابتكاراته ألاّ يسمح لطالب بإجازة ما دون أن يرى الطالِب، ويَسألهُ عن مبررات الإجازة، وقد اعتادَ أن يُوجّه للطالِب سؤالاً علمياً ليُجيب عنه فإن أَحسْن الإجابة شَفَعَ له اجتهادُه فيما يطلب، وإن أخطأ قُوبل بالصدود، وفي ذات يوم جاءَني خطاب من والدي يخبرني فيه أنّه سيزور القاهرة في الساعة الثانية عشرة من يوم حدّده، وقد طلب أنْ أكون في استقباله بمحطة باب الحديد عند وصوله، فتقدمتُ بطلب الإجازة لفضيلة الشيخ، فأجلَسني ثم قال: أريدُ أن تعرب قول الشاعر:

وكلّ رفيقيْ كل رحل وإن هما تعاطى القنا قوماهما أخوان

وكنتُ على ذكر من هذا البيت، أُلم بمعناه، وأَعرف مناسبته، وأعرف أنّ المبتدأ في أوله، والخبر في آخره، فقلتُ للشيخ مبتسماً، سأُعرب البيت كما تريد، ولكنّي سأسألك عن قائله، وعن مُناسبته، وعمّن أخطأ في إعرابه من كبار النحاة! فابتَسم الشيخ وقال: جئتَ بآبدةٍ، جئتَ بآبدة! فقلت كلّ مبتدأ، وأخوان خبرٌ، والجملةُ الشرطية معترضة، والّذي أخطأ في إعرابه هو العلاّمة ابن هشام في كتاب المغنى! وكانَ بالمجلس أستاذنا الشيخ محمد الطنطاوي أستاذ النحو، فقال للشيخ. هذا الطالب من كتّاب مجلة الرسالة، فأشرقَ وجه الشيخ، وقال مبتسماً:

اذْهب يا بنيّ لوالدك ولغير والدك، نحن لا نَتشدّد في الإجازة إلا مع المتعلمين! أمّا العلماء أمثالك فلهم ما يشاءون!

وحديثُ الأستاذ الطنطاوي عن الرسالة يُجيزُ لي ن أتحدّث عن فضل الرسالة عليّ في هذا العهد، فقد كان الأستاذ الزيات يُفسح صدر مجلته

الراقية لمقالاتي وبحوثي. وأنا طالب بالكلية، إذ نشرتُ بحوثاً شتّى عن الغزل في شعر المرأة وإنجلترا في مرآة حافظ والجن في منطق الأساطير، وهيام المتصوفين، والمرأة عند الرصافي، هذا إلى فصول أخرى تتعلق بالأعلام المعاصرين كمحمد عبد المطلب والمنفلوطي وولّي الدين يكن والزهاوي مع قصائد اجتماعية وعاطفيّة، ومما كانَ له صدى في الكلية ما نشرتهُ تحت عنوان (عمر بن الخطاب الأديب) حيث كانَ هذا الموضوع مقرّراً على طلاب السنة الثانية في دروس النقد، ولم تكُن له حينئذٍ من المراجع ما يشفي الغلّة، وأذكرُ أن فضيلة الأستاذ الكبير أحمد شفيع كانَ يخصّ مقالاتي بالتنويه في محاضراته، ويدعو الطلاب إلى قراءتها ونقدها، وهذا فضلٌ منه لا أنساه، كما أذكر أنه كان ذا مروءة مع الطّلاب المعسرينَ يمدُّهم من راتبه الشهرّي ما هو في حاجة إليه، عن سماح فطري جُبل عليه، وقد تأكدتْ بيني وبينه صلة أدبيّة وثيقة فانتفعتُ كثيراً بعلمه ونقده.

أما الّذي عجبت له فموقف أستاذي الجليل الشيخ شبل يحيى وكان يُدرّس لنا المنطق بالكلية، وقد اشتُهر بالشاعرية إذ كانَ يلقي قصائده في ندوات الجميعات الدينيّة، وفي يوم من الأيام أعطاني ظرفاً لأقرأ مَا فيه، ومَضَى، فطالعته فإذا قصيدة منْ إنشائه في موضوع دينيّ، يَرجُو أن أُطالِعها وأُصلِح ما بها من الأخطاء، لأنه نظمها على عجل استجابة لرغبة المسئولين، ويَخشى ألاّ تحوز القبول، وقد قرأتُ القصيدة فوجَدتُها حسنة، وليسَ بها ما ينتقد معنى ومبنى! ولكنّي في الوقت نفسه دهشتُ لعالم فاضل يدفعه تواضُعه إلى أنْ يقول لتلميذه الناشئ «أرجو أن تصلح ما بها من الأخطاء» فأعدتُ كتابة القصيدة بخطي، وأضَفْتُ إليها ما رأيتُ أن الموضوع يحتاج إليه، ثم قدّمت له الظّرف مغلقاً كما جاء، وحين استمعت إلى

القصيدة في الجمعية وجدتُ الرجل المتحرّز قد حذف جميع ما أضفته، ولم يَسْمح لنفسه أن يستعيرَ شيئاً مما اختلف، ثم قابلتهُ فسألتهُ! كيف تعتقد أن مثلي يتولّى تصحيح شعر رصين لشاعر مطبوع، فصَحبني إلى مجلسٍ بنادي الكلية، وطلب لي فنجان القهوة، وقال: يا بنيّ الحق أحق أن يتّبع، وقصائدك في الرسالة والثقافة تُثبت براعتك الفائقة، والشعرُ موهبة، وقد أكونُ ناظماً لكنّي غير موهوب! لقد أسرني الرجل بحديثه المليء بالتواضع، وضربَ لي مثلاً في السمو الخلقي الرفيع.

أما الأستاذ محمود رزق سليم فقد كانَ من خيار الأساتذة، وكان نابهاً مرموقاً، وقد ألف موسوعة أدبيّة في ثمانية أجزاء كبار عن (العصر المملوكي) سياسةً وعلماً وأدباً، وبذل جهداً كبيراً في تأليفه الموسوعيّ الفياض، وحين صَدر الجزء الأول والجزء الثاني تفضّل بإهدائهما إليّ. وطلب في استحياء أن أُبدي رأيي فيما كتب على صفحات الرسالة، وهُو بفضله في غير حاجة إلى رأي طالب ناشئ! وقد قرأت الجزءين قراءةً مستوعبة ونشرت عنهما بحثاً بمجلة الرسالة كما أراد بالعدد (٧٨٨) الصادر بتاريخ ١٩٤٨/٨/٩، بدأته بالثناء الحافل على مجهود الأستاذ، وأفَضتُ في ذلك ثم أشرتُ إلى أهمّ الموضوعات التي حازت انتباهي وقلت «على أني أخالف الأستاذ في ناحية هامة تشيعُ في مؤلفه، فقد حرص كل الحرص على أن يُترجم لكل مَن ولي السلطة أو نابَ عن الوالي، وكذلكَ من تحدّث عنهم من القضاة والخلفاء، وفي هؤلاء مَن لا يستحق أن يُترجم له، أو أنْ يكتب عنه سطر واحد، حيث كان فرداً عادياً، لم يُخلّف أثراً، ولم تَحْدث في عهده من المفاجاءات ما يَدعُو إلى الحديث عن زَمن ولادته، ومسيرة حياته، وآونة وفاته، وإنما وُلد ووُليَّ وعُزل وكأنّه لم يُولد، فلِمَ إذن

نُتْعب أنفسنا في تراجم أصنام أدبيّة، قذف بها الزمن في قراره السحيق».

وقلتُ عن إفاضة الأستاذ في ذكر أخبار النيل والجسور والترع والمقاييس حتى يملأَ أكثر من عشرين صفحة، بأرقام الصعود والهبوط وتواريخ الزيادة والنّقص، قلت: «إن هذه مغالاة لا تفيد القارئ في شيء، وما دَامت هذه الصفحات تسير على وتيرة واحدة فيكفي أنْ يسطر الكاتب نموذجاً مختصراً منها على سبيل المثال».

وقرأ الأستاذ النقد، ولم يُعقّب عليه بالرسالة، ولكنّه قابلني بالكلية، فقال لي يا أخي أنا أخالف وجهة نظرك فإنّ التاريخ لرجال هذا العصر لم يُكتب بعد، وقد يكونُ في هؤلاء النكرات من تُظهر الأيام مؤلفاته إن كان باحثاً، أو مواقفه إن كان ذا شأن سياسي، يظْهرُ ذلك في كتاب مخطوط لم يُطبع للآن، فكون ما كتبته إضاءة مُختصرة تُفيد الباحث القادم، أمّا النيل فهو رُوح مصر، وقد اهتمّ المؤرخون في الحديث والقديم حتى كتب عنه المرحوم أمين سامي باشا موسوعَة حافلة في تسعة أجزاء! فلِمَ لا أستفيضُ في الحديث عنه! قلتُ إن هذه وجهة نظر صحيحة، وقد عَدَّلتُ موقفي النقدي!

وحين تعدّلت المناهج بكلية اللغة العربية كان على الطالب أن يدرس إحدى اللغتين الفارسية أو العبرية، وعلمنا بذلك فسرّنا أن نَدرس الفارسية لأنها لغةٌ إسلامية وشعراؤها يعتبرون روحاً وأسلوباً من شعراء العرب، ولكنّا فوجئنا بأستاذٍ منتدب من كلية الآداب لدراسة العبريّة، فاجتمعَ الطلبة معترضين، وكنتُ أحدهم، وذهبْنا إلى مكتب شيخ الكلية الأستاذ عبد الجليل عيسى، وعَرضنا عليه رَغبتنا في أن تكونَ الّلغة الفارسية موضع

الدراسة لأنها لُغة إسلامية، فقَال لقد تحدثتُ مع عميد كلية الآداب فقال إنه يُفضِّل تدريس اللغة العبرية، وبَعث بهذا الأستاذ ليدرسّها، فإذا أردتم أن تذهبوا إليه وتُقنعوه بإرسال أستاذ للغة الفارسية فلا مانع ومعكم حجتكم.

قُلنا سنذهب، فقال الأستاذ عبد الجليل يكْفي ثلاثة منكم، واختارَني من بينهم ثم حدّث الدكتور عزام عن الوفد القادم فصادف ترحيبه، وما كنْنا نصلُ إلى مكتب العميد بكلية الآداب، حتى تَركَ المكتب، وحيَّانا ببشر مؤنس، وكأنّه يلّقى أعز طلبته، وقالَ في ابتداء حديثه لا تنسُوا أني أزهري تخرجتُ من مدرسة القضاء الشرعي، وأعتبر نفسي أحدكم، فماذا تريدون؟

فتكلّمتُ عن وجهة نظر الطلبة في تدريس اللغة الفارسية، وأنّنا جئنا نرجو العميد أن يتفضل بانتداب مدرس للمادة، فانتظَر حتى إذا انتهيت من الحديث، تطلَّع إلينا في بشر عطوف وقال: نسيتُم شيئاً هاماً إن الأزهر حصنُ الإسلام، وأنتم دُعاته المرتقبون، وَعَدُوُّنا اليهودي لُغته هي العبرية، وهو يُرسل السموم بها إلى إذاعات كثيرة تؤيّد منحاه، ولا بدَّ لكم أن تُتقنوا العبريّة لتسمعوا هذه الإذاعة المسمومة، وتَفهموا أساليب الكيد والاحتيال، ثم تَقُوموا بالرد على من يتعمدّون تشويه محاسن العروبة والإسلام، وأنّا شخصياً كنتُ أعتبر اللغة العبرية في قسم اللغات الشرقية بكلية الآداب لُغةً هامشيّة، ولكنني منذ قامت دولة إسرائيل، اهتممت كثيراً بهذه اللّغة، وأحضرت لتدريسها الكفاءات الممتازة من رجالِ الجامعة، والكتب الأصيلة ذات النفع المؤكد، ولن يكون الأزهر أقل اهتماماً من كلية الآداب، في هذا المجال، وإليه تتوجه الأنظار وصوته هو المسموع.

سمعنا كلام الدكتور فلم نستطع معارضته، وخرجْنا نمدحُ حسن

استقباله، وكريم عطفه وبُعْد نظره، رحمه الله، وحين قابلَنا الأستاذ عبد الجليل عيسى أقْنَعْناه بصواب نظرة الدكتور عزام فابتسَم وقال لقد شرح لي ذلك تليفونياً، ولكنّي آثرت أن تسمعوا الحديث من شخصه لأنه فاضل كريم.

وعلى ذكر الأستاذ عبد الجليل عيسى فإني أحمل لهذا الأستاذ دَيْناً في عنقي لا أنساه، فقد وقفَ معي موقفاً جريئاً، وتحمّل عاقبة مَوْقفه بقلب شجاع، ويقين صادق، وما أظنّ أحداً أن يقوم مقامه في هذا الموقف النبيل.

فقد قُتل محمود فهمي النقراشي رحمه الله بيد أحد المتسرعين من الإخوان المسلمين، وقامت الدولة باعتقال كلّ من ينتسب إلى الإخوان، بالكلّيات والمدارس وغيرها، وكنت ممن يكتبُ أسبوعياً بجريدة الإخوان، فتوقعتُ أن يُقبض عليّ، ووكلْتُ أمري إلى الله، وكانَ توقيعي الأدبي على القصائد والمقالات باسم (محمد رجب البيومي)، وهو الاسم الذي اشتهرتُ به، أما اسم البطاقة المأخوذ من شهادة الميلاد والمؤرخ في كشوف كلية اللغة العربية فهو (محمد أحمد البيومي) وقد أرسلت الداخلية تسألُ الكلية عن وجود محمد رجب البيومي بها، وقرأ الأستاذ عبد الجليل رسالة الداخلية، فأخَذَتْه الرحمة عليّ، دُون أن يكون لي به اتصال خاص، ثم استدعاني فوراً، وقالَ في لهجةٍ أليمة، يا بنيّ لقد سألت الداخلية عن محمد رجب البيومي، وليسَ عندنا هذا الاسم، وهو مَخْرجٌ نتحلّل به مؤقتاً، فَقد يُفيد في انصراف الطلب عنك، وأنَا أعلم أنك لَسْت قاتلاً ولا سارقاً وَلا زانياً، ولو كنتَ كذلك لما تستّرتُ عليك، ولكنّي أعرف أنك شاعر تحب الإسلام وتنطق بفضائله، وهذه رسالةُ الأزهر التي أؤمن بها! وسأكتبُ بأنّ هذا الاسم غير موجود لدينا، وعليكَ فوراً أن تذهب إلى قريتك فتستّر بها دون أن يعرف أحد بمقدمك إليها فيعلن وجودك، ولا تحضر إلى الكلية إلاّ

يوم الامتحان بعد شهريْن، وقد تكونُ الأحوال قد هدأتْ نوعاً ما، هذا ما أشير عليك به، والله المستعان.

كان ارتياعي من النبأ يُخفف منه موقف الأستاذ، ويُشعرني بإحساس جياش نحوه، كله تقدير وإجلال، وقد سارعتُ بالذهاب إلى القرية وَدَخَلْتُها في جُنْح الليل كيلا يراني أحد، وأخبرتُ والديّ بما يتهدّدني، فاتفقا على أن أقيم بالغُرفة العليا من السطح وأنْ تَظّل الغرفة موصدة، لا يدخلها أحدٌ غير أميّ التي تعد الطعام والشراب. وأبي الّذي يزورني بعد العشاء حين تسكن الشوارع في الريف بعد الصلاة، ومَعِي كتبي، وقد قامتْ والدتي من تلقاء نفسها بإحراقِ مجلات دِينيّة كثيرة كانت تخصّني، ومن بيْنها مجلات الإخوان المسلمين، إذْ علِمتْ أن فِرقاً من التفتيش تقتحم المنازل، وتبحث عن الصّحف والمجلات والمنشورات، وتأخذ بأقل الشبهات، وكانت الخسارة العلمية فادحة لأنّي كنت أجمع أكثر ما يصدر من الصحف الأدبية والدينيّة، فلم تفهم الوالدة إلاّ أنّ الإبادة للأوراق إحدى سبل النجاة.

وجاء موعد الامتحان فسافرت ليلاً حيث لم يرني أحد، وأخذتُ مكاني في قاعة الامتحان خائفاً أترقّب. ودعاني الأستاذ عبد الجليل فقال ستمرُّ العاصفة، ويكون امتحانك الشفوي بتدبيري في أولّ يوم لترجع إلى القرية على وجه سريع! ألَيس هذا الموقف النبيل من مواقف المروءة، والتكافل الإسلامي الحبيب؟

هذه خطرات أسجلها عن عهدي بالكلية، وهي مما ذكرت الآن إذ فات الكثير.

معهد التربية العالي بالإسكندرية

انتقلتُ إلى معهد التربية العالي بالإسكندرية عقب الانتهاء من الدراسة بالكلية، ووجدتُ الأساتذة من حملة الدكتوراة في التربية وعلم النفس والاجتماع مِن جامعات أوروبا، ولهم اعتزازٌ شامخٌ بمواهبهم العلمية لم نكنْ نعهده في أساتذة الأزهر، إذا كانُوا لا يَقبلون نقاشاً في المدرجات من الطلاب، وكأنّهم يُلقون محاضرات في المذياع وما هكذا كنّا نجد أساتذة الأزهر الذين يرحّبون بالنقاش مهْما تطاول أمده ويَرونه أمراً طبيعياً في الدرس لا مَحيد عنه، بل بِدُونه يفقد الدرس العلمي أقوى دعائمه، وفي الدّروس الأولى بالأسبوع الأول أَخَذَ كل أستاذ يؤكد أن الدراسة بالمعهد تختلفُ عن الكليات الأزهرية لأنّ هذه الكليات تعتمد في الدرّس على كتاب واحد ينحصرُ الأستاذ في دائرته ولا يتعدّاها، أما الدراسة بالمعهد فلا تُعتمد على كتاب واحد، بل يُقدّم الأستاذ في نهاية الدرس طائفةً من المراجع، فيبحث الطالبُ في مكتبة الكلية عنها، ويقرؤها، ويبني الموضوع على أساسها، هذا ما أكده كل أستاذ في الأسبوع الأول، وقد شَعُرنا بعبءٍ ثقيل لا بدّ من تحمّله حتى نهضم المادة ونستطيع الامتحان فيها آخر العام، ثم جَاء الأسبوع الثاني فوجَدنا كل أستاذ يفرض على الطّلاب كتاباً من تأليفه

الخاص، ويقولُ إنه هو المرجع الأول، ولن يَخْرج عنه الامتحان وقد شعرَنا بالدهشة لهذا التراجع؟ فأين الحملةُ على الكتاب الأزهري مع أنّه قد يكون أرسخ قدماً في موضوعه من مذكرات الدكتور الّتي جُعلت في هيئة كتاب! ولا أنكُر أن بعض الأساتذة كالدكتور أحمد عزت راجح قد ارْتقَى بمادة علم النفس إلى مُستوى رفيع في شَرْحه وتوضيحه، وكان أسلُوبه الأدبي يُتيح له الإفاضة المشبعة في تحْليل المادة بحيثُ كنا نتمنَى أن ننْقُلَ كل كلمة يقولها وقد فهمنَا على يده موضوعات كثيرة من مسائل علم النفس، كالعُقد النفسيّة، واللاشعور والكَبْت، والإسقاط، والغرائز المكتسبة، والتّبرير والحيل اللاشعورية وغيرها، هذا من الناحية العلمية، أما النّاحية الخلقيّة فقد بلغ منها أوفى مراتب الكمال من سعة الصدر، والصبر على النقاش ـ وهو وحده الذي يُرحّب بذلك دون سائر الزملاء ـ وأذكرُ أن زميلاً فاضلاً لنا كان قد قرأ كتاب إحياء العلوم للغزالي بإمعان، ودَرسَ معضلات النفس وبواعثها كما قررها حجّة الإسلام من قبل، فكانَ يُفاجىء الدكتور راجح بما يُشبه ما يقوله، أو بما يُخالفه مستنداً إلى الغزالي، وقد أُعجب الدكتور راجح بالطالب، ورَجاه أن يُحضر إليه كلّ ما يقع في يده من حديث الإمام عن شجون النّفس وانفعالاتها وبواعثها! ثم يأتي بإضافات جديدة تحمْل آراء الغزالي ويتبعها بالتأكيد أو النقد كما يشاء! هذا هُوَ الأستاذ الوحيد الّذي حاز تقدير طلبته من أساتذة المعهد، لأنّ من الآخرين مَن كان لا يستطيع التّحدث في دروس التربية باللغة العَربية، بل يشرحُ أفكاره بالعاميّة الركيكة ومعروف أن العامية ليست لغة العلم، ولكنّه لا يتقن لغته الأصلية، ويعتذرُ مباهياً بأنّه أمضى في لندن ست سنوات لا يتكلم بغير الإنجليزية حتى نَسي لغة بلاده، وهو اعتذارٌ مضحك، لأنّه قضي في مصر ثلاثين عاماً باللّغة

العربية فكيف لم يعمل على إتقانها، ولي مع الأستاذ الدكتور عزت راجح موقفٌ دلّ على فضله وتشجيعه. فقد قرّر على الطلاب عدة بحوث يقومُون بإعدادها، وحددَّ لكل طالب بحثَه الذي يجب أن ينتهي منه في شهرين لتُرصدَ درجاته قبل ميعاد الامتحان حيثُ لا يجوز لمن رسب في مادّة البحث التربوي أن يَدخل امتحان الدور الأوّل، وكانَ من نصيبي أن آخذ بحثاً عنوانه (اللعب وأثره في تربية الطفل) وقد اهتممتُ بالأمر، وعكفتُ على كُتُب المكتبة التربوية لأقرأ ما يصل إلى يدي خاصاً باللّعب. وكانَت بالمكتبة مؤلفات خاصة بهذا الموضوع، ومؤلّفات أخرى تشمل فصلاً عنه، فاستطعتُ أن أكتب بحثاً مستوفى يشمل كلَّ الجوانب الهامة، وحين قرأه الدكتور راجح، أحضَره معه في قاعة الدرس، وسأل عن اسمي، فوقفتُ بين الزملاء، فقال لي: قل الحق ولا تكذب، من أيْن جئت بهذا البحث! إنه ليس بحث طالبٍ مبتدئ! لقد قرأت مراجع كثيرة فلمْ أهتدِ إلى موضع بحثك هذا، وهو لَيس من نتاجك بكل تأكيد، وتحيّرتُ ماذا اقول، ولكنّ زميلي الأستاذ عبد المقصود ناصف رحمه الله نهض في القاعة يقولُ بصوت مرتفع، يا سيّدي، إن الأستاذ رجب البيومي مِن كُتّاب مجلتي الرسالة والثقافة، واسمه يأتلق مع أسماء العقاد والزيّات وأحمد أمين وكبارِ الكتّاب في المجلّتين! فكيف تتهمه بالسطو على بحث في اللّعب! نظر الدكتور راجح إليّ، وقال بعد تفكير! إن البحث لا يكتبه غير أستاذ متخصص، وسأنشرهُ في مجلة التربية باسم صاحبه، والمجلةُ تدفع خمسة جنيهات لكلّ بحث ينشر! وهذه هي الخمسة، وأخرج من جيبْه ورقة مالية بالمبلغ، فاحترتُ مندهشاً، وقامَ من فوره إلى حيث أقف وأعطاني الورقة بين تصفيق الزملاء! وخمسة جنيهات في عام ١٩٤٩ كانت ذات شأن كبير!

وقد نشرتُ في شهر رمضان مقالاً بجريدة الأهرام تحت عنوان (حيوانات تصوم كالإنسان) وكتبتُ تحت اسمي (معهد التربية العالي بالإسكندرية) وحينَ ظهر المقال رأيتُ عامل التليفون بالمعهد، يدعوني إلى محادثة الأستاذ صديق شيبوب محرّر الصفحة الأدبية التي تَصدر بجريدة البصير بالإسكندرية، وأنا أعرف مكانة الأستاذ صديق، فقد قرأتُ له بمجلات الرسالة والثقافة والكتاب والمقتطف، كذلك حَرصت على قراءة مقالهِ الأسبوعي بالبصير منذُ التحقت بمعهد الإسكندرية، وكنتُ أريد التعرف به، ولكنّ طبيعة نفسي تمنعني من الاقتحام على الناس إلاّ لسبب قويّ، فحين تحدثتُ معه بالتليفون أخبرَني أنّه عرف عنواني من جريدة الأهرام، وأنّه يأسف لأنه لم يتعرّف بي، فهو يقرأ لي ما أَكتُب، وقد نشرتُ مقالاً عن التصوف بمجلة الرسالة لَفت نظره إلى أشياء يُريد أن يحدّثني عنها، لأنه مشغولٌ بالتصوف إسلامياً ومسيحياً منذ كتب مقاله عن محيي الدين بن عربي! وكمْ فرحتُ بحديث الأستاذ وأخبرته أنني تلميذهُ منذ أمدٍ كبير حيث أتتبع آثاره، وتحدّد موعد اللقاء بإدارة البصير مساءَ الغد، وما كدتُ أؤُم ساحته حتى استقبلني مرحباً، وكانَ معه الأستاذ الأديب نقولا يوسف وهوَ ممّن عرفت مقدرتهم الأدبيّة من قبل، فدار الحديث في آفاق شتى مِنْ صنوف المعرفة وحدثني عن أشياء جذبت فكره في مقاليْ (هيام المتصوفين) المنشور بعدديْن من مجلة الرّسالة منذ عاميْن فأَجبْتُ عن أسئلته بما فتحَ الله به علّي، وسأَلني عن التدريس بالمعهد فأبديت رأيي فيما اسْتَحسن وما لا أستحسن، وقلتُ له إن أستاذاً بالمعهد يدرّس لنا «سيجموند فروند» وكأنّه يُترجم كلاماً لغيره، فلاَ نكاد نفهمُ منه شيئاً، فأشرق وَجه الأستاذ صديق، وقالَ لي سأريحك إذا جئتَ غداً، فقد كتبتُ عنه عدة أبحاث متوالية بجريدة

البصير بأسلوب واضح قد يرضيك! فهتَفْتُ ويلي! لقد قرأتُ هذه الأبحاث من مجلة الرسالة منذ عشر سنوات، ولم أتذكّرها، ولو كانت ذاكرتي قوية لرجعتُ إليها الآن في مكتبة البلدية لأنها تحتْفظ بمجلدات الرسالة، فقالَ: لا تتعب نفسك، وستجدُ لديّ أعداد الرسالة أيضاً، فأنا أحتفظ بما أكتب ما استطعت وفي الغد أحضر لي الأستاذ ما طلبت، ومن عجلتي لم أنتظرْ حتى اذهبَ إلى المنزل فأقرأ باطمئنان ولكنّي بدأت القراءة في مكتبه، فوجدتُ سيمجوند فرويد يظهر أمامي واضحاً بقسماته وأفكاره واتجاهاته النفسية فيما كتبه الأستاذ في عدة مقالات متتالية! حيث كان الأسلوب يقفُ على النقيض تماماً مع ما كتبه أستاذ المادة من جُمل غير مترابطة تملؤها المصطلحات العلمية المسطّرة باللغة الأجنبية افتخاراً وتباهياً، دُون أن تتسلسل الأفكار على نحو يشرق في ذهن القارئ، ولم تكنْ أدوات التصوير متيسّرة كما هي اليوم، فقمت بنسخ المقالات بقلمي، وكانَ ذلك مما ثبّت الأفكار في نفسي، وجعلت بين الحين والحين أزور جريدة البصير كما أخرجُ في نزهات خلوية معه ومع الأستاذ نقولا يوسف الذي تأكدتْ صلتي به، وارتبطنا معاً في عمل أدبي مشترك يؤكده الإخلاص والتقدير!

وكان اتحاد الطلاب بالمعهد يُقيم محاضرات أدبيّة وعلميّة كلّ شهر يدعُو لها كبار المفكرين من القاهرة وغيرها، وقد قَدم الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى الأستاذ بكلية الحقوق ليُلقي محاضرة تحت عنوان (لنكنْ مادة تفعل ولا تنفعل) وطُلِبَ منّي أن أتولّى تقديمه للجمهور، وكانت العادة أن يقدّم المحاضر أحدُ الأساتذة لا أحد الطلاب، ولكنّهم اعتذروا لأنّ الاتحاد هو الذي اختاره، وهم لا يعرفون عنه غير وظيفته الجامعية، فأسِفْت بيني وبين نفسي، وأحببت أنْ أُعلمهم بما كانَ يجب أن يعرفوه،

نقلت ما ملخصُه أن الدكتور محمد يوسف موسى نال جائزة الدولة للدكتوراه من جامعة باريس، حيث شهدتْ قاعة (ريشيليو) الكبرى بجامعة السوربون مناقشة فلسفيّة لرسالته عن ابن رشد ومكانتِه في العصر الوسيط، وكانت اللجنة مكوّنة من خمسة من كبار أساتذة الفلسفة بالجامعة، كما رأسَ المناقشة البروفسور ليفي برونفسال، وشهدها الدكتور طه حسين مع نخبةٍ من مفكري العرب كانوا بباريس في يوم المناقشة، واستمرّت المناقشة خمس ساعات كاملة ظفر بعدها الدكتور محمد يوسف موسى بأرقى درجة علمية منحتها السوربون، ودعت الجامعة الدكتور لإلقاء محاضرات بها عن فلسفة التشريع الإسلامي، ولعلّي قلت الكثير مما نسيته الآن وبعد انتهاء المحاضرة، صافحني الدكتور محمد يوسف في لهفة، وسألني عن هذه التفصيلات التي ذكرتها، مع أني لم أكن من الحاضرين، فقلتُ إن مراسل الأهرام قد نَشَر بالجريدة ما قُلته، قال: لم أقْرأه، وطلب أن أسهَر معه هذه الليلة حيث يقيم في الفندق، لأنّه لا ينام كثيراً إذا غيّر موضع نَومه في المنزل، ولم يَدْعني أجيب، بل أصرَّ على أن أسيرَ معه في سيارته التي أعدها المعهد لانتقاله. ودارَ حديث وَدود كشف لي كثيراً عن أحاسيس الباحث الكبير، وحين ذهبت إلي المعهد في اليوم التالي، وجدت الأساتذة والطلاب يتحدّثون عن التقديم الذي أفضت فيه عن الدكتور، وقالَ لي الدكتور راجح، لقد نوقشت في السوربون، ولم أجِد من يتحدث عني مثلك، فقلتُ له، ألقِ مُحاضرة، وسأتولى تقديمك فضحك!

وقد فكّر اتحاد الطلاب بالمعهد أن تستضيف السيدة نبوية موسى من زعيمات النهضة النسائية والتّربوية بمصر كي تُلقي محاضرة عن تاريخ تعليم الفتاة المصرية لأنّها شاهدت أدْوار هذا التاريخ طالبةً ومربية وزعيمة، وهي

تسكنُ الإسكندرية فلن تتعب في الحضور، فذهبت مع زميلي الأستاذ عبد الفضيل رجب لدعوتها، فرأينا صحّتها على غير ما كنا نتوقع إذ كانتْ في مرضها الأخير، وحينَ عرَضْنا عليها ما كنا نقصدهُ قالتْ أين الشباب؟ لقد كنتُ أُحَاضِر في الجامعة المصرية القديمة في العقد الثاني من هذا القرن، كما كنتُ أدير المدارس الحكومية والأهليّة، وأُصدر القرارات كما أشاء فإذا عَارضَني وزير المعارف رَددت عليه، ونقلت الأمر إلى الصحف اليومية فأخذتْ تَناصرين فهل تستطيع هذه العجوز التي ترَوْنها أن تعيد الماضي في محاضرة بالمعهد العالي، هيهات.

وأردتُ أن أطلب شيئاً آخر، فقلتُ إن للمعهد مجلةً حولية تصدر كل عام، فلا مانع من أن نَسْتمتعَ بحديث ترْوينه عن ذكرياتك التربوية، وستسعد المجلة بنشر هذا الحديث التاريخي المفيد، فابتسمتْ وقالت: أمّا هذا فمرحباً، فقلت لنتفقْ على الميعاد فقالت حدّدْ أنت فقلتُ خير البرّ عاجله، وسأحضر غداً، قالتْ وسأفكر من الآن فيما سأقول، لأن الذاكرة ضعيفة!

وفي الغد، ذهبت وحدي، وطلبت الإذن، فوجدت السيدة مستبشرة وكأنها تقدم على عمل سار، وقالتْ لي سأتكلم أنَا، ولاَ تهيئ سؤالاً، ولك أن ترتب الحديث بعد انتهائه كما تشاء، ثم أخذَت تتحدث عن وفَاة والدها دون أن تراه، لأنّها كانت في بطن أمها لثلاثة أشهر، ثمّ عن محاولتها القراءة والكتابة مثل أخيها الّذي يكبرها بعشرة أعوام وقد كان لها نعم النصير، وقد حاولتْ أن تلتحق بالمدرسة السنيّة بالقاهرة فغضبتْ أمها وأخوها، ولكنّها سافرت وحدها والتحقتْ بالمدرسة في قصّة تطول، وتعرفت بزميلتها ملك حفني ناصف الشهيرة بباحثة البادية، وصادفَتْها إذ كانت ملك تسبقها بعامين دراسيّن، ثمّ عيّنت مدرّسة للغة العربية فكانت

الوحيدة من بنات جنسها التي تعلّم هذه اللغة، وقد وجدت كتاب المطالعة ويُسمّي الآثار الفكرية من تأليف عبد الله فكري باشا لا يُلبيّ حاجة الطالبات، لأنه يشمل قصائد من الشعر الجاهلي كأنها ألْغاز، فألّفت كتاباً خاصاً بمدارس البنات سمّته (المطالعة العربية للبنات) وأصرّت على تقريره فاستجابتْ لها الوزارة، وقد حضَر بعض دروسها للتفتيش الشيخ حمزة فتح الله، فلم تعجبه طريقتها، لأنه لا أحد يسأل البنات الصغار عن الوزن الصرفي، والإعلال والإبدال، فقالت له: وما فائدة ذلك يا مولانا. فصرخ في وجهها، وبادَلْته صراخاً بصراخ ثم كتبت في جديدة المؤيد بما كان، فانتصر لها الكتّاب.

وانتقلتْ بعدُ إلى نظارتها للمدرسة المحمدية للبنات بالفيوم، فكانت تقابل أولياء الأمور شخصياً بعد أنْ كان محرماً على الناظرات والمدرسات مقابلة أي رجل، وذهبت الشكاوى إلى مدير الفيوم محمد محمود باشا فقال وما يمْنع؟ إذا كانت الناظرة محتشمة مثل نبوية موسى ثم تحدثُت عن جهودها في الثورة المصرية سنة ١٩١٩، وكيف كانت تؤلّف الشعارات، وتطبع المنشورات، ولكنّها عارضت إضراب مدارس البنات ومَنعت تلميذات مدرستها من الإضراب فهاجَ عليها الناس، فصرّحت في جرأة بأنّ البلاد في حاجة إلى التعليم لا الإضراب ولنْ يتحقق الاستقلال إلا بتربية أمهّات متعلمات! ثم سافرت إلى مؤتمرات عالمية مع السيدة هدى شعراوي وزيزي نبراوي فرفعنْ شأن مصر.

هذا ما أتذكره ممّا قالته، ويؤسفني أن اقول إن الحديث التاريخيّ وقد شمل خمس صفحات لم يُنشر بمجلة المعهد، لأن العدد السنوي كان قد طُبع، فأودعتُه مكتب المدير لينشر في العدد القادم، وكنتُ ستأخرّج بعد

شهر واحد، ولا يُتاح لي الإشراف على العدد المقبل، وحينَ صدَر بعد ستة أشهر تصفّحتُه فلم أجد الحديث، وسارعت بالسؤال عنه فقال لي مَن اعتذر عن النشر إن السيدة نبوية قد انتقلت إلى رحمة الله، وأنت قد تخرّجت! ولست بمسؤول عما ينشر أو يُترك، لقد شعرتُ بغضب، وكتبتُ شكوى للمدير الجديد فلم تجد سميعاً!

ويضيق المقام عن ذكر من صاحبتهم من أدباء الإسكندرية في هذا الزمن القصير وكلهم من صفوة المفكرين، وما منهم إلا شاعر أو كاتب أو باحث غير أني أخص بالذكر الأستاذ محمد خلف الله الأستاذ بكلية الآداب حينئذ، فقد غمرني بودّه، وأعطاني الدرجة النهائية في امتحان التربية العملية، ثم صحبتُه بعد ذلك في مواقف كثيرة فكان خير النصير.

مجلة الرسالة

كانت مجلة الرسالة ذات أثر قويّ في أبناء الجيل الماضي وقد نشرت على صفحاتها بتاريخ ٧ يناير سنة ١٩٥٢م خطاباً لأحد أصدقائي الأعزاء، يوضح هذا الأثر الحافل لدى القراء.

صديقي العزيز

حين تناولت القلم لأكتب إليك، تذكرت أن الرسالة تستقبلُ عامها العشرين، فرأيت أن يكون حديث اليوم عن تلك المجلة الحبيبة التي عقدت أواصر الصداقة بيننا، إذ لولا الرسالة لما كنا من سبعة عشر عاماً مضت إلى اليوم صديقين حميمين كأحسن ما يكون الأصدقاء.

أذكر أنّي كنت أجلس معك في حجرة واحدة بمعهد دمياط الابتدائي، وقد لمحتُ في يدك مجلة تتصفحها في سرور وبهجة، فاستأذنتك في قراءتها، فخفتَ أن أكوّن عنها رأياً خاطئاً لأول مرة، فدعوتني إلى الجلوس جوارك، وقلت في اهتمام: هذه أحسن مجلة أطالعها في مصر، ويجب على جميع الطلاب أن يتابعوا قراءتها باعتناء، فهي الصحيفة التي تهذب الأسلوب، وتثقف العقل، ثم مددت يدك إلى القمطر، وأخرجت كراسة الإنشاء لتريني درجاتك العالية في التعبير، ناسباً تفوقك الحميد إلى الرسالة،

فهي وحدها صاحبة الفضل في هذه الدرجات!! وكنت أرى الرسالة بمكتبة المعهد، ولكنْ أجهلُ نفعها الجزيل.

وأذكر أن درجاتك الممتازة، قد جذبت اهتمامي إليك وإلى الرسالة، فخرجت من الدراسة متجهاً إلى بائع الجرائد، وأخذت نسخة من الرسالة، وقضيت بقية اليوم، وجزءاً غير قصير من الليل أتصفحها ورقة ورقة، ففهمت أكثر ما تحتويه من مقالات وقصص، وقصائد وشعرت بإكبار وإجلال نحو ما لم أفهمه من البحوث العلمية الدقيقة، متعللاً بقرب اليوم الحبيب الذي ستتسع فيه ملكة الفهم لديّ، فأستوعب جميع ما في الرسالة الحبيبة، من الغلاف إلى الغلاف!!

ورجعت إليك في اليوم الثاني فحدّثتك عما فهمته وما لم أفهمه، فوجدتك تشاركني الرأي وتقف من موضوعات الرسالة موقفي منها سواء بسواء، ومن هذا اليوم بدأنا نجلس معاً على قمطر واحد، ونتنزه معاً إذا أردنا النزهة، ثم لا نترك الحديث يوماً واحداً عن الرسالة، فنحنُ إذا أتى العدد الأسبوعي نُطالعه بجدّ ويقظة ثم نتقابل ليذكر كل منا ما علق بذهنه من الأفكار الجديدة، والأبواب الطريفة، وبدأنا نكون لنا آراء خاصة عن الأدباء من كتّاب وشعراء، وكنا نفترق في بعض الأحيان فأفضّل كاتباً ترى غيره أحق منه، وأميل إلى شاعر تميل عنه، ولكل منّا براهينه المشهبة ودفاعه الطويل.

وجاءت العطلة الصيّفية فلم نحزن لشيء حزننا على انقطاع حديثنا الأدبيّ عن الرسالة، ثم اتّفقنا على أن نتراسل أسبوعياً فأكتب إليك وتكتب إلي، وكان الحديث لا يتجاوز الرسالة في أكثر سطوره، وما زلت أذكر

حملاتنا الصاخبة في رسائلنا السالفة، على الأستاذ الكبير سيد قطب إذ كانَ يهاجم الرافعي، وقد خيّل إلينا في طور اليفاعة أن قُطباً متجنٍ أكثر التجني، وأن الرافعي أكبر من أن يتوجه إليه النقد بشيء!!

والغريب أننا الآن نرفع الأستاذ سيد قطب إلى القمة، ونراه رائد جيل في الإصلاح، وصاحب مذهب في النقد والأدب، وداعية أمة إلى الإسلام!!

فانظر بربك إلى المدى الشاسع بين النظرتيْن، نظرة اليفاعة المتسرعة، ونظرة الشباب البصير، وكان مما يبهج خاطرْينا معاً أن نرى المدرسيّن يرمقوننا دون الزملاء بعين الإعجاب والاهتمام، فإذا تقدم أحدنا برأي في موضوع أو ناقش فكرة لكاتب، وجد العيون مفتحة، والعقول منتجة، وسمع الرد مشفوعاً بالإطراء والتقريظ، وكنا نرجع ذلك إلى الرسالة وحدها، فهي التي دفعت بتفكيرنا إلى الأمام، وتناولته بالصقل والتهذيب!!

ولا أزال أذكر أنك قلت لي ذات عشية: يجبُ أن نشتري الكتب الأدبية النفيسة. فقلت لكَ وكيف تشتري الكتاب قبل أن تتأكد من صلاحيته؟ فاسرعت تقول: لنا ميزان لا يخطئ، فإذا كان المؤلّف من كتّاب الرسالة فعلينا أن نسارع إلى اقتناء كتابه، وإذا لم يكنْ من كتّابها وقد نشرت عنه الرسالة في صحيفة الكتب تعريفاً أو نقداً، فعلينا أن نحدّد موقفنا منه على ضوء هذا التعريف، وإذا لم يكن هذا وذاك فلن نبعثر نقودنا في الهواء، وكانَ رأيك هذا مقبولاً لدي في ذلك الحين، فلم أشذ عنه في كثير أو قليل.

أين الأيام السالفة يا صديقي العزيز، وأينْ أحاديثها الأدبية المشتهاة؟

ليتنا قمنا بتسجيلها برغم ما تتسّم به من عجلة واندفاع، ففيها ما يعجب ويروق، وفيها ما يُضحك ويدهش!! لقد كانَ لنا عن كل كاتب وشاعر حديثٌ عريض نقطع به الوقت الطويل، ولا أذكر أن كاتباً اغتصب أكثر أحاديثنا في فترة الدراسة الثانوية كما اغتصبها الدكتور زكي مبارك، فقدْ وقَفَ في ميدان الرسالة كما يقف الملاكم في ميدان الرياضة، يصارع في عنف، ويناقش في حدة، ويُثير في الأفق الأدبيّ عواصف شديدة عاتية، وكنّا نعجب بسلاسته واندفاعه وكانتْ رُوحه الفتية تُحلق بنا في أوج شاهق، وكم يدركُنا الأسف الآن إذ نشهدُ زكياً قد نزل عن سمائه بعد أن ترك الرسالة، فنراه يقف الآن في آخر الصفوف، وكنّا نرقب له الغد المشرق البهيج!

لقد قلتُ لك ذات مرة إن الدكتور زكي مبارك يكتبُ الحديث ذا شجون ببعض الصحف فاتراً مضطرباً، وكان حديثه في الرسالة بهجة العين وأنس الفؤاد، فكيفَ يتفق ذلك مع اتحاد الكاتب والموضوع؟ فقلت في سرعة بادهة: إذا اتحدّ الكاتب والموضوع فلم تتحد الصحيفتان! وكانت إجابةً موفقة أكّدت ما نحمله للرسالة من تقدير وإعجاب، ونحنُ الآن نشعر بحب طاغٍ للدول العربية، ونشيدُ بعظمائها من الزعماء والأدباء، ونحس أن مصر والعراق ولبنان وسوريا وتونس والجزائر واليمن والحجاز وسائر الأمم العربية وحدة لا تنفصم، فمن أكدّ في نفوسنا هذا الحب الأكيد؟

إنها الرسالة يا صديقي العزيز، فلَطالما طالعتْنا بقضايا الدول العربية السياسية وعالجتْ أمامنا مشاكلها الاجتماعية والخلقية، وأفسْحت صدرها للنّخبة الممتازة من أدبائها ونقادها، فكانت بحق ديوان العرب المشترك، وسجلهم الحافل بأبنائهم وأخبرهم، المقرب لأفكارهم واتجاههم، بل لم

تكتف الرسالة بقضايا الدول العربية وحدها؛ فتجاوزتها إلى الممالك الإسلامية قاطبة، وكم قرأنا في صفحاتها أبحاثاً هامة عن إيران وتركيا والباكستان وأندونيسيا وبلاد القوقاز وطالعنا لِكتّابٍ من أبناء هذه البلاد كلماتٍ خالدة في الوحدة الإسلامية والإخاء المحمدي، مما نرجُو أن يكون حقيقةً واقعة في العاجل القريب، ولعلّك تذكر أننا قرأنا في الرسالة ذات أسبوع بحثاً هاماً عن الفقه الروماني وعلاقته بالفقه الإسلامي لكاتبٍ مصري، ثم أَعْجَبَنا أن نجد الردود تتدفق على الرسالة من سنغافورة ودمشق وحضرموت والعراق دائرة حولَ هذا الموضوع، فكأن الرسالة قد أهابتْ بكل باحث في شتّى الأمم الإسلامية أن يلقي بدلوه في الدلاء، فتقدّم هؤلاء الأفاضل مسرعين فإذا ما رأينا اليوم أبناء الأمم الإسلامية متكاتفين متساندين، فيجبُ أن نذكر الرسالة الحبيبة وكفاحها المجيد!

ثم دارت الأيام ومضت بنا الدراسة الثانوية إلى الدراسة العالية بكلية اللغة العربية، وسمعنا أساتذتنا يُلقون علينا الدروس العلمية في تاريخ الأدب والنقد وفقه اللغة والنحو والعروض، فكنّا نجد من يسمو بعقولنا - في محاضراته وأبحاثه - إلى أفق رفيع، ومن يعكف على مراجعه القديمة ليقدم خلاصتها دُون أن يلم بما تمخضت عنه الأبحاث الأدبية في العصر الحديث، وكنّا لا نفتأ نواجه هذا النوع من الأساتذة بما اكتسبنا من الرسالة وغيرها من نقد وتحليل، غير عابئين بعد ذلك بما يكونُ من تبرم وضيق، ولعلّك تذكر بالخير شيخ أساتذة الأدب بالكلية، وسيد علمائها الأستاذ الكبير أحمد شفيع السيد فقد كان يذكر لنا الرسالة دائماً بين مصادره العديدة في تاريخ الأدب العربي، وقد ينقل بعض أبحاثها الأدبية عن الشعراء الأقدمين معقباً بما يعنّ له من نقد أو توجيه، وكنا نسمع محاضراته في

شوق وإعجاب يزيدان عن الوصف، وحين اهتمامنا بالرسالة، غمرنا بوده، وذلّل لنا كثيراً من العقاب فصرنا لا ندري أنتقدم إليه بالشكر، أم إلى مجلة الرسلة التي تربط بين قلوب المتأدبين من أساتذة وطلاب برباط وثيق وإنْ أفادتنا الرسالة فائدة تامةِ في الدراسة العالية بالكلية فقْد كان هذا أمراً نتوقعهُ لما بين أبحاث المجلة ودروس الكلية من ارتباط، بَل من يدري؟ ربما تكون الرسالة هي التي وجهّتنا إلى كلية اللغة دون أن نشعر لما غرسْته في نفوسنا من حب للأدب وهيام بتاريخه ورسائله، ولكنّ الذي لم نكن نتوقعه بحال، أن نجد الرسالة الغراء تأخذُ بأيدينا في معهد التربية العالي للمعلمين وتُعيننا على استكناه مسائل التربية الحديثة وتفهم علم النفس بما نشرتْه من أبحاث في هذين العلمين، وأذكر جيداً أني جعلت الرسالة بين مصادري العلمية حين كتبت مقالاتي في امتحان الدبلوم فقد اعتمدت على ما كتبه الدكتور عبد العزيز عبد المجيد والدكتور فضل أبو بكر في الذكاء والطفولة بأعداد الرسالة، لأن الزيات الحصيف كان ـ ولا يزال ـ يُولي الأبحاث الغربية الحديثة، ومن بينها علم النفس والتربية عناية فائقة لينأى بالفكر العربي عن جموده وقيوده ويُطلق أمامه الباحات الرحيبة للسير، والأجواء الفسيحة للتحليق، ونحن الآن وقد جَاوْزْنا التعلم إلى التعليم، وانتقلنا إلى تدريس اللغة العربية بالمدارس الثانوية نجد تلاميذنا في حاجة ماسة إلى مجلة أدبية تقيِّم الألسنة المعوجَّة، وتشد التفكير الواهن، وترفعُ الخيال الهابط، ولن تكون هذه المجلة غير الرسالة، فقد نجحت تجربتنا معها ـ ومع الآلاف من قرائها ـ أتم نجاح، وكانت نعم الناصر المبين.

لقد أطلتُ الحديث عن أثر الرسالة في الأدب والثقافة وتركتُ أثرها في الأخلاق والسلوك، وما أظنّك تجهله، فقد انتشرت المجلات الخليعة

التي تتملق الغرائز، ووقفت الرسالة أمام التيار الجارف تدعو إلى المثل العليا والأخلاق القويمة وتشنّ الحرب على التخنث والمجون، وقد حاربت الأدب المكشوف محاربة منتصرة، فدَحَضت حجة هؤلاء الذين لا يروْن في الأدب والشعر غير الحديث عن الفضائح والمخزيات، متشبّعين بما تُذيعه الصحف الملوثة عن فضائح بودلير وفلوبير وجبير ولورنس! وكأنّ هؤلاء لم يرزقوا البيان الناصع إلا لشذوذهم الوضيع وإسفافهم الشائن، في رأي جماعة من المحرّرين، وقد ساهم مع الزيات في إيجاد أدب خلقي رفيع صفوة من أصدقائه وحوارييه، وعلَت في سماء الرسالة صيحات الرافعي وعزام والزيات وفريد وجدي والطنطاوي وخلاف وقطب وأضرابهم من حُماة الفضيلة والخلاق ولا زلت أذكر أن الأستاذ الزيات قد كتب مقالاً عنْ تاجر يُحاول أن يتحلل من قيود الخلق والكرامة لينجحَ في تجارته، مدّعياً أن الغش والنفاق هما طريق زملائه إلى الثراء، وما كاد الزيات يفضحه أمام القراء حتى انبرى عبد الوهاب عزام، وأمين الخولي وعلي الطنطاوي والزيات مرة أخرى ينتصرون للفضيلة في مقالاتٍ حارة تهدي إلى طريق النجاح، وأنّا ـ بكل صراحة ـ حينَ أُعلّل اندفاعي إلى جماعة الإخوان المسلمين أجد الرسالة ذات أثرٍ غير مباشر في ذلك، فقد غرسْت في نفسي حبّ العروبة ونصرة الإسلام، وبغض الاحتلال، كما رَسمت بأقلام كتّابها صُوراً واضحة للمسلم الأبيّ الغيور، وقد وجدت أهداف الإخوان لا تخرج عن ذلك.

بل أذكُر أنّي حضرت ذات ليلة مجلسَ الأستاذ الزيات في ندوة الرسالة فسمعته يتحدث عن مُحاربة الاستعمار للشرق والإسلام بكل سلاح مدمّر غير مشروع ثم انتقلتُ عقب ذلك إلى مجلس المغفور له الأستاذ

حسن البنا، فوجدتُ الحديث متصلاً يندّد بفضائح الاستعمار ومحاربة الإسلام!! وكأنّي لم أنتقل من مكان إلى مكان، فرحم الله المرشد الشهيد، وكتب للزيات عمراً فسيحاً يسعد به الشرق والإسلام.

أرى أنّ الحديث عن الرسالة يذهب بي كل مذهب! حتى لأعجز أن ألم بأطرافه، فهو حديث الصبا والشباب والآمال، وحديث الخلق والعروبة والإسلام!

ولو كنتَ معي الآن لحدثتك بما يزدحم في صدري من الخواطر عن الرسالة، ولكن القدر الذي جمعنا اثناء الدراسة في معهد واحد، وأجلسنا على مقعد واحد، قد باعد ما بيننا اثناء التدريس، فأصبحت أدعوك من مكان بعيد، راجياً لك السعادة والصفاء.

فهيهات العقيق! وكيف يدنو؟ وهيهات الغداة فتى العقيق

الحبّ الأوّل

كنتُ أعجبُ لَها كثيراً، فهي ذاتُ ذكاء واطّلاع، يتجلّى أثرُ هذيْن في حديثها الأدبيّ المسترسل، ولها تبسّط في الأسلوب يجعلُك تلمسُ ما وراءَ معانيه من صواب سديد، وهي في رسائلها كأَحاديثها مطبوعةٌ على الصدق دُون التكلّف، ولا يُفارقها استطرادُها الّذي أُعجبُ به كثيراً، لأنّه يعرض قفزاتٍ عقلية واثبة لا شكّ فِي ارتفاعها، ومصدرُ العجب في هذا المجال أنّها لا تُحاول أن تَكْتُب المقال الأدبيّ، وأن تُبدع على الورق فُصولاً وجدانية أو علّمية تُفصح عن معدنها الأصيل، وقد طلبتُ منها ذلك فقالت إنها تحب الاطلاع وتَهوى الأدب لا لكْي تكون كاتبةً، ولكن لِتُشبع وجدانها وتُرضي ميولها حين تقطعُ الوقت في أُنْسٍ مع كتاب ممتاز أو ديوان رَقيق.

لقد كانَ مبدأُ التعارف قصيدةً نشْرتُها في مجلتي الرسالة والثقافة معاً في صدَر شبابي الأول حينَ كُنت طالباً بكلية الّلغة العربية، وكانَ هذا تَسرُّعاً مني أنْ أُرسل القصيدة للمجلتيْن، ولعلّي ظننتُ أنّ إحداهما ربّما تُغفل النشر، فتكون الأخرى كافية لإرضائي، ثم فُوجئت بعدَ قرابة شهر بتعقيبٍ في مجلة الرسالة يستنكر أن أَنشر قصيدة واحدة في مجلتين تَصدران في موطِن واحد، وفي تاريخ متقارب، وكانتْ كاتبةُ التعقيب هي صاحبتي -

فيما بعد ـ وجعلتُ أتْلُو اسمها الذي لا أعرف عنه شيئاً، وفي رغبتي أن أهتدي للقائها، كانتْ رغبةً طارئة، سُرعان ما توارت، دُون أن أتعلق بها..

ومضتْ عدة شهور، وماتَ أستاذٌ جليل ذُو شأن في دنيا الأدب والعلم والدين، هو الإمام الشيخ مصطفى عبد الرازق، وكنتُ أحملُ له حبًّا وإجلالاً، وهو شيخُ الأزهر، وأنا طالبٌ بإحدى كلياته، فسالتْ عبراتي في قصيدة باكية، نشرتُها في جريدةٍ سيّارة، ولم يمض أسبوعٌ حتى قرأتُ نقداً عروضياً للقصيدة، تقولُ كاتبتُه إنها وقفتْ طويلاً عند قولي:

أيْن منّا مُحاضراتك في المذياع   تُهدي لنَا الجنى فنذوق
وصَفُوها بقولهم تفسير   وهيَ كأس يدار فيها الرحيق

ففي البيت الثاني كسْرُ عروضي، لأنّ العروضَ فيه على وزْن فعْلات، ويُعرَف بالتشعيث وهو لا يلحق العروض، إنما يكون في الضرب فحسب، ولَيس البيت مُصرّعاً حتى يجوز فيه التشعيث، وقد قرأتُ النقد، ومَعَ دراستي لهذا الفن لمْ أعرف إذا كانت الناقدةُ ذات صواب، فاتصلت بأحَدِ أساتذة العروض بالكلية، فقالَ إن النقد صائب، وكان يجدُ الواقع في الخطأ وقد درستُ العروض.

لا أنكر أنّ توقيعها (سعاد كامل) قد أعادَ إلى ذاكرتي نَقْدها الأول بالرسالة، وأن شعوراً بالإعجاب نحوها، دَفَعني إلى أنْ أكتب هذه الأبيات، وأُنْشُرَها في الجريدة:

قد كنتُ أزعم أنني   أجدتُ فن العروض
فَأرْشَدتْني سعاد   إلى اختلال قريضي
شكراً، وإنْ قذَفتْ بي   من شاهق للحضيض!

وكأنّ حنيناً جعل يدَفعني إلى لقائها، ولكنْ أين؟ ومتى؟ وَجَعلتُ أردّد قول أبي بكر الشبلي:

أسائلُ عنْ ليْلَى، فهلْ مِن بَـــادرٍ يكـونُ له علـــمٌ بــها أين تنـزلُ؟

وكأنّ الله شاءَ أن يُجيب رجائي، فبعدَ أسبوعيْن وصلني خطاب بعنوان الكلية تقولُ كاتبته إنها كانت تَحْسَبُنِي أستاذاً في الكلية، وحينَ علمتْ مِن إدارة مجلة الرسالة أنّي طالب تطلّعتْ إلى لقائي، فإذا وافقتُ فسيكونُ اللقاء بالقاعةِ العامة في دار الكتب بباب الخلق يوم الثلاثاء القادم في الساعة الرابعة وستَضعُ أمامَها مجلة الثقافة لأعرفها سريعاً دُون سؤال، وقد فرحتُ بالخطاب كثيراً كثيراً. . .

حان الموعد فذهبتُ على اشتياق، ورأيتُ الفتاة في جانب معْتزلٍ نوعاً ما عن الزائرين وكانَت هي الوحيدة من بنات جنسها، فأسرعتُ لأرى مجلة الثقافة أمَامها، فهتفتُ باسمها فقابلَتْني بهدوء مُهذب، ووجدتُ معها ديوان ابن الفارض وقدْ اسْتَعَارتْه قبل حُضوري لتشغل به الفراغ، وكانتْ مُناسبة أدبية تُتيح لي أن أسألها عن شغفها بابن الفارض فقالت إنّ أستاذها عبد الوهاب حمودة بكلية الآداب قد شَرَح بعض قصائده في قاعة المحاضرات فجذبها إليه، وقد علمتُ أنّها تخرجت من الكلية في العام الماضي، وعُيّنتْ بإحدى مدارس الإسكندرية ووالدُها لواءٌ في شرطة القاهرة، ولم يُعارض في انتقالها إلى الثغر ما دَامتْ راغبة في ذلك ولَهُ به «فيلا» تُقيم بها مع والدتها، وقد حضرتْ إلى القاهرة أسبوعاً لزيارة البيت الكبير، وكنت أُلمّ بكثيرٍ من شعر ابن الفارض، فرويتُ لها منهُ ما كانَ موضع إعجابها، ثم انتقلنا من دار الكتب إلى مجلس قريب منه هو «كازينو فاضل» وأثناءَ الحديث عرفتُ أنّها تقرأ لي وأنا طالبٌ بالمعهد الثانوي إذ كانتْ تُتابع

المجلاّت عن هوايةٍ أدبيّة تتملكّها، وقد حَدّثتْني عن مقال نشرتهُ بالرسالة تحت عنوان (من أخلاق البحتري) وكنتُ عرَضتُ لجانبٍ من سلوكه لاَ أَرْتضيه حينَ مدحَ أناسًا فأطنب ثم ذمّهم فأطنب، وفيهم من غمره بعطائه الجزيل، فقالت سعاد، إنَّ الشعراء العباسيّين قد نهجوا نهجَ البحتري، ولم يكُن ذلك معيباً في بيئتهم المرتزقة، فلماذا نخّص البحتري بالهجوم؟ قلت إني قرأتُ الديوان وشعرتُ بضيقٍ من سلوكه حين أقرأُ المدح والهجاء معاً في صفحاتٍ متقاربة، فَتَابَعْتُ ما كُتب عن حياة البحتري فلم يَرق لي إنساناً، وإنْ كان شاعراً مجيداً، ثم تلوتُ عليها بعض ما في ذاكرتي من شعره الغزليّ، وقلت إن أكثره مع جودته الفنية تقليّدي تُمليه الصنعة لا الطبع، فقالتْ: مع هذه الرقة، قلتُ نعم! واستمرّ المجلس أكثر من ساعتيْن دُون أن أشعر بمرورهما، وقد تجرأتُ فقلتُ لها، إذ كنتِ تستريحين لابن الفارض فلماذا لا تَزُورين مَسجده، وقد زُرْتُه بالمقطم؟ فتوهجّ وجُهها بابتسام رقيق، وقالتْ على أن تكون معي، وأنَا ساظلُّ بالقاهرة حتى صباح الجمعة؟ فمتَى ترغب في الزيارة، وكانتْ رغبتها في اصطحابي لمسجد ابن الفارض مصدَر سرورٍ زائدٍ ملك عليّ مشاعري، ولكنّي حاولت كظم عواطفي ما استطعت، وفي طريقها إلى التّرام الذاهب إلى الجيزة، كنتُ مُصاحباً لها، وكنتُ أنا المتكلم كثيراً، وهي تسمعُ في انتباه، وقبلَ أن تركب، حين لاحَ التّرام على بعد، أسَعفتْني الذاكرة فقلتُ لها إنّي معجب بقول ابن الفارض.

لَو أنّ روحي في يَدي ووهبتُها   لمبشّري بلقائكم لم أنْصِف

وقد اتفقنَا على أن يكونَ الموعد يوم الأربعاء ظهراً، لأنّ الوقت كان في فصل الشتاء، وشمس الظهيرة رحيمة حامية، وتحدّد مكان اللقاء، فتم على أحسن ما نرجوه.

كانَ الطريق في وادي المستضعفين ـ كما يُسمّى ـ إلى مسجد ابن الفارض هادئاً مُشمِساً ليسَ به من السابلة غير القليل، فاتّسع الحديث الأدبيّ اتساعاً شهيًّا، وقد أسهمتْ فيه إسهاماً يدلّ على انطلاق لم يُتَحْ في الجلسة الأولى، وقد أَحَسَسْتُ كأننا أصدقاء من زمن بعيد فلا تكلّف في القول، ولا اصطناعَ لمجاملة تختار فيها الكلمات وتُوزن المعاني وكنتُ سعيداً حين تحدثَتْ عن حياتها الخاصة حديثَ الواثق بمسْتَمعه، بلْ حديث الّذي يروّح عن نفسه حين يُفضِي بمكنونه إلى أعز أصدقائه! وقد قلتُ لها إنِّي طالب بالسنة الرابعة، وسأكون في العام المقْبل طالباً بمعهد التربية العالي بالقاهرة أو الإسكندرية وفقاً لرغبتي، فقالتْ لي وهي تبتسم «وقَعْتَ بلسانك» لا بدّ أن تكون بمعهد الإسكندرية، وهذا أوّلُ طلَب أتقدّم به إليك، ما رأيك؟ قلتُ: هذا إذا نجحتُ في الليسانس؟ قالتْ أنا واثقة من نجاحك! فسكتّ! ودخلنا المسجد وقرأنا الفاتحة. ووجدتُ في نفسي استعداداً للمفاكهة. فقلت لها، سعاد! آنِسَةٌ رائعة فكل زَميلاتُها يخطُرن في شارعي فؤاد وعماد الدين، وأنتَ تسيرين في سفح المقطم الأجرد، وتَتوجّهين إلى المسجد الصامت، وتَقرئين الفاتحة ككبار الشيوخ مِمّن فاتهم زهو الشباب! فقالتْ بصوت مخلص أنتَ لا تُقدر سعادتي بزيارةِ ابن الفارض! فحمدتُ الله أنْ كانت سعيدةً، ثم قطعْنا الطريق ثانيةً على الأقدام، وأنا أتمنّى أنّه لا يصلُ بي إلى غاية متذكّراً قول الشريف الرضى:

ولو قالَ لي الغادون ما أنت مُشتهٍ ... غداة جزعنا الرمل قُلْتُ أعودا!

وحان الفراق، ولكن إلى لقاء!

أصبحَ انتقالي في الغد، إلى الإسكندرية شُغْلي الشاغل، لأنّ إقامتي بالقاهرة مُريحة، ولي سكني المتواضع، ومعارفي الكثيرون، ولكنّ

الإسكندرية لم أذهبْ إليها من قبل، ولا أدري أحوال المعيشة بها، وليسَ لي بها من صديق أَكِلُ إليه إعداد المسكن لأَعرف أين أتَجه، وبعدَ تفكير علمتُ أنّ زملائي من أبْناءِ محافظتي البحيرة والإسكندرية وبعض مراكز الغربيّة، يؤثرُون المعهد الإسكندري وسينضمّون إليه بعدَ التخرج، وإذا اتفقتُ معهم على السّكنى في منزل واحد، فَقَدْ هَانَ العسير، ولم أتمهل إلى موعد الامتحان، بل اتصلتُ ببعْضهم، فوجدتُ من الترحيب وتهوين العقبات ما جعل الأمرَ لا يختلف عن القاهرة في شيء، فابتهجتُ، وانتظرتُ حتى أديْنا الامتحان، وظهرت النتيجة فراسلْتهمْ بناءً على اتفاق سابق، فقاموا بأكثر مما يلزم، وركبت القطار، وأنا أعرف أين اتجه؛ ومع من أقيم! ولم أُخبر صاحبتي إلاّ بعد أن عَددتُ نفسي مواطناً إسكندرياً، وقد فوجئتْ بي حينَ زُرتها لأول مرة في (الفيلا) الأنيقة لأخبرَها أنّي ذهبت إلى المعهد اليوم ثم استرحتُ بمنزلي المهيّأ، وجئت لأراها!

كانت تُقيم مع والدتها، لأن والدها له زوجةٌ أُخرى بالقاهرة، واستجابَ لرغبتها في صُحبة فتاتها.

وقد صَحبتني إلى والدتها، وهي سيدةٌ ذات ثقافة عالية، إذ كانتْ مفتّشةً للمواد الاجتماعية بالمدارس الثانوية ثم آثرتْ الاعتزال في سنّ الأربعين، إذ ليَسْت في حاجة إلى التنقل الأسبوعي في مدارس شتى، وهي موفورةُ الرزق، وقد عَرفَتْ عني الكثير قبل اللقاء، فحدَثْتني عمّا كتبتُ وأكتب وكانَ اهتمامها الثقافي باعث إعجابي، ولعلّها هي التي دَفعتْ سعاد إلى القراءة الأدبية في سن باكرة وقد حبّبتْ لها كلية الآدب، ومهما يكن من شيء فقدْ مضى حديثي مع الوالدة والابنة أكثر من ثلاث ساعات وكأنّها دقائق معدودات، وقد قالتْ لي: إنّ سعاد أحضرت كُتُباً كثيرة عن تاريخ الإسكندرية قديماً وحديثاً وعرفتْ

من آثارها القديمة والمعاصرة ما ستُفاجئك به حين تنتقِلُ معك في هذه المدينة الحافلة! فنظرتُ إلى سعاد. فطأطأتْ رأسها إلى الأرض ثم قالت: أردتُ أن أشعِركَ أني أعلمُ بعض ما تعلم، وضحكتْ، وكان الخبر النهائي الّذي ختم به المجلس هو ما اقترحتْه الأم مِن تناول الغداء معها أسبوعيًا يوم الجمعة، ليستمرّ حديثنا عن الفكر في شتى مجالاته ثم قالت ولتتنزه مع صديقتك في المدينة ساعتين كل جمعة بعد تناول الغذاء! وقد بَكِمتُ فلم أستطع الموافقة أو الرفض، لأنّ الأمر كان مفاجأة لي، وهي مفاجأة سارّة بكل تأكيد، ولكني بدأت التنفيذ دون حرج!

كان الذي يُعجبني من سعاد أنّها مع ثرائها المشهود، لم تكنْ صاحبة اهتمام بأناقتها المَظْهَرية في الملبس، فهي طبيعيّة جدًّا مثل زميلاتها المدرّسات اللاتي لا يملكن غير راتبهن الشهريّ، كما لم تتكلّف ارتياد الأماكن البرّاقة، بل تشير بالارْتياح في الحدائق العامة. وقد كانت «حديقة الشلاّلات» أحبّ الأماكن إلى نفسها، لأنها حديقةٌ شعبيّة، وليس لها رونقُ حديقةٍ مثل حديقة أنطونياوس، وهي كذلك قريبةٌ من منزلها! فإذا لم نَجْلس بالحديقة، فنحن أمامَ المشاهد الأثرية الرائعة، مرّةً أمام المنارة، ومَرّةً أمام عمود السواري، ومرّةً نجول في كُوم الشقافة، ولها عند كلّ مشهد حديْثٌ تاريخي رقيق لا يدَل على الخبرة العلمية قَدْر ما يدلّ على رِقّة السمر، ومجاذبة الرأي.

وقد قلت لها مرّة، لقد زُرنا في القاهرة مسجد ابن الفارض فلماذا لا نَزور بالإسكندرية مسجد البوصيري وكلاهما شاعر متصوف! فربتت على كتفي، وقالت: كنتُ أنتظر منك هذا الاقتراح في كلّ مقابلة حتّى ضاق

صدري بسكوتك! قلتُ: ولماذا لم تَقْترحي أنت! فقالتْ: وهي تضحك: اتركِ لك شيئاً تَفتخر به عليّ! قلتُ وفيم الافتخار، فقالت ستعلمُ ذلك اثناء الزيارة، وفي يوم الجمعة الآتِي تَوجهْنَا إلى المسجد بعدَ ساعة من صلاة العصر، وكان لأمرٍ أراده الله خالياً مِن الزائرين والزائرات، وكأنّهم اكتفوْا بالمقام بعدَ صلاة الجمعة حتى أدّوْا صلاة العصر، وذهبوا جميعاً، وما كدت أتطلّع إلى السّقف والجدران، وأرَى قصيدة البردة مكتوبةً بالماء المذهّب والخطْ الثلث في شكلٍ دائري يشملُ الجدران جميعها، ما كدتُ أرى ذلك حتى أخذتُ أترّنم بما أعجبني من أبيات البردة، وما اتّصل إنشادي دقائق، حتى قالَتْ: ألم أقلْ لك إني سأترك لك شيئاً تفتخر به عليّ! هذا الولَع برواية الشعر هو المصدرُ الأول لتفوقك عليّ، ألاّ تذكر رحلة ابن الفارض. حين كدتَ تقرأ جميع قصائد الديوان! ومضى الوقت سريعاً. وعُدنا إلى «الفيلا» مسرورَيْن لنتحدث عن البوصيري فقالت الأم: لماذا لم أصحبكما ما دُمتما مع الأولياء! وضحكت!

ولاَ أتحدثُ عن جميع نزهاتنا في الثغر كل أسبوع، فما أظنني أستطيع أن أذكر ما كان بها مِن مؤانسات شائقة، ومُداعبات فكهة، فتلكَ أيام تولت، ولكني أذكر منها هذه الطّرفة النادرة.

لقد زُرنا معاً، بعد تخرجي من المعهد، وتعيّيني بالمنصورة، إذ كنتُ كثير التردد على الثغر من أجلها، زُرْنا حديقة أنطونيادس، وأخذْنا نجول في أنحائها حتى ساقَتْنا قدمانا إلى حديقة الحيوان بها، ووقفْنا أمامَ مَسكن الأسد في مَحبسه الحديدي الثقيل، فرأينا طفلاً صغيراً تحمله أمّه، وتضعُ في يده كوباً من الماء ليرشّ به وجهَ الأسد، والحيوان يثورُ ويهمّ بالانقضاض فتحوقه

القضبان، والأُم تضحك ضحكاً غير مقبول، وكأنها قامتْ بعمل بطولي حين تركَت طفلها يستثيرُ الأسد، ونظرتُ إلى صاحبتي فإذا دموع تترقرقُ في محاجرها الجميلة، وتساءلتُ: فقالتْ في أسف مكتوم! لو كان هذ الأسد طليقاً أَتَجَرُأُ عليه أمٌ بلهاء وولدٌ لا يعقل! وانتقلنا، ولكنّ أثر دموعها قد ترك صداهُ في خاطري، فنظمتُ قصيدةً تحت عنوان: (الأسد الباكي) وأرسلتُها من المنصورة بالبريد إليها، وقد عَقدتُ بها موازنة بين أسدٍ يتململ في القضبان، وقلب عاشق يتململ في الضلوع، وكلاهما لا يجدُ الرّحيم، وقد جاء في القصيدة:

إني لأبكي في الإسار كصاحبي ... فاذرِي دُموعك للأسير العاني

تبكين للحيوان دُون شبيهه ... ما أعنف الإنسان بالإنسان

حسنائي استمعي فتلك قضيةٌ ... وضحت، فما تحتاج للبرهان

وبدلاً من أن تَنَال القصيدة قبولها أرسلتْ تقول «لم يُعجبني ختام القصيدة لأنّك تحدثت صريحاً عن عواطف شريفة، كنتُ أؤثر أن تظلّ حبيسة في صدرك دون أن تكون سافرة هكذا.. وقد أرّقني هذا الرّد، وشغَلَني أكثر مما يجب، فما جاءَ يوم الخميس حتى عجّلت بالسفر للقائها، وقد ظهرَ على وجهها الابتهاج بزيارتي، ولم أتكلّم معها أمامَ والدتها، وحينَ خرجنا للتريض، بدأتْ فقالت: أعرفُ لماذا جئت؟ وأحبّ أن أقولَ إنّ حديث القلوب أرفعُ من أن يُذَاع، لأنّ التمادي في التصريح به قد يَدْفع إلى ما يليه، وهَذا ما نتحرّزُ منه! لسْنَا في حاجة إلى نُطق اللسان! أنتَ تركت القاهرة منْ أجلي، وهذا يُغْني عن ألفِ اعتراف، وأنا كنتُ أنتظرك بالشبّاك أسبوعياً لأراك في الطريق قبل أنْ تصل إلى المنزل، وهذا ما لا

يحتاج إلى تفسير! إنّ الأغبياء هم الذين يتباهون بالحديث عن الغرام، ولستَ غبيًا، قلت ولا أنت!! وقد أبدت من براعة الحديث في هذه الجولة ما محا من ذهني كل ريب، بل زِدت بها إيماناً!

وإذا كان لكل شيء نهاية. فقد كانت النهاية سريعاً أكثر مما أتوقّع، فقد تلقيتُ منها خطاباً في سطور قليلة تقول: إنّ ابن عمها المحامي (فلان) تقدّم لخطبتها، وهو ناجحٌ جدًّا في عمله، ولكنّ اتجاهه الفكري والمعيشيّ لا يلائمني! فأنا أريد من أتذوّق حديثه، وأحيَا بمرآه، فما رَبكني حديثُها، وقيّدني حتى مكثتُ ساعة لا أستطيع الحراك، فالخطابُ يعلن رغبتها في أن أتقدّم، وهذه أكبرُ أمانيّ في الحياة، وليسَ وراءها مأرب أبتغيه، ولكنّ وضعي المادّي لا يسمح! فأنا مسئول عن غيري، ولا أستبقي من رَاتبي الضئيل غير ما يبلغ الكفاف!

وعانيتُ مُرهقاتٍ صعبة وأنا أكتب لها عذري في خطاب آسف متوجّع، وكانت أنبلَ مما كنت أتصوّر، فكتبتْ تقول إنها تحسّ بأضعاف ما أحسّ، وأن موقفي قد زادَني همامةً في عينها، وقد قَدَّر الله ذلك ليبقى حُبّنا أمد الحياة، لأن الزّواج لا يدعُ الحبَّ جميلاً كعهده الأوّل، أما الحرمان فوقودٌ لا ينطفىء، هكذا قالت!

وقد زُفت إلى ابن عمّها، ورحلتْ إلى مقر عمله بجزيرة الروضة بالجيزة، وبقيتُ متلهفاً على انبائها. وحينَ ذهبت إلى الإسكندرية للاصطياف بعد أعوام، حملَتْني قدمي إلى «الفيلا» الّتي كانت مسرح هواي، وكانَ لي بالبواب معرفة سابقة ايام كُنت زائرها الأسبوعي، فَلاَطَفْتُه وحادَثْته لأعلم أين تستقر، فأخبرني أنها نُقلت إلى الجيزة، وتسكنُ في شارع حدّده

بالاسم، وليّته ما فعل، فإنّه شَغلَني بكثرة التردد إليه على غير جدوى كلّما نزلت القاهرة، وهو عمَل اضطراري لا حيلة لي فيه، فكم حاولتُ أن أعْقِل، لأنّ السعي خائب خائب، ولكنْ من الذي يستطيع أن يكبح جماح عواطفه، كل حين.

وبعد عشر سنوات! وعشر سنوات طوال على شَوق مترقب، سِرت في الشاعر الحبيب، فوجدتها تَسير في صحبة زوجها، وقد تلاقَت عينانا لحظةً، فأطرقتُ إلى الأرض، وهرولتُ أجري، وعَزائي أنها لا تعلمُ أن اللقاء كانَ متوقّعاً بتدبيري، وإنّما كان في رأيها مصادفة قضت بها الظروف، ولكنّي رجعت إلى منزلي، وخواطري متدافعة لا تهدأ، وتفكيري شاردٌ لا يرجع حتى إذا سكن الخاطر أو كاد، أخذتُ القلم لأنظم قصيدة قلتُ فيها:

مضتْ سنواتٌ سار كلٌّ لشأنه	وجَافَى سبيلي في الحياة سبيلُها
ولما التَقَيْنَا كالغريبينْ رفرفتْ	طيورُ حنين غاب عنها هديلها
وقد أصْبحتْ أمًّا، وأصبحت والداً	فقامتْ سدودٌ واستقرتْ أصولها
نظرتُ إليها، وهي تنظرُ نَظرتي	وتكتمُ أشياءَ لديَّ مثيلها
فلّلّه نفسٌ أطرقتْ في كآبة	إلى الأرض تخشَى أن ينمّ عذولُها
وأشهد لو كُنّا وَحيديْن لالتقت	أكفٌ أبَت أن تستكنّ ميولها
وماذا على الآداب من أُنس لحظة	تَغيبُ ثوانيها، ويبقى صليلها
أيغدقُ بركان، وتهوي كواكب	وتنشقّ أرض أرهقتها حمولها!
لئن لاذت الأرواح كرهاً بصمتها	لقد شبّ ما بين الضلوع غليلها

ثم سبقتني إلى جوار الله، فقد قرأت نعيها، فحرّك ما كمن، وهيج ما سكن!!

رثاء زميلة فاضلة

هي زميلةٌ عزيزة عليَّ، ذاتُ مظهر رائع، وذاتُ أدب وحياء، وقد انتقلت إلى رحمة الله، فهل يَجوز أن أُنَفِّس عن لواعجي برثائها!

إننّا في ما نقرأُ من دواوين الشعر ومختاراته، وجَدْنا مَنْ يَرْثي أصدقاءه من الرجال ولم نَجِد من يَرْثي سيّدةً كانتْ ذات منزلة لديه، مع أننا وَجدنا من الشاعرات من رَثَيْن عشاقهنّ، كَبُثَيْنة حين قالت في جميل:

وإنّ سُلُوي عن جميل لساعةً ... من الدهر لا خَانَتْ ولا حان حينها

سواءٌ علينا يا جَميل بن معمر ... إذا مِتّ باساءُ الحياة ولينها

وَكَلَيْلىَ الأخيليّة حين قالت في رثاء توبة:

أَتَتْهُ المنايا حين تمّ تمامه ... وأقصر عنه كلّ قرن يصاوله

عفيفاً بعيدَ الهم صلباً فنائه ... جميلاً محيّاه، قليلاً غوائله

فهل تكونُ النساء أكثر حرّيةً من الرجال؟ في رأيي أن الأمر يختلف عند بثينة وليلى لأنّ حبهما قد اشتهر وتحدث به القاصي والداني، واعترفا به، فلم يَجَدا بعد ذلك ما يمنع التصريح بهوى كاسح عرفه الناس.

أما الّذي نعْنيه فهو الشّوق الصامت الّذي لم يسمعْ به سامع، وفي هذه الحالة لا بدّ من كتم اللواعج مهما تطايرت بالشرار، وواضحُ أننا لا نَعْني هنا رثاءَ الزوجة، لأنّ الحرجَ غيرُ قائمٍ في رثائها، ولدْينا دَواوين في الشعر الحديث خلَصت كلّها لرثاء الزوجة، ولاقت أعظم القبول، وكذلكَ ما قيل في رثاء الجواري، فقد دُوِّن فيهن من دموع السّادة ما تردّد ذكره.

ونعودُ ثانية إلى السؤال؟ هل يَجوز للشاعر أن يُنفِّس عن صَدره برثاءِ سيدة لها أخلاقها ومروءتها وجمالها! إن الحزمَ يمنع ذلك، لأن ألْسنة السّوء قد تمتد إلى الراحلة بِما هي بريئة منه! فتثور الثوائر من الأقربين.

أذكرُ أن الشريف الرضي ـ وهو الشاعرُ العفيف ـ قد فَقَد بعض الأثيرات لديه، فلم يستطعْ إخماد عواطفه، وقالَ في رثائها ما يدلّ على قلب مصدوع، وروح حزين، ومما قال:

عَلى أيّ غَرسٍ آمنُ الدهر بعدما ... رَمَى قادحُ الأيّام في الغُصُن الرّطب
كَفَى أسَفاً للقلْب ما عشتُ أنْني ... بكفّي على عيني حثوتُ من الترب
جَرتْ خطرةٌ منها وفي القلب عطشة ... رَفعتُ لها رأسي عن البارد العذب
وقلتُ لجَفني رُدَّ دمعاً على دم ... وللقلب عالِجْ قرْحَ ندبٍ على نَدْب
ألا لا جوىً مسَّ الفؤاد كهذا الجوى ... ولا ذنبَ عندي للزمان كذا الذئب
خَلا منك طرفي وامتلاَ مِنْك خاطري ... كأنّكِ من عيني نُقلت إلى قلب

لقد نقل الدكتور زكي مبارك هذه الأبيات في الجزء الثاني من (عبقرية الرضي) ومهّد لها بهذا القول الصريح.

«ما الّذي يمنع من افتراض أن تكون هذه المعاني، أُوحيتْ إليه من التعرف إلى كرائم النّساء؟ مَا الّذي يمنع من التصريح بأن أشراف الرجال لا

تخلو حيواتهم من مودات شريفة نبيلة، لبعض العقائل المصونات، ما الّذي يمنع من القول بأنّ في ثبات الأعمام والأخوال، ظلالاً من العطف تلوذُ بها في هجير الحياة، بلْ ما الذي يمنع من القول بأنّ في بعض الأجنبيّات نفحات من الرفق تتسم بها أرواح الفردوس؟ وهلْ قضى علينا سوءُ الطّالع ألاّ تكون صِلاتنا بالنساء إلاّ شُبُهات تحوطها شبهات؟ إن تلك المعاني السود لاَ ينبغي أن تطوف بأخيلة الكرام من الرجال، فللرجل النبيل كل الحق في أن يشغَلَ قلبه وذهنه بشواغل المودّة الصادقة لمنْ يعرف من أشراف النساء وهذا باب «من أُنس الضمائر والقلوب، عرفه الناس من قديم الزمان، وإن جَبنوا عن التصريح به فيما يكتبون وينظمون».

هذا تمهيدٌ أسوقه مقدمةً لحديثٍ عن راحلة عزيزة، فُجعت في شبابها الناضر، وهي في ريْعانه، ودُعيتُ إلى رثائها في حَفْلةٍ مَدرسية متواضعة، فلمْ أعتذر، إذ وجدتُ من المروءة أن أفيها حقها من التكريم، وأرْخص دُموعي الساخنة في بُكائها، ولكن ما قلتُه كَادَتْ تهبّ بسببه عاصفة طاغية، لولاَ حكمة سيدة فاضلة، وأن الرياح توشك أن تهبّ، فأعمْلت فكرها في اجتناب ما يسيء، ومرّت الريح هادئة بليلة أمّا قصّة هذا الرثاء، فإليك:

كنتُ مدرساً في إحدى دُور المعلمات قرابةَ خمسةَ عشر عاماً، أُتيح لي فيها معرفةٌ وثيقة بحوّاء، حيث كانت الدار تضمّ صفوةً من المدرسين والمدرسات على خُلق عظيم، والتزام بقوانينَ الخُلق الإسلامي، وكانَ بيْن المربيّات مدرّسة شابة ذاتُ مظهر لافت، ولكنّها ذاتُ إخلاصٍ جادّ في العمل، وذاتُ ثقافة مستنيرة لم تُتَح لكثير من زميلاتها، مع امتيازٍ في السلوك المتحرز، وقد كانتْ مُشْرفةً معي على لجنة المكتبة في النشاط المدرسي، فكُنّا نجتمع مع الطالبات أسبوعيًا، لأفاجأ بأنها ذاتُ إلمام بالكتب الهامة

والقصص التوجهية للطالبات، فهي الّتي تختار لكلّ طالبة ما تقرأ، ثمّ هي التي تناقش ما قررت في الجلسة المقبلة، بحيث ترتكي في الموضع الثاني لنشاطها المتواصل، وخِبرتها الأدبية السديدة، وفي حفلات الدّار التي تعقد لَيْلاً في بعض المناسبات ويَحضرُها المسئولون من رجال التربية والتعليم كانتْ تُشرف على البرنامج، وتقومُ بتقديمه، وبالمدرسة ستّةٌ من المدرسين الأوائل يتركُون لها هذا النشاط ثقةً بما تبتكر وتجدد وتختار، وإذا كنتُ مشهوراً في الدار بنظم الشعر، فإنّ المديرة كانت تحتمُ أن ألقي قصيدة في الحفل، وهذا ما يتيّسر دون جهد ما، وفي بعض المناسبات رأيتُ أن أُسمع الحاضرين قصيدةً لي تحت عنوان (رباط العنق الكرافته) وهي ذاتُ طابع فكاهي يجذبُ الابتسام، وأذكرُ من أبياتها في وصف «رباط العنق».

يَلْتفُّ مثل الصّل بالرّقبهْ ... حبلٌ جهلت على المدى سبَبهْ

قد رَشَحُوهُ فكانَ مشنقةً ... للأبرياء، وكلنا انتخبهْ

سَمِع الوريدَيْن عن كثب ... فقضى عليه، وما قضَى أربهْ

تتقطّع الأنفاس منه إذا ... أذكَى الهجيرُ على الورى لهبهْ

فتكاد تسمعُ صوتَ حشرجة ... بالحلْق تُعول منه منتحبهْ

ندعُو النسيمَ من الرياض فإنْ ... لبّى النّداء رآه قد حجبهْ

نَبذَ الحمارُ لجامَه غضباً ... ودَنا إليه، فلم يُطِل غضبهْ

ألْفاهُ يُشبِهُهُ فأعْجبهُ ... قيْدٌ رأى الإنسان قد رغبهْ

عَجباً نُنَسّقهُ ونحفظهُ ... ونذبُّ عنه رغم ما جلبهْ

قالُوا دَعوه يزينُ ملبسنا ... إنّ الأناقة منه مكتسبهْ

قُلْتُ الأناقةُ للنساء فمنْ ... منّا اذلّ الغيد واغتصبه

حَطِّمْ قيودَ الشرقِ أجمعَه وأبدأ بنفسك فاعتق الرقبهْ

القيدُ حتى لَوْ غدا ذهباً يؤذي الفتى فانهض لتجتذبه!

وكانت مقدمة البرنامج صاحبتنا هذه ـ ذات إعجاب بالقصيدة، فعلّقت عليها بديهةً تعليقاً جذب الأسماع بروعة ملاحظاته الفنية والاجتماعية، وعند الانتهاء طلبتْ مني في حياء أن أُعطي لها القصيدة لتقرأها مع زوجها حين ترجعُ إلى المنزل، فهو مَشغوف بالأدب، وسَيُسر بها كثيراً، فأعطيتُها ما أرادت، وبعد أيامٍ وجدتُ بعض الطالبات يُردّدْونَ الأبيات في فناء الدار، فسألتُ عمّن هداهن إلى القصيدة، فقُلن إن الأستاذة (صاحبتنا) كتَبتْها على السّبورة، وامِرتْ الطالبات بتدوينها، بلْ وحفظها، وهي لم تُخبرني بما فعلَتْ! فشكرتُها بيني وبين نفسي! دون أن أشعرها بأني علمت!

ثم انتهى العام الدراسي، وذهبتُ في العطلة الدراسية إلى قَريتي الريفيّة، ففُوجئت ذات صباح أليم بنعيْها في جريدة الأهرام، وأسرعتُ للاستفسار تليفونيًا من دار المعلمات فعرفتُ أنها كانت تضَعُ، وأنّ الموت فاجأها أثناء الوضع، ويعلمُ الله أني خلوتُ بنفسي بعيداً عن الأسرة، لأبكيها ناعياً شبابها الغض، ورَوْنقها الآخذ، وثقافتها البارعة وسُلوكها الممتاز! وكل ذلك لا يجدي.

وحينَ بدأ العام الدراسي الجديد، والتقيتُ بهيئة التدريس، وجدتُ الحزن يشمل الوجوه، واللّوعة مشتركة عامة، وقد عَرَضتْ بعض الزميلات أن يقوم الطالبات بحفلة تأبين تُحسب لهن في النشاط المدرسي تحتَ رعاية المدرسين، ثم اقْتَرَحْن عليّ أن أُلْقِي قصيدة في هذا الحفل، كما سيُلقي المدرسون والمدرسات بعضَ ما يدل على الشعور الحارّ بالأسف، وهو

شعورٌ طبيعيّ لا تكلّف فيه، ولم أتردّدْ في الإجابة لأنّي أدرَى الناس بمزايا الراحلة العزيزة، وحَين قام الاحتفال في موعده، أَلَقَيْتُ هذه العبرات المنظومة في عقد من الحزن الأليم!

ذهــابٌ وليسَ لــه مـن إيـابْ ومـوتٌ وفـي عـنفـوان الـشـبـابْ
ونـومٌ وفـي ظـلـمـات الـتـرابْ وبُـعْـدٌ إلـى أبـد الآبـديـن
أيـذوي صِـبـاكِ الـنضـيرُ الـبديْـع كـمـا يـذبـلُ الـزهـر وقـتَ الـربـيـع
فـظـيـعٌ لـعَـمـري فـظـيـع فـظـيـعٌ ذُبـولُـك فـي نـضـرة الـيـاسـمـيـن
أفـي بـحـر يُـوسـف تـجـري الـمـيـاه رَواقـصَ دفّـاقـة فـي مـداه
فـنـنـهـلُ مـنـهـا رحـيـق الـحـيـاة وأنـتِ بـقـبـرك لا تـنـهـلـيـن
أتـهـفُـو الـغـصـونُ عـلـى الـشـاطـئَـيْـن وتسعَى العذارى على الجانبيْن
وتـشـدُو الـسـواقـي لـدى الـضّـفـتـيْـن وأنـت بـلـحـدِكِ لا تـسـمـعـيـن
أتـسـعّـى الـفـواتـنُ عـنـد الأصـيـل سـوانـحَ كـالـطـيـر فـوق الـخـمـيـل
فـيـخـطـرْن فـي وشـيـهـنّ الـجـمـيـل وأنـت بـمـثـواكِ لا تـخـطـريـن
أزوُر حـمـاك ولا مِـن صـديـق وأتـلُـوا الـكـتـابَ ولا مِـن رفـيـق
وهـيـهـات أن نـلـتـقـي فـي الـطـريـق هـنـاك عـلـى شـاطـئ الـهـالـكـيـن
أَتُـشْـرق يـا بـدر فـوقَ الـسـحـابْ وتـتـركُ أخـتَـك تـحـت الـتـرابْ
ولا يـسـتـفـزّك هـذا الـمـصـابْ أقـلـبـك مـن حـجـر لا يـلـيـنْ
تـفـاجـئـنـي بـغـتـاتُ الـقـدْر فـتـتـركُـنـي فـي مـهـبّ الـخـطـرْ
وأجـنـح لـلـصـبـر إذ لا وَزرْ فـنـحـن جـمـيـعـاً مـن الـراحـلـيـن

أنشدتُ القصيدة فَصادفَتْ قبولاً طيباً، وعبّرتْ عن مَشاعر صادقة يحسّها الجميع قبل أن أحسّ بها، وكانت السيدة مديرة دار المعلمات أستاذةً

نبيلة الشعور دافقة الإحساس، وقد بكتْ وهي تسمع القصيدة، وطلبتْ أن أزُورها في المكتب بعد انتهاء الحفل، وكانَ مما قالت إنّها لم تملك عبراتها، وأنّ النَبْض ساخن، من الأبيات، والعاطفة متوهجة، وكلّ ذلك قليل بالنسبة للراحلة! وأرجُو أن تمضي الحفلة على خيْر!

وبعد يوميْن، كانَ وُشاة السوء قد حرَّفوا الكلم عن مواضعه فنقلُوا إلى زوج الراحلة العزيزة ما لمْ أقل إطلاقاً، إذ ذكّروا أني قلتُ إنّنا كُنّا نتنزّه معاً على شاطئ بحر يوسف، ونجلسُ معاً عند السواقي! وهيهاتَ أن نلْتقي كما كنّا نلتقي عند الأصيل، وطبيعيٌّ أن يستاء الزوج لما سمع، وقد بادَرَ في الصباح إلى زيارة دار المعلمات وقابل السيدة المديرة ذاكراً كل ما سمع، فقالت السيدة في هدوء: لقد كنتُ أتصدّرُ الحفلةَ، ولم أسمعْ هذا اللّغو الكاذب، وأنَا التي اقترحتُ على الشاعر أن ينظم القصيدة لأنه شاعرُ الدار، المعبّر في المناسبات عن افراحها ومآسيها! وقد تمنّع فأجَبْرتُه، قال الزوج بعد أنْ سَكَن غضبه حين علم أنّ المديرة هي الآمرة، وأنّ ما بلغه من الافتراءات وِشايةٌ حقيرة قامَ بها قوم دسَّاسون، ولو عَرفتهم المديرة لطلبتْ نقْلَهُم من الدار قالَ الزوج: وما المانع من أنْ أسمع القصيدة، وأحكم عليها، فقالت السيدة الفاضلة: الشّاعرُ في إجازة اليوم، وسيحضر غداً، وأدعوك لزيارتنا لتسمع ما تُريد، فانصرفَ على وعد باللقاء في صباح الغد.

وما بارَح الزوج مكانه من الدار، حتّى بعثت السيدة المديرة في طلبي، ثم قالت في هُدوء يجلّله الأسف، قلتُ لكَ أرجو الله أن تمضي الليلة على خير، وقد تحقق ظنّي، فإنّ شياطين الفساد، ذَهبُوا إلى الزّوج وافتروا عليك بِما لم تقل، إذ فهمو الأبيات فهْماً غبياً لا يصدر عن متعلمين، وقد خشيتُ أن يكون الرجل أحمق فيفهم وصفك البديع على غير

وجهه، فقلت له إنك اليوم في إجازة، وسَتحضر غداً، وعليك في هذه الليلة أن تنظَم قصيدة أخرى، تتحدّث فيها عن نشاطِها المدرسي وحبّ الطالبات لها وذهابها معهنّ إلى مسجد الدار في الفسحة الكبيرة، وعطفها على الفراشات، والفقيرات من الطالبات! هذه هي العناصرُ التي تحوم حولها دُون أن تتعدّاها، فإذا سمعها الزوج فإنّه سيستريح تماماً، وسَيْطمئِنّ خاطره كل الاطمئنان.

وفي صباح الغد حضر الزوج، وبعثت السيدة المديرة في استدعائي، فجئتُ وكأني لا أعلم شيئاً، فسلمتُ عليها، وقالتْ لي وقد نظرت إلى الزوج الفاضل، هذا الرجل الكريم جاءَ يشكرك شكراً جزيلاً على قصيدتك الخاصّة برثاء الفقيدة العزيزة، وهو يرجو أن يَسْمعها، فَحَاولتُ إِتقانَ الدور، فقلتُ إن القصيدة بالمنزل وليست بدار المعلمات، فقالتْ، منزلُك قريب فهيَّا وأَحضرها، فسارعتُ بالذهاب، وبعدَ دقائق كُنْتُ في مكتب المديرة ومعي القصيدة الجديدة، فألْقيتُها في أسفٍ وحزن، واستمعَ لها الزوج متأثراً، وقام بعدَ انتهائي من الإنشاد، فصَافحني شاكراً مقدّراً.. ثم قال: سأذهبُ إلى هؤلاء السفهاء، ويكونُ لي معهم موقف جاد! فقالت السيدة الحصيفة، لاَ أَرَى ذلك، لأنّ الحديثَ سيتَنَاقل، ويظنّ المغرضون ظُنونَ الإثم، فَعَليك أن تَكْتفي باحتقارهم الصامت، وتجعلهم يستشعرون غَضَبك، فيندمون، وهذا أقسى عقاب!

لم أدْر كيف أشكرُ السيدة الجليلة؛ فقدْ أَحْكمت الأمر بَدْءاً وخاتمة على نحو لا يبلغه مُحنك متمرّس! وما زلتُ أدين لها بأيادٍ كثيرة، كلّها ذاتِ نبل وسموّ، متذكراً قول أبي الطيب:

ولو كان النساء كمن رأينا … لفضلت النساء على الرجال

قصيدة باكية

تفتيشُ المدارس التعليمية في القرن الماضي، كان مصدر إزعاج ورهبة في أكثر أموره إذ كان من همّ المفتّش في هذا العصر أن يُحصي المثالب وحدها، وأن يجهر بها على رؤوس الأشهاد، مُتعَسفاً في تقريره السنويّ حين يَتَبَّع العثرات وحدها، وقد انقضَى ذلك العهد، وغُيّر اسم التفْتيش، فأصبحَ التوجيه، ولكنّ ذكريات الماضي قد وَجدت من يتحدّث عنها بإشباع، لتكون عبرة لمن اعتبر.

أذكرُ أن الأستاذ سيد قطب في كتابه (طفل من القرية) تحدّث عن زيارة أحد هؤلاء لمدرسته الإلزامية في قريته، فكان مما قال:

«كانت الدرّاسة جاريةً كعهدها في هنية وتؤدة، والجو قائظٌ في نهاية العام، والتلاميذ خَاملون، والمدرّسُ قد ثقلتْ عليه جُبَّته. فتخفف منها، وألقاها على مسند المقعد، وثقلت عليه عمامتُه فخلعَها وألقى بها في قمطر التلميذ الأول، وجلسَ على كرسيّه في تراخٍ ظاهر وبَاعَدَ ما بين فخذيْه فانفسحَ القُفطان وبدت منه تكةُ السروايل، في غير كلفة، وبيْنما الوقت يمرّ، والدنيا هادئة، والجميع في تهويمة لذيذة، إذا بشيخ طويل فارع يقفزُ من النافذة متدلياً منها إلى حجرة الدراسة. ويَريع التلاميذ، وجمَد الدم في

عروقهم، وشخصت الأبصارُ إلى الشيخ المتسلّق، وندّتْ منهم صيحات مَذْعورة، واضطربَ المدرّس وقامَ يمسك بعمامته، ويحاول أن يرتدي جبّته باليد الأخرى فَلاَ يستطيع، أما الشيخُ فقد انفرجَتْ ثناياه عن ابتسامة صفراء كالحة، ولسانُه ينطق في تهكم مرّ، وهو يَهزّ رأسه هزاً! ما شاءَ الله! ما شاء الله! إنّه المفتّش مفتش الوزارة، قد أوْقَف حماره الذي يَركبهُ عادة للحضور من البَنْدر إلى القرية، أوْقَفَ حماره تحتَ النّافذة، ثم قَفزَ على ظهره واقفاً فأصبح قريباً من النافذة، ثم تسلَّقها ليضبطَ كل شيء! وكانتْ هذه طريقةً مبتكرة في التفتيش لقد فَهم هذا المُربيّ الكبير أن وظيفَته هي الضبطُ لا التَوجيه، ولو أنّ المدرس قد ترصّدهُ ساعةَ قَفْزِه من الشباك، ورماه بآلة حديدية قاسية ما آخذَهُ القانون بشيء لأنّه يقوم بعمل مريب!».

والطرائفُ كثيرة في هذا المجال، وبَعضُها يَفوقُ ما ذكرتُه غرابةً، ولكنّ هذا الحادث يُصوِّرُ مدَى عُنجهيّة المفتّش، ومدَى فهمه لرسالة التفتيش.

على أن الأمور قد أخذَت تتبدَّلُ شيئاً فشيئاً، حتى وُجِدَ من المفتشين منَ يعدْلُ عن الإرهاب إلى الملاينة، ثم تطوّر الأمر كثيراً، حين أصبحَ المدرّس الآن لا يَكاد يهتم بالموجّه أو المفتش لأنّ محصولهما العلمي ضئيلٌ، والطلابُ منصرفون إلى الدّروس الخصوصية فلا يلتفتونَ إلى أكثر ما يقال، وهي مأساة!

أمهّد بذلك لذكر موقفٍ طريف وقَعَ لي في مُفتتح قيامي بالتّدريس في المدارس الثانوية، فقد صَادفني مَن اعترض على اختياري الأدبيّ في غير مُوجب للاعتراض، وعَدَّ قوله هو الفصْل الّذي لا محيد عنه! وجَمعَ

المدرسين ليشرَح لهم اعتراضَه في حميّة تصل إلى الغضب، فوافقوهُ جميعاً دون أن أجَد مَنْ يبّرر موقفي! والحقّ أن الرجل كانَ باعتبارِ تفكيره المحدودِ صادقاً بينه وبيْن نفسه! فهو يعتقدُ ما يقول ويَرى، بلْ يظن أنَّ واجبه يدعوُه إلى طرحِ المسألة في مجتمع عام! وكأنها أمر خطير!

كانَ من مُقرر النصوص الشعرية على تلاميذ السنة الأولى بالمدارس الثانوية، قَصيدةُ مالك بن الرّيْب التميمي في رثاءِ نفسه، وهي قصيدةٌ جيّدة ذاتُ شهرة مِنْ الدارسين، ولها تأثيرها النفسيّ، لأنّها تصوّر مشاعر إنسان يحتضر، وقد عَزّ عليه أن يُفارقَ الدنيا فهتف بما تَخْتَلجُ به نفسه، وكانت الأبياتُ المقرّرة عَلى الطلاب لم تَشْمَل كلّ ما قاله الشاعر، بل اختارَ المسئُولون بَعْضَها دون بعض، وكأنّهم لا يُريدون أن يُرهقوا التلميذ الناشئ بما يَثْقُل عليه حفظهُ، فآثَرُوا الاختصار! والنّص المقرر على الطلاب هو هذا:

تذكرتُ من يبكي عليَّ فلم أجدْ ... سوى السّيْفِ والرّمح الردينيّ باكيا

وأشقرَ خِنذيذ تجرّ عنانه ... إلى الماء لم يتركْ لَه الدهر ساقيا

فيا صَاحبيْ رحلي دَنَا الموت فانزلا ... بِرابيةٍ إنّي مقيمٌ لياليا

أقيمَا عليَّ اليوم أو بعضَ ليلة ... ولاَ تعجلاَني قد يَبينَ ما بيا

وقُومَا إذا ما استُلّ روحي فهيّئا ... لي السّدْرَ والأكفان ثم ابكيا ليا

ولاَ تَحسُداني باركَ اللّه فيكما ... من الأرض ذَاتِ العرَض أن تُوسِعَا ليا

خُذَاني فجرّاني ببردي إليكما ... فقد كنتُ قبلَ اليوم صعْباً قياديا

فقد كُنتُ محموداً لدَيَّ الزّاد والقرى ... وعن شتْمَي ابنِ العم والجار وَانيا

فلا تَنسيا عهدي خليليّ إنني ... تُقطّعُ أوصالي، وتبْلى عظاميا

يقولونَ لا تَبْعدْ، وهم يدفنوني | وأينْ مكان البُعد إلاّ مكانيا
وما كانَ عهد الرمل منّي وأهله | ذميماً، ولا بالرملِ ودّعتُ قاليا

ومن المصادفات أنّي كنت أحفظُ القصيدة جميعها، وأبياتها في بعضِ الروّايات تربو على الأربعين، ورأيتُ أن أُضيفَ إلَى ما اختارتْه الوزارة بعضَ الأبيات الجيّدة التي تفّصح عن مكنون الشاعر، وتُصوّر لَوْعته الدامية في موقفٍ يجلّ عن العزاء، ونبّهت الطلاب إلى أنّ ما بالكتاب المدرسي هو الجزءُ الّذي يجبُ حفظه، وأنْ ما أضيفَ إلَيْه للدراسة الأدبية، والمتعة الفنية فحسب.

ومما اخترتُه من مطلع القصيدة:

ألا ليتَ شعري هل أبيتنّ ليلة | بجنب الغض أُزجي القلاص النواجيا
لقد كانَ في أهلِ الغَضَى لوِدّنَا | مَزارٌ ولكن الغضَى ليس دانيا
لعَمري لئنْ غالتْ خراسان هامتي | لَقد كُنتُ عن باقي خراسان نائيا
فلِلّه دُرّي يوم أتركُ طائعاً | بَنِيَّ بأعْلى الرقمتين وقاليا
ودَرّ الظّباء السانحات عشية | يُخبّرنَ أني هالك مَنْ ورائيا
ودرُّ الهوى مِن حيثُ يدعُو صحابه | ودَرُّ لجاجاتي ودرّ انتهائيا

ومما اخترته بعد الأبيات المقرّرة:

فيا ليتَ شعري هل تغيّرت الرّحى | رَحَى المُثْل أوْ أضحتْ بفلج كماهيا
إذا القوم حَلّوها جميعاً وأنَزلوا | بها بَقَراً حُمَّ العيون سواجيا
رَعَيْنَ وقد كانَ الظلام يجنها | كسُفْن الخزامى نَوْرَهَا والأقاحيا

وقد أثْبتُّ ما قدّمتُ وما أخرت في دفتر التحضير مَشروحاً مُبْسّطاً، ووَضعتُ بعضَ الأسئلة المتعلقة به كالمعتاد! ولمْ أدرِ أنّ المفتش الفاضل سيأتي فيما بعد، ويُطالع دفتر التحضير ليتلمّس المآخذ.

ثم حانَ اليوم القريب وجاء المفتش وطلب كراسة الإعداد (التحضير) وأعطيتُها إياه، وذهبتُ إلى الدرس، ولمْ أدرِ أنّ ثورة هائجة قامتْ به، ودَعَا إليها مَنْ يجْلسُون في حجرة المدرسين ليشاركوه الرأي في هذا الخطب الداهم؛ قالَ السيد الكبير: تعالَوْا يا قوم إنّ المدرس تجاوز النّص المدرسيّ، وأضافَ إليه أبياتاً ركيكة مُملّة، وأخذَ يشرحها في وقتٍ كانَ الطلاب في حاجة إلى مِلْئه بما يُفيد! إن الّذين اختاروا الأبيات المقررة من كبار المفتشين في الوزارة وقد قرأوا القصيدة جميعها، واختاروا منها ما يُفيد التلاميذ، ولكنّ المدرس الفاضل رأى أنه يفْضلُهم في الاختيار فيتبرّع بإضافة ما حقه الإهمال ثم قال: سامحه الله، تصوّروا أنه اختار بيْتاً يقول فيه الشاعر:

إذا القومُ حلّوها جميعاً وأنزلوا بهَا بقراً حُمّ العيون سواجيا

أيكون للبقر مُناسبةٌ في شعر إنسان يرثي نفسه! هلْ كانَ من اختاروا هذه الأبيات أغبياءَ حتى يختاروا مثل هذا الهراء! أيْن المدرس، لي معه حساب!

وما كدتُ، بعد انتهاء الدرس أدخلُ حجرة التدرس، حتى وَجدت الوجوه متطلّعةً إليّ، كمن وقع في تهمة خطيرة، وحَانَ وقت الحساب الشديد من أجلها، ولم يمهلني السيد المفتش، فتطلّع إلي متسائلاً: ما هِيَ حكاية البَقرَ يا مولانا؟

دُهشت، لأنّي خالي الذهن تماماً، مما يَدور في فكر المفتش، وقلتُ: أيّ بقرٍ تَعْني؟

فقال: البيت الذي شَحنتَ به عقول التلاميذ، وقدّمته هدية للطلاّب، ولا علاقةَ له بالرثاء الخّاص بمالك؟

وكانت الحجرة غاصّة بالزملاء من رِجال اللغة العربية والمواد الأخرى، وكلّهم علَى رأي المفتش إذ لاَ يجدُون علاقةً ما بيْن البقر وساعةِ الاحتضار؟ وأدْركتُ أنّ الموقف يتطلّب الإيضاح وأنا أعرفُ سَلَفاً أنْ زملائي الأفاضل يُقدّرون مكانتي العلمية علَى عكس المفتّش تماماً ويعلمون أنّ هناكَ لُغْزاً يجب أن يُحلّ، لُغزاً قد ابتدعَه المفتّش ابتداعاً، وكانَ عَلَى ثقةٍ تامة بصحة موقفه، وصلابة رأيه!

فقلتُ للّسيد المفتش، أتسمحُ لي أن أوضّح الموضوع للسّادة الزملاء، فقدْ يكُونُونَ بعيَدين عنْ ملابساتِ القصيدة، فقالَ لي: تُريد أن تخطُب؛ تفضّل!

فقلتُ إنّ البيت الذي انتقده أستاذي الجليل مِنْ عيون القصيدة، وأشرحُ لكم ما أعنُيه بإيجاز ثم اندفعت أقول:

إن الإنسان في اللّحظات الأخيرة من الحياة يتذكرُ أوقات السعادة التي مرَّت عليه، ويصعبُ جداً علَى نفسه أن يُفارقها إلى غير عودة، والشاعرُ مالكُ بن الريب كانَ في ريْعان قوّته، يذهب إلى مكانٍ بناحية (الفلج) قبلَ أن يشرق الصباح، ليَرَى النّياق جاءَت محمّلة بالغيد الحسان وقد نزَلْن رائعاتٍ زاهبات إلى المرج المعشب بالبادية، فأخَذْن يقطُفن الزهورَ من أقاحِ

وورود ويَشْمَمْنَ عَبيرها الفواح، وكأنّهن زهر يقطف زهراً، وعطرٌ يُضاف إلى عطر، فصاح المفتش أين ذلك يا أخي؟ قلتُ:

إن البَقر هُنا هُوَ «الْمَهَا» والعربُ تشبه المرأة بالمهاة، لجمالِ عينيْها، فالكلام ليس على حقيقته، والسياقُ يحتّم ذلك، لأنّ الشاعر يقول (يَسُفن الخزامي ريحها والأقاحيا) ويَسْفُن بمعنى يَشْممن، وأظنّ البقرة الحقيقية لا علاقة لها بالخُزامي ولا بالورد، فالكلامُ هنا يتّجه إلى مشهد من مشاهدِ الحسن لم يترْك تأثيره في نفس الشاعر طيلة حياته، ومن يدري لعلّه كانَ يعشق فتاةً من هؤلاء! فتذكّرها، وقد نزلتْ عن الناقة قبل الشروق والندّى يتساقط ثم اتجهتْ إلى الوُرُود والرياحين مع صواحبها، فكانَ لمسيرّهن مشهدٌ أي مشهد، ذكره الشاعر في ساعة الاحتضار!

أشرقت الوجوه حينَ فرغتُ من تفسير البيت. ولكنّ وجه المفتش قد اكْتَسى العبوس، وأدارَ الحوار حَول سؤال طرأ على باله؛ هو:

أيجوزُ للمدرس أن يختار أبياتاً من الشعر غير الّتي دُوّنت في الكتاب المدرسي؟ وإذا صحّ ذلك؟ فما فائدةُ الكتاب، وما أثرُ الفَوْضى التي تترتب على ذلك؟

قلت في جرأة: أظنّك الآن قد اقتنعت بأنّ تفسيرك (البقر) كانَ بعيداً عن الصواب! وأنا لم أخْتَر قصيدةً من عندي، ولكنْ أضفْتُ إلى القصيدة أبياتاً تقدّم صورة تامّة لما جَال بخاطر الشاعر المحتضر من ذكريات، فيُمكنك أن تُعدَّل السؤال إلى ما يلي: هل يجوزُ للمدرس أن يُكمّل قصيدة مختارة بما يعتقد أنها تمثل الصورة التّامّة، للشاعر، كما تُضيء بعض المعاني الأصيلة التي عَنَاها الرجل في أحرج الساعات فقال المفتش: لا

يَجوزُ لكَ أن تضيف شيئاً، وسأكتبُ إلى مكتب التفتيش بالوزارة ليُقنعك بخطئك، وأنَا مسئولٌ: ثمّ ساد السكوت، ولم يشأ المفتش أن يكمل الدورة كالمعتاد بل بَارَحَ المدرسة إلى غيرها!

ثم جاءَ التقرير الخاصّ بالزيارة، فوجدتُه أعطى المدرسين جميعاً تقديراً جميلاً، وجعلني دُونهم في التقدير، ثم طَلَب المدرّس الأول بعد أيام، وأطلعه على ردًّ من مكتب التفتيش بالوزارة، يقولُ ليس للمدرس أن يَخْتار قصائد غير المقرّرة في الكتاب المدرسي، وطلبت منه أن يُبلّغني بما رَدّت به الوزارة، فعلمتُ أنّه كتب يسألُ عن قصائدَ يختارها المدرّس بنفسه! ولم يسألْ عن تكملة قصيدةٍ أضافها الأستاذ، وهذا تدليسٌ غير مقبول!

وكان رَد المكتب ممهُوراً بتوقيع الأستاذ إبراهيم البساطي كبير مفتشي اللغة العربية حينئذٍ فلمْ أستطع السكوت، وأنا أعلم أنّ الأستاذ البساطي رجلُ علم وفضل، وهوَ الذي حقق كتاب (الإبانة عن سرقات المتنبي) تحقيقاً رائعاً، فعرفتُ أيْن يقطن من شوارع القاهرة؟ وذهبتُ إلى زيارته، ومن فضل الله عليّ أنّه كان يقرأ بعضَ ما أَنشُر في مجلتي الرسالة والثقافة، فاسَتْقبلني مُرحباً، وقمتُ بتلخيص ما كانَ بيني وبين السيد المفتش، وقلتُ إنك ردَدت عليه بما أيّد موقفه، وأنّه ظلمني في التقدير إذ جعلني أقلّ زملائي، حتى أصبحتُ موضع التندر، فتأثّر الرجل تأثّراً بان في وجهه الكريم وقال: أذْكُر أنّ سؤالاً من بعض الإدارات كان خاصاً بضرورةِ الالتزام بالمقرر الدراسيّ فوافقتُ على ذلك، ولم يأتِ إليّ ما يُنْبئ عما ذكرت! وسأدعُو المفتش إلى مكتبي ليصحح الوضْع، ويُبادر بإنصافك!

وجاء العام الثاني فرأيت الرجل يُقابلني باحتفاء لا حدَّ له، وقال إنه

علم من الأستاذ البساطي كلَّ ما كان، وأنّه في ساعةِ ضعف كتَبَ التقدير متأثراً بمجابهتي إياه، قلتُ يا سيدي أنا لم أجابهْك إطلاقاً، فأنا أعرف مكانتي منك، ولعلّك فهمت غيرَ ما أقصد؟ قال ستأخذُ هذا العام درجةَ الامتياز في التقدير، لتمحُو ما كان! ودَعاني إلى أن أسهرَ معه الليلَة في بعض نوادي العاصمة، فلم أخيّبْ رجاءه، وذهبتُ فوجدت النادي غاصًّا بعشرات الزملاء ممن أرادوا التّرحيب بمقدمه، وقد قابلني باشتياق، وأثْنى عليّ أمام الحاضرين، فعرفت أنّ الحق قد عاد إلى نصابه! وأنها كانت سحابة صيف.

وأنا كثير المعاودةُ إلى كتب التراث الشعري القديم، فما أذكرُ أني مررت بقصيدة مالك بن الريب التميمي في رثاء نفسه إلاّ ذكرتُ موقف المفتش مني. وقد تمنيّت أن يُمْحى مِن الذاكرة، ولكنْ ما كل ما يتمنى المرء يدركه!

شجون صديق

عرَفْتُه رقيقَ الإحساس، قوي الشعور، ناحَل الجسم، لو توكّأتَ عليه لانهدَم، كما قال بشار بن برد، وكانَ مشغوفاً بالاطلاع الثقافي، تَرى كلَّ يوم في يده كتاباً جديداً، وتسألهُ عنه فيُحدّثك عن أجمل ما فيه، ويتطّرق إلى نقدِ ما لا يُوافق عليه في أدبِ حَيٍّ خجول.

رأيتُه نَمطاً نَادراً من المدرسين في مدرستي، فآثرتهُ بِمودّتي، وكانَ مُدرساً للتاريخ ولكنّه لم يكْتف بالمقرّر المدرسيّ كغيره من الزملاء، بل أخذ يدّرس المصادَر الأُولى في شوق ويكتبُ تعلقياتٍ يعرضها عليّ، فأُكْبِر جُهده، وأقولُ إذا لم أوافق على بعض ما اتّجه إليه، إنّه أحسنُ وأفضلُ ممنْ لا يقرأون ولا يَنْقدون، وسيأتي يومٌ قريب يبلغُ فيه ذِروة الكمال.

وتصادَف أن كَتبَ إليّ الأستاذ محب الدين الخطيب، يطلبُ أن أكْتُبَ عن أبطال الإسلام الّذين لم يَكتب عنهم أحد، وَهُمْ لا يقلّون عن المشتهرين جدارةً، وحدَّد أسماءَ بأعيانها مثل النّعمان بن مقرن وعماد الدين زنكي وقتيبة بن مسلم، فكانَ الأستاذ الزّميل يُساعدني في استعارة المراجع. وفي شراءِ ما يتطلّبه البحث من مصادر، ويَعدّ ذلك مصدرَ سعادةٍ له، ويقولُ لي: أنتَ تدفعني للعمل، وسأكونُ في يوم مَا مؤرخاً، لأنّي أتأبعك حين

تقرأ، وحين تجمعُ العناصر، وحين تُنسّق الحديث في اطمئنان، وهي تجربةٌ لم أعهدها من قبل وسأحاولُ أن أسير على الطريق.

لقد توثقت الصلة بيْننا زمالةً في العمل، وتعاوناً في البحث، فسعدتُ به، وسعد بي، وأصبح يحتّل مكانة من نفسي!

ثم شاءَ الله أن يقعَ في هَوى مُدرّسةٍ تُزامِلهُ معنا في المدرسة، وهو لا يزالُ في مقدمة الشباب يَنشدُ الحبّ، ويهفُو للغد المأمول، وكانت الفتاة ماكرةً لعوباً تنشدُ مصلحتها الخاصّة دُون أن تشاركهُ عاطفته، وهو لا يعرفُ ذلك بل يعرفُ نقيضه تماماً، وهكذا ارتطم بالأحداث.

كانَ بدءَ الصداقة أنّها جاءت إليه ذاتَ صباح، وكانت تُقطُنُ القاهرة، وتعمل في مدارس الفيوم، وتسافر يوم الخميس ظهراً وتحضُر صباحَ السبت، فأرادتْ أن تُضيف الخميس إلى الجمعة فتكونُ الإجازة يومين لا يوماً واحداً، وقد رَأَتْ أن صاحبَنا وديعٌ رقيق وهو يُدرّس مادة التاريخ في الفصل الّذي تُدرّس فيه يوم الخميس مادة الإنجليزي فأخذتْ تسرّ إليه اقتراحها، وكأنّها تتحدث إلى حبيب تعرفه من قديم، وقد قالتْ له: إن جَدْولَ العمل المدرسي يحتم أن أَدرِّسَ يوم الخميس، ولي به حصّةٌ واحدة في الفصل الّذي تُدرس به التاريخ، فلنتفقْ على أن تأخذَ أنت الحصّة، وكأنّها في مقرّرِك الدراسي، وأنا أغيبُ دُون أن يشعر أحد! وكانتْ نظراتُها تُعطي الكثير مِن علائم الحب والشوق، وقد شفعَت رجاءَها بقولها، ليسَ لي في المدرسة غيرك إذْ لا أميل إلى أحدٍ سواكَ فأنتَ لست زميلي فقط، ولكنْ أكثر من ذلك، وقلْبُك يحدثك!

المسألة خطيرة، وإذا كُشف أمرها أدّتْ إلى عَواقب وخيمة، فهذه

مُدرّسةٌ تتركُ عَملها الرسمّي المنوط بها، وتحاولُ أن تُعوّض الحصّة فيما قبله، من دروس الأسبوع، وهذا مُدرّسٌ يعاونها على الخيانة العلمية، ويقومُ بما لَمْ يُعهد إليه، وما لاَ يحتملُهُ مقرّرهُ المحدود في حصّتيْن لا ثلاث، والحبّ أعمى، فقد وافقَ المدرس، وعدَّها شهامةً ومروءة، ولم يسأل نفسه ماذا يكونُ الحال، لو كُشِف الأمر، وبدأ التحقيق!

وقد سارَ الأمر وفق هذا الاتّفاق، دُون أن يَبْعث على الريبة، لأنّ الطالبات يعتقدْن أن الحصة للتاريخ لا لِلّغة الإنجليزية فلا شكوى، وكأنّ الله قد رحَم هذا المسكين، فلم يُحدْث ما يبعثُ على السؤال ثم الاستجواب، ومرَّ العامُ على منواله الخادع، وصاحبُنا لا يَقْبضُ غير الابتسام المشجّع، ويَرى فيه دلالةَ حبّ لا يتداخله الريب، وقد يُفْضي إلى زفافٍ قريب.

وجاءت العطلة السنْوية، وكانتْ تمتّد حينئذ إلى شهريْن ونصْف، فأخذَ صاحبنا يُعاني من الفراق أكثرَ مما يتحمله قلبُه الواهن. وصَادَف أن ذهب إلى المدرسة فرأى في البريد خطاباً للمدرّسة الغائبة في القاهرة، فحمله بين يديه كما يحملُ أعزّ الذخائر، ورأى أنْ ينتهز من ذلك فرصةً لمراسلتها، فأخَذَ الخطاب، ووضَعه في ظرفٍ أكبر من حجمه، وأرسله مُسجَّلاً بعنوانها الذي نقله من إدارة المدرسة، وكَتَب ورقةً صغيرة يقول لها: إنّه وجدَ هذا الخطاب، ويخشى أنْ يحمل من الأنباء السريعة ما يُشغلك، فلذلك بادر بإرساله مسجلاً، وأخذَ ينتظرُ الردّ السريع فهو يذهبُ كلّ صباح إلى المدرسة، ويسألُ عن البريد، دُون جدوى، ويقولُ لقد بَعثْتُ الخطاب مُسجّلاً، فلِمَ لَمْ تُرسل الرد؟ أتكونُ مريضةً؟ لعل الله يجعله خيراً.. وهو معَ ذلك يذهب يومياً لمراجعة البريد دون جدوى!

ثم أقبَل العام، وسارعتِ المُدرّسة لمراجعة جدولها المدرسيّ، فلمْ ترَ صاحبَنا يشتركُ معها في فصْلٍ واحد، وإذنْ فلا ضرورة لاستقباله، والزميلُ متلّهف على لقائها، ويصطنع الصبر وهي تَروح وتَغدو دون أن يجد فيها أدنى إشارة، ثم رأى أن يَفْتح باب الحديث، فاعترضَ طريقها، ليقولَ لها، إنّه وجَد خطاباً باسمها، وخافَ أن يكون هاماً بالنسبة إليها، فأرسله مسجّلاً، فهلَ وصل؟ وفُوجيء بها تقولُ: لقد ضحكتُ مع والدي كثيراً لهذا العَمل؟ خطابٌ مِن تلميذة لا يُقدّم ولا يؤخّر، يجملُك ترسله إليّ، وكأنه يحمل شيكاً بألف جنيه!! ثم تركتْه وفي وجهها علامةُ الاشمئزاز!

صُعِق صاحبنا، لأنّه وجد آماله تنهار فجأة، كما يتهدّم القصر الشامخ بزلزالٍ مفاجئ وذهبَ إلى منزله حزيناً يتقطّع قلبه أسفاً، ثم جاءت الأنباء إلينا بانتقاله إلى المستشفى مريضاً بالزائدة الدودية الّتي يجب استئصالها، فأسرْعنا إلى زيارته، ونظرت إليه، فوجدتُ في عينه عبرةً توشك أن تسيل! فآثرتُ أن أبقى معه بعد خروج الزملاء لأعلمَ من أمره ما أجهل!

ولم يكنْ في حاجة إلى سؤالي، بل بادَر بنفسه فأطلعني على حديث المقابلة الّلعينة الّتي نغصّت عيشه، ولم يُذق النوم بعدها، حتى داهمتْه الزائدة الدودية فكادتْ تقضي عليه، وقد غضبتُ غضباً لهذا الجحود البغيض! لقد كانَ في مقدورها أن تتحدّث عن الرسالة بمودّة. وأن تظهرَ لصاحبها كفاءَ ما يستحق من شكر، إذ عرَّض نَفَسه للمساءَلة التأديبيّة في سبيلها؟ كانَ في مقدورها ذلك وإن لم تحملْ له أدْنى ميلٍ قلبيّ، أمّا أن تقولَ إن الرسالة كانت مادّة سخرّية بينها وبين أبيها، فهذا ما لا يُطاق!

ولم أر بدًّا من أن أُواسي صاحبي بشتى العبارات، كما أذكرُ أنّي قلت

له، لا تأتي على هؤلاء، فقد أراحَكَ الله من هذا الطراز الجحود، ولوْ قُدّر لها أن تكونَ زوجتك لأرتْك من الأهوال ما يقْضي عليك! فاحمد الله ثم أحمد الله! وأذكرُ أنّنا تناقلنا حديث الشعر والفن والأدب، وقلتُ له إنّ صاحبتك ستبحثُ هذا العام عن زميل آخر تخدعه كما خدعتك لأنها من الطراز الّذي قال عنه القائل:

اليــوم عنــدك دَلُّهــا وحديثهــا وغــداً لغيــرك جيــدُها والمعصمُ

وخرج من المستشفى بعد العلاج، ثم فُوجئت به يتقدّم بطلب إلى عميدة الدار يرجو به أن توافق على نقله للمدرسة الصناعية لأنّه تحدث مع المفتش بالمديرية عن ذلك، وأَبْدَى استعداده لو وافقت السيدة المديرة! فدُهِشَتِ السيدة لما لم تتوقع، وهي تعرف في الزميل حرصاً على العمل، وكفاءةً في المادّة، وقالت له: يا رجل، إن مستوى المدرسة الصناعية، لا يُناسب مركزك ولا يذهبُ إليها غيرُ من يضعهم المفتش في الصف الثاني كفاءة وعلماً، لأنّ المواد الثقافية هناك ضئيلة، وقد لا تُؤدَّى لاشتغال الطلاب بالدرّوس العملية، فماذا جَدَّ بعقلك، وكان الجوابُ حاضراً هيَّأهُ من قبل، فقال، لقد التحقتُ بالدراسات العليا بكلية الآداب وأريدُ أن أتفرّغ للبحث العلمي، والمدرسة الصناعية التي ستُساعد على ذلك! ورَجَائي أن تكوني في صفّي نظراً لما أحلم به من مستقبل مشرّف! وحين سمعت هذه الحجة التي لفّقها الزميل تلفيقاً ناجحاً بادرت بالقبول!

لم يُفاتحني الزجل فيما نَوى أن يفعل، فَفُوجئتُ بانتقاله إلى المدرسة في مدى سريع، وأسفتُ لحرمْاني من رُؤيته اليومية، ثم انتقلتُ إلى منزله

بعد الغروب، لأسأله عن تصرّفه الشاذّ، فقالَ لي في صراحة: أخي، أنا لا أصبرُ عن رؤيتها. وأكاد أرْتمي عليها حين أراها، وأخشى إذا صادَفْتُها في الطريق أنْ أتذلَّل لها بما يهين كرامتي، فأنا أعرف نفسي جيداً، ولا بدّ أن تحذرني فآخر الدواء الكيّ.

ولم ينْقطعْ تزاورنا، فكنتُ أذهب إليه في منزله أسبوعياً، كما يأتي إليّ، وفي زيارة هادئة حدّثني أنه بدأ يَسْتريح، وأن الخِصام أحدثَ له هُدوءاً لا عهد لَهُ به، ويدعوا الله أن يتم عليه هذه النعمة الّتي ستنقذهُ من الجحيم، وأطالَ الحديث في ذلك إطالة حَمْدتها وسُررت منها وكانت لي تجربةٌ من قبل، في السلوّ بعد الحب، والراحة بعد العناء، فخرجت من لدنه، وفي نفسي خواطرُ شتّى رأيت أن أنظمها في قصيدة تحت عنوان (راحة الخصَام) وقد جاء فيها:

نَويتُ خصامها ولبثتُ أخْشَى ... هياجَ مشاعري غبّ الخصام

كَتمتُ عواطفي وبعدَتُ عنها ... كما امْتَنَع المريض عن الطعام

وبَدْءًا كنتُ أشردُ في ذهول ... لذكراها، ويَرجحُ لي اعتزامي

أحسُّ بِمِحْنةٍ فأقول ربيّ ... معي في محنتي، وبه اعتصامي

إذا التهَبَ الغَليل تَلَوْتُ آياً ... من القرآن يُبرِّد من أوامي

مِرانٌ كانَ يُرهقني ابتداءً ... فأصبحَ هيّناً سلس الزمام

ألفتُ به الخصَام لحُسْن حظّي ... فأصبحَ بعدها سلس الزمام

فلم أزْفُر، لرؤيتها حنيناً ... وقد مَاسَتْ بممشوق القوام

ولم أرْصُد مُحيّاها وضيئاً ... وقلبي فائرُ النّبضات دام

ولم أخشعْ بمجلسها خجولاً ... أُنافِقُها بمعسول الكلام

رأيتُ شموخها يزداد بغياً ويطمسُ كلّ معنًى لاحترامي

فأزمعتُ الخصام وكان خيراً لديّ من المذلّةِ في الوئام

صبرتُ بل اصطنعتُ الصبر حتّى سلوتُ، وكانت السّلوى مرامي

خصامٌ كادَ أنْ يَغدو وصالاً لما أبدّى من المِنَنِ الجسام

ولكنْ هل انتهى الأمر إلى ذلك؟ لقد جدَّ من الأحداث ما أعادَ الحرب جذعةً، فإن هذه الماكرة، تَعرف في أعْماقِها شدّة كلّفه بها، وسطوةَ غرامها بقلبه، فأرادت أن تستذلّه بعد ابتعاده عَن مسرح الأحداث بمدرستها، فأَبْصَرَها ذاتَ صباح تقفُ أمام مدرسته، وتبتسم له ابتسامةً ينخلع لها قلبه الضعيف، فأقبل نحوها وهو لا يُصدّق عينيه، فتظاهرتْ بالأسف لفراقه، وأعلنتْ أنّها عرفتْ مكانته في قلبها منذ انْتقل إلى مدرسته الجديدة، ثم قالت إن ابنَ أختها تلميذٌ بالمدرسة الابتدائية، وهو يَسْكن بهذه المدينة مع أمّه، ويريدُ دَرْساً خصوصياً في اللغة الإنجليزية، وهي تعلمُ أنّه دَرَّس هذه المادة بمدرستها حين احتاجت إلى مُدرّس، ولم تعينها الوزارة بمن تريد، فاختارَته العميدة، وهو مُدرسُ التاريخ فأدّى الدرس كأحسن ما يكون الأداء، وحينَ حَدّثَتْها أختُها بالأمس عَنْ ولدها، وضرورة احتياجه إلى مدرس لم تفكّر في غَيره، ثم قالت ستأخذُ أجراً كاملاً، فهذا شيءٌ، وعلاقتُنا شيء آخر، وأنا لك في مُسْتقبلك السعيد، لقد كانتْ كلمة (وأنا لك في مستقبلك السعيد) كافيةً لأن يُعلن صاحبنا قبوله، وأنْ يُصرّ على أن الدرس سيكونُ مجانياً من أجلها، ولن يقبلَ مليماً واحداً، وهذا ما كانت تتوقّعُه، ودبَّرت الحيلة لإتمامه، ومنذ اليوم والمسكينُ يتوجه إلى المنزل ثلاث مرات في الأسبوع، ويبذل الجهد كل الجهد في تعليم التلميذ الخائب، بل تطوّع لتدريس مواد أُخرى وهو في أتم الابتهاج!

ثم كانت المحنة ـ المحنة الخاصة بقلبه ـ حيث حدثَه التلميذُ أنّه سيذهب مع الأسرة يومَ الخميس القادم إلى القاهرة فلا ضرورةَ لحضوره هذا اليوم، لأنّ خالته هذه الماكرة سيتمّ زفافها هناك إلى محاسبٍ بمديرية الضرائب!! لقد نَزلَ الخبر على قلبه نزولَ الصاعقة من السماء تَهوي على جسم هشٍ فتكتسحهُ إكتساحاً! أينْ قولُ هذه الكاذبة (أنَا لك في مستقبلك السعيد) قبلَ ثلاثة أشهر قضاها مدرّساً خصوصياً متفانياً في آداء رسالته دُون مقابل، وفي ظنّه أنه اصبحَ أحد أفراد الأسرة، وستتحقق أمنيَتُه عن قريب.

خرج المسكينْ يجرّ رجله جرًّا، وهي تَسير به تلقائياً، دُون عقل واعٍ يدفعُ بها إلى المسير ولولاَ رحمة الله لصدمتْه سيَارة فأتَت عليه، وظلَّ بالمنزل يوميْن لا يبْرحه إلى مدرسته ثم أرسَل إليّ. فوجدتُ شبحاً لم يتحمّل الصدمة الثانية، واستمعتُ إلى قصّته، فقلت له يا أخي، أنتَ مدرّس ناجح، ولك مستقبلٌ زاهر بإذن الله، ولا بدَّ أن تبحث عن عروس مُناسبة تُنْسيك ما أنتَ فيه، فالدُنْيا تحفلُ بمن هي خيرٌ منها! هلَّم هلّم، فقالَ في انكسار إنّ والدتي منذ عَاميْن قد عَيَّنتْ لي جارةً مهذبة تحمل كفاءة المعلمين، وتعملُ بالمدرسة الأولية، وهي ذاتُ حُسْنٍ وافر، وكانتْ تُحدّثني في أدب، قبلَ أن تُخبرها والدتي برغبتها في أن تكونَ عروسي! فجلَّلها الحياءُ، وجعلتْ تبتعدُ كلّما رأتني! ولكنَّ والدتي تطمئنها، وأنَا في مأساة حبيّ بعيدٌ عنها، لا أفكّر فيها! وسأذهبُ يوم الخميس لأعلنَ رغبتي، وستفرحُ والدتي، فقد كثر إلْحَاحُها، وقد بَالَغْت في الثناءِ عليها وعلَى أهلها مبالغةً لم تأت عن فراغ، ولكن عنْ بحث وتنقيب!

قلت: هداكَ الله ثم هداك، لقد ساعَدتِ الأقدارُ على توفيقك، ويُخيّلُ إليّ أنْ هذه الماكرة كانتْ ستُذيقك الأهوال لو اقترنَتْ بك، وقد أنجاكَ الله!

ثم دَاوَمْتُ زيارته في ثلاثة أيام مُتعاقبة حتى جاء الخميس، وقد اعتزمَ اعتزاماً لا يقبل النكّوص! وكان تفكيره في الجارة المهذّبة ماحياً لما أحسّه من خُذلان في الموقف الأليم!

إنّ قصتهُ هذه لا تبرح مخيلتي، وقد أردتُ أن أبوح بها للقارئ. فقد يجد فيها موضعاً للتأمل الرشيد.

المسابقات الأدبية

الحديث عن النفس في بعض صُوره يكون ثقيلاً، وسأحاولُ في هذا الموضوع بالذات أنْ أستعين بغيري ممن تحدّثوا عن مؤلفاتِ المسابقات الأدبية الّتي قُدّر لي النجاح فيها، ولئن أحرزتُ السبق في كثيرٍ مما أسهمت فيه، فقد أَخلَفني الحظ في بعض المحاولات مرةً وثانية، والإنسانُ بَشَرٌ محدود الإبداع يخطئ تارة ويصيب.

أوّلُ مسابقة جازفتُ بالدخول فيها كانتْ عن أبي العلاء المعري بمناسبةِ مرُور ألف عام على وفاته، إذ دَعَا القائمون علَى بعضِ الإذاعات المشهورة الشّعراء إلى التسابق الشعري بهذه المناسبة، وقدروا جوائز مناسبة، وكنتُ طالباً بالمعهد الثانوي، ولكنّي لمست دافعاً يقذف بي إلى معتركٍ سَيَتَبارى فيه الفحولُ ممّن اشتهروا بِروعة الشاعرية، وما كانَ لطالب أن يَخوض الغمار مع أعلامٍ مرموقين، ولكنّه الأملُ الطامح يختلجُ في النفس المتوثبة فلا يصدعه صادع، وقد قلتُ في نفسي إن المتسابقينَ سيشيدُون بالشاعر الكبير إشادةً تناسب مكانته الجهيرة، ولن يخطَر ببال شاعرٍ أن يَتَوجه إليه بالنقد إذ المجالُ مجالُ التقريظ لا مجال النقد، لذلك فَلأُخالِف هذا النهج، وأجعل قصيدتي قطعةً نقدية فتكون مميّزةً بين القصائد

في اتجاهها، بعد أَن أُمهّد لذلك بالإشادة الرائعة بمكانة الشاعر الكبير فلا أَصدم القارئ بنقدٍ مبدئي، وآراءُ المعري في المرأة، وما يُؤكل من الحيوان، والزواج وغيرهم مما يتسّعُ فيه النقاش، وعلى ذلك نظمت قصيدة أقول فيها:

أألفُ دقيقة أم ألفُ عام   كأنك لم تَزلْ تخطو أمامي
أراكَ تسيرُ بين الناس مثلي   فأسألُ هل فررت من الحمام
فجئتكَ والسرورُ يُعتم نفسي   ويُقعدها على غير انتظام
فأوَقعني جلالُك في ذهول   فلم أفطِنْ لإلقاء السلام
ولو أنّي ملكتُ زمام نفسي   لأدّيتُ التحية باحتشام

* * *

لديَّ إليك أسئلةٌ فسرْع   بأجوبةٍ تبلٌ بها أدامي
علامَ لزمتَ بيتَك وهو سجنٌ   حَمدتَ بظلّه طيبَ المقام
سَخطتَ على الورى فمكثتَ فيه   ورُحت تصبّ نقدك كالسهام
رأيتَ الوحشَ يقرب من ذويه   فما لَك قد بعدت عن الأنام

* * *

عَذرتُكَ حين ضقت بأم دفرٍ   ورُحت تحنُّ للموت الزؤام
فلو سَلمتْ لك العينان حيناً   لهَمْت بحبّها كل الهيام
فمَنْ ذا يكره الدنيا وفيها   تطالعُهُ الطبيعة بابتسام
لئن تكُ قد فقدتَ ضياء عين   فضوءُ حجاك كالبدر التمام
أنارَ لك الطريق فسرتَ فيه   وذُو العيْنين يخبط في الظلام

* * *

أراكَ مُخالِفي من كلِّ رأي | فهل لك من سبيل للوئام
تَعافُ المال وهو أعزّ شيء | حُرمتُ لأجله طيب المنام
ويؤلمني خِصامك للغواني | فما الدّاعي إلى هذا الخصام؟
لعلّك رُمتَ منهن اتّصالاً | فمثلُك ليس يخلو من غرام
فلما أنْ صَددْن وضِقت ذرعاً | بهنَّ سلكتَ خطة الانتقام
لكلِّ فتى مرامٌ في العذراى | ومِثلُك في شعورك ذُو مرام
تبعتَ الوهم فاستخْلصتَ رأياً | خلَطتَ به الحلال مع الحرام
فراعَك أن تَرى القصَّابَ يُجري | دَم الشاة الضعيفة في الرغام
فهبْها لم تكُن ذُبحت عيانا | أمَا سَيَغوُلها ليث الحمام
رُويدكَ لستَ أرحم من إلهٍ | تخيّرها غذاء للأنام

* * *

نقِمت على الزواج وأنتَ أدرى | بحكمته فما هَذا التعامي؟
وقُلتَ لئن رُزقتُ فتى سأجني | عليه بتركهِ بين الطغام
حَنانَك، علّه يغدو مليكاً | يَتيهُ على الجبابرة العظام
فَتاكَ دعامةٌ لك كيف تبن | خلودَك في الحياة بلا دعام؟
جَنيتَ عليه حين سرَى لهيفاً | بقبرك يشتكي حجب الظلام
قضيْتَ العَمر في شكّ ممض | تُفتشُ عن مصيرك في الرجام
تعز عليك رُوحك حين تمضي | فتسألُ هل تؤول إلى انعدام
شكوكٌ حَيَّرتْك فرُحت تَصْلي | بها ناراً مؤججة الضرام
فليتكَ قدْ أرحتَ النّفس منها | بِلا رهق لترقد في النيام

* * *

ذَممتَ الخُمر ثمّ غرستَ كرماً   مَددتَ ظلاله من ألف عام
فهذا شعرُك الجذّاب يُتلى   فيفعلُ بالنهى فعل المدام
علامَ قد التزمتَ به قيوداً   ألَمْ تكُ في غنًى عن الالتزام
تُحاول أن تَفوق الناس فكراً   وتلك منازع الرجل الهمام

* * *

رَهين المحبسينْ وَددتُ أني   بلَغتُ بمدحتي حدّ التمام
ولكني خَتمتُ القول عَجْزاً   فما أدنى ابتدائي من ختامي

* * *

وقد نالَت القصيدة الجائزة الثانية من ثلاثِ جوائز! ولم أكن أتوقع لها هذا التوفيق، ولكنّها أكدّت ثِقتي بنفسي، وجعلْتني أخوض غمار المسابقات التالية غير هيّاب!

فقد أقامت وزارة التربية والتعليم عدة مسابقات لتشجيع البحث الأدبي، والمقال والقصة، والمسرحية لعدة سنوات، وكنت أطالعُ أسماءَ الفائزين في كلّ موسم فأجد أكثرهم من غير المشهورين، والمبلغ الموجود للجائزة يدفع إلى المجازفة، وفي سنة ١٩٥٨، وكنتُ مدرساً بالمنصورة الثانوية، رأيتُ أن أسهم في هذا المجال، واخترتُ المَسرح الشعري ميداناً لإبداعي، وكنتُ مُعجباً بكثيرٍ من مواقف عمر بن الخطاب فاخترتُ موقفه الصارم مع جبلة بن الأيهم الملك الغسّاني، حين رفض القصاص لأعرابي من فزارة لطَمه على خده، وأصرّ الفاروق على حكم الإسلام، دُون مجالٍ للمساومة، وخافَ جبلةُ العاقبةَ، فهربَ ليلاً مع حاشيته ولحقَ ببلاد الروم مُرتداً عن الإسلام! والحادثةُ ذائعةٌ مشتهرة، ولكنّها بمَغْزاهَا الإنساني

وَدَلالتها الواضحة على أنّه لا فَضلَ لعربي على أعجمي أو غير أعجمي إلا بتقوى الله، تَحتاجُ إلى فنّانٍ يُبرز معانيها العالية، ويجعلها مثلاً لما يُريده الإسلام من العدالة والإخاء والمساواة، وقد وفقني الله فكتَبتُ المسرحيّة، وكانَ لها حظّ النجاح، قدّمها أستاذي الكبير الشيخ أحمد شفيع حين طَبَعتُها بكلمة قال فيها:

«كانَ عجباً أن تظلَّ هذه القصة الفذة في مكانها من كُتب التاريخ دُونَ أن يتناولها أديب مَوهوب يكشفُ عن مراميها العميقة في دنيا التشريع، حتّى هيأ الله لها الأستاذ محمد رجب البيومي، فعاشَ في جوّها، وحلّق في أفقها، ثم استبطن سرائرها في عُمق وإيمان، واستعانَ بشاعريته فَجعل منها مسرحية بارعة تجيشُ بالحركة، وتنبض بالحياة، وقدّمها للقارئ ثمرةً دانية القطوف ناضرة الرواء» وقد كتب عنها الزميل الدكتور المتولي البساطي تحليلاً بارعاً أشكره عليه وأحيلَ إلى موضعه في كتابه عن الشعراء المعاصرين.

كما قالت عنها مجلة الهلال في العدد الصّادر في أول يونيو سنة ١٩٥٩ «مسرحيةٌ شعرية نالت جائزة وزارة التربية والتعليم لسنة ١٩٥٨م وتَقعُ حوادثها في صدر الإسلام، ويدُور محورها حول مبدأ المساواة في الدين الإسلامي وأنّ السن بالسن، والعَين بالعين، وأنْ لا فضل لعربي على أعجمي، فالكلّ سواء أمام عدالة الدين الإسلامي، وقصّة ملك غسان معروفةٌ مذكورة في كتب التاريخ، ولكنّ أحداً من الأدباء لم يتناولْها، ويضعها في قالب قصصي، ويُبرز ما تتضّمنه من المعاني العميقة الدقيقة حتى تلقّفها الأستاذ محمد رجب البيومي وصاغَها في قالبٍ قصصيّ بديع ونَظَمها شعراً سلساً جزلاً، فظهرتْ جديرة بالاطلاع والاقتناء، وتقع في ١٣٤ صفحة من القطع الصغير، وتُطلب من المؤلف».

كانَ فوزُ المسرحية بالجائزة دافعاً في أن أَشْغَل نفسي بالشعر المسرحي، وكان المجلس الأعلى للفنون والآداب قد رصد ما سمّاه جائزة «شوقي للشعر» وجعلَها سنوية، وتقدّم لهَا من حازوها بجدارة، فرأيت أن أنظم مسرحية تَتَحدث عن معركة المنصورة التي هزم فيها لويس التاسع ووَقع أسيراً في قبضة المسلمين، وسُجن في دار ابن لقمان بالمنصورة، وقلت في تقديمها:

«لم أكتُب حرفاً واحداً من أبيات هذه المسرحية المتواضعة دُون اطلاعٍ جاهد على ما وقع في يدي مما كتبه مؤرخو هذه المعركة الخالدة الّتي نستعرض وقائعها، من شرّقيين وغربيّين، قدماء ومحدثين، وقد وقفت كثيراً أمامَ مَا كنت أشهدُه من اضطرابٍ متناقض بين الروايات المختلفة، كما اسْتطعتُ أن أكشفَ أقْنعةً زائفة نَسجها الهوى المغرض فبدت كأنها وقائعٌ مصدَّقة لدى الأوربيين، حتى إذا ألممتُ بخلاصةٍ أمينة من الحقائق الخالصة، أخذتُ أنسجُ خيوط هذه المسرحية، دُون أن أتركَ لخيالي الشاعر، وريشة المصوّر أن يجورَا على حق، أو يتحيّفا جانباً من الجوانب الصادقة في سجل التاريخ الأمين».

وقد جعلتُ بطل القصّة (العز بن عبد السلام) حيث جمّع الشعب بعلمائه وأبطاله إلى ساحة المعركة تحت راية الإسلام فحقّق نصراً إسلامياً، حين جعلَ يقرأ سور الجهاد في ساحة المعركة ليذكّر المحاربين بأبطال بدر والخندق وفتح مكة، وقد وفّقَ الله ففازت المسرحية بجائزة، شوقي سنة ١٩٦١ وتحدثَت عنها المجلات الأدبية ناقدةً محلّلة، وأذكرُ أن صديقي الراحل الكريم الأستاذ إبراهيم الترزي قد كَتَب عنها فصّلاً نقدّياً يعرض الحسنات والمآخذ في مجلة (المجلة) التي كانت تُصدرها وزارة الثقافة في

هذا الحين، وقد رَدَدتُ عليه في العدد التالي بما وضحت به وجهة نظري فيما ارتآه، وقد بحثتُ عن العدد لأنقُل منه ما يُشير إلى نقد الصديق العزيز ولكنْ لم أعثر عليه، ولو كنتُ أعيش في القاهرة لأجهدتُ نفسي في طلبه، حيث توجد مجموعة المجلّة في مكتبه (دار الكتب) ولمن أراد أن يُلمّ بما دار أن يبحث عن مجلد سنة ١٩٦١ ليجد ما يريد.

أصبحتُ في هذه الفترة مشغولاً بالفن المسرحي متطلّعاً إلى جوائز الدولة الخاصة به، وقد وفقني الله فأعلن مجمع اللغة العربية سنة ١٩٦٣ عنْ جائزة أدبيّة في الفن المسرحي، فتقدمتُ بمسرحية تحت عنوان (فوق الأبوة) مُصوّراً شجَاعة نجْلٍ كريم وقَفَ أمام أبيه الخائن حينَ تعاونَ مع الصليبين ضد المسلمين، والقصّةُ مشهورة كتبها نثراً الأستاذ الكبير علي أحمد باكثير، فوّجهني إلى هذا الموقف وقد جعلتُ إهداء المسرحية إليه مسجلاً فضله في اتجاهي إلى هذا الموقف، وباكثيرُ أستاذ الجيل الذي عاصرتُه، وكمْ له من أيادٍ رائعة في التوجيه الإسلامي الأثير، وإذا كنتُ لا أستطيع الحديث عن قصّة نالت جائزة مجمع اللغة العربية الأولى سنة ١٩٦٣، وتحدث عنها الدكتور محمد مهدي علام في حفلة التكريم الخاصة بالجائزة وقد نشر بالعدد التاسع عشر من مجلة المجمع، فإني أسير إلى بحث مستفيض كتبه صديقي الأستاذ الدكتور إبراهيم عوضين عن المسرحية ونشره بمجلة الثقافة (ديسمبر سنة ١٩٨٢) وقد قال له فيه «والحدثُ الذي تقدّمه المسرحية يمثّل الصراع بين القوى الخائنة التي استبدت بها المصالحُ الفردية، فشغلتها عن المصالح الوطنية، ولم تَجد مانعاً مِن بيع البلاد للمعتدي الصليبي، حفاظاً على منصب مُشوه، وكرسيّ مهتز مضطرب، وبيْن القوى الوطنية المخلصة التي قَامت في وجه أطماع هؤلاء الحكّام

ونَزواتهم لتخلّص البلاد من شرهم، وما يجلبونه من عار الخيانة والهزيمة».

وبَعد تحليل نقدي استغرق عدة صفحات من مجلة الثقافة، قال الناقد الدكتور إبراهيم عوضين في ختام حديثه:

أقدّم هذه المسرحية إلى من يَزعم خلو الميدان من مسرحيات إسلامية، وإلى لقاءٍ آخر مع مسرحية أخرى للشاعر نفسه، ولن يزيَد من قدر المسرحية أن نذكر أنها نالت الجائزة الأولى لمجمع اللغة العربية عن المسرحية الأدبية سنة ١٩٦٣م.

وفي العام التالي مباشرة (سنة ١٩٦٤) أعلنَ مجمع اللغة العربية عن جائزة تقدم لأحسن ثلاثة دواوين شعرية تحوز رِضَا لجنة التحكيم بالمجمع، وكنت فرغت من إعداد ديوان شعريّ سميته (صدى الأيام) فلم أتكلّفْ غير نسخه على الآلة الكاتبة، وتقديمه للمسابقة الشعرية بالمجمع، وقد فازَ الديوان بالجائزة الثانية وقدّمه الدكتور مهدي علاّم في حفلة تكريم الثلاثة الفائزين ممهّداً بحديث عن سيرتي الذاتية، ثم قال عن ديوان (صدى الأيام) إنه يجمع أكثر من سبْعين قصيدة تمثّل انطباعات الشاعر بأحداث الحياة وما شاهدَه فيها، وقرأه عنها، وقد استبعدت اللجنة إحدى قصائده، وهذا الشاعر يكتبُ عن صلاح الدين، وإقبال، وتاج محل كما يكتبُ عن القطّ الأعمى، والأسد الباكي وحشرة الصيف، ويحلّق بشعره في أجواء العواطف ومجالات الفكر، فيكتبُ كذلك عن الشرفة الخالية، وهواجس الليل، ولعنة الحب، والصديق النازح، واسمها الحلو، وشمس الشتاء وقد نشرت كلمة الدكتور مهدي بالعدد العشرين من مجلة المجمع.

كما أذكر أن صديقي الناقد الأديب الدكتور طه أبو كريشة قد كتب

كلمة تحليليّة عن الديوان نشرها بمجلة الأزهر (شعبان ١٤٠٣هـ) قال في مقدمتها:

«وأيام الشاعر تنوّعت فيها المشاعر، واختلفت الأحاسيس، ولكنْ مع هذا فإن الوجدان الصادق يجمعها في إطار واحد، إذ هو المتلقي الوحيد منها، وهو نفسه الذي يصوغ ما تلقّاه من كلمات يشدُو بها اللسان، ويسطرها البنان مخطوطة من ذوب الفؤاد».

كما كتبَ عنه كثير من الفضلاء أذكر منهم الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدسوقي والدكتور عبد الفتاح الديدي والشاعرة الفاضلة جليلة رضا، والأستاذ أحمد مصطفى حافظ، والأستاذ عبد الغني ناجي! وهم ذوو فضل عميم... ولعلّي قد نسيت فريقاً آخر، ولي العذر فالذاكرة هي الذاكرة!

ثم في العام الثالث (سنة ١٩٦٥) أعلنَ المجمع عن جائزةٍ تُقدّم لأحسن بحث يدور حول (الأدب الأندلسي أو الأدب المغربي) وقد دَفعني نجاحي في العامين السابقيْن أنْ أتقدّم إلى المجمع ببحث عنوانه (الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير)، وقد نالَ الجائزة الأولى، وألّقى عنه الدكتور مهدي علام كلمة ضافية في حفلة التكريم قال فيها:

بعد كلمةٍ رقيقة عن سيرتي ومؤلفاتي وما أحرزتهُ من الفوز فيما قبل، وقد نشرت بالعدد الحادي والعشرين من مجلة المجمع ص ٢٠٢ وما بعدها.

«ومما يُذكر للباحث شجاعتُه في مناقشة آراء السابقين والمعاصرين وهي شجاعةٌ محمودة... كشفتْ عن سعة اطلاع، وثقةٍ بالنفس، كما كشفتْ عن بعض الحقائق التي ندت عن سابقيه ولا شكّ أنه سيُسلّم لمن

يقرأ بحثه أن يُسلط عليه من الأضواء، مثلما سلّط هو على كتابات من سبقه، لقد تبنّى الباحث موضوعاً شاقًّا تبناه وأحبّه وعطف عليه، ولكنه لم يتعصب له إلاّ قليلاً، لقد بحثَ عن المجد العربي في الأندلس وأشادَ به وبأثره في المشرق العربي وفي المغرب الأوروبي، ولكنّه حين بدَا لَه أن السبق لم يكن للأندلس في بعض الفروع لم يتردّد في إعلان ذلك، كما فَعل في موضوع الموشحات، وفي موضوع رثاء المدن، فقد خاضَ في هذين الموضوعين معركَتين أصابَ فيهما نصراً. وأصابته منهما بعض الجراح، وقد كان في هذا ككلّ جندي باسل مقدام يتقدّم إلى هدفه محتملاً كلَّ ما يقابله من الصعاب، لقد تحدث الباحث عن أثر الأزجال والموشحات في شعراء التروبادور، وعنْ دور الأندلس في نمو القصّة الغربية، وعنْ أثر الحب العذري في الأدب الغربي، واختصّ بعضَ نوابغ الأندلسيين بدراسة مستفيضة، كصاحب طوق الحمامة، وصاحب حي بن يقظان، وابنْ رشد وما أحدثَتْه كتبُه من يقظة فكرية في أوروبا، كذلك ناقش في أسلوبٍ علميّ تأثير ابن شهيد في أبي العلاء وأثر ابن خلدون في الأدب المعاصر».

هذا بعض ما قاله الدكتور مهدي، وكلمتُه استغرقت حيّزاً كبيراً من صفحات المجلة من ص ٢٠٣ إلى ص ٢٠٨ من القطع الكبير فلا سبيلَ إلى استيعابها، وأذكرُ أنّ صديقي المستشرق المجري الكبير عبد الكريم جرمانوس قد بعث إليّ بكتاب يُعلن فيه ارتياحه إلى ما رأيتُه من سبق ابن شهيد وتأثيره في أبي العلاء، وأنّي بذلك قد حسمتُ الرأي في قضية طال الجدل بها، وقد نشرت كتابه الكريم في أحد أعداد مجلة الأديب اللبنانية مع ردّي عليه شاكراً.

أما المسابقةُ الرابعة في مجمع اللغة العربية فقد تَلَتْ هذا العام سنة ١٩٦٦ حيث قرر المجمع دراسة (السيد محمد توفيق البكري، حياته وأدبه) والموضوعُ شاقّ إذ لـمْ يكتب عن الرجل الكبير ما يُشفي الغلّة، ولكني تتبعتُ مؤلّفاته وبخاصة بيت الصديق، وأراجيز العرب، وفحول البلاغة، وصهاريج اللؤلؤ تتبّعاً وافياً، وأهمها صهاريج اللؤلؤ لأنّه جمع الخلاصة من شعره ونثره الأدبيّ كما تتبعتُ شذوراً مما كتبه عنه معاصروه ومن تلاهم، وهي على قلّتها كانت تُكأةً لما اتجهت إليه في فصول الكتاب، وقد قلتُ في مقدمة البحث «وأما عن حياة الرجل فقد قرأت ما كُتب عنه، وما كتب عن نفسه، فراعَني أن أجدني مضطراً إلى مخالفته في أكثر مما صدر عنَه من قول أو فعل، وكانَ ذلك مُفاجأةً شديداً وقعها علي، فقد بدأتُ البحث حريصاً على إرضاء روحه، وتخليد ذكره، مدَفوعاً بتأثري الشديد لمحنته العقلية، ولكن البحث المنصف قد اضطّرني إلى مخالفته كثيراً، حتى كدتُ أضع القلم بين الفينة والفينة لأسألَ نفسي هل قسوت على الرجل حقاً، ولكنّي أرجع إلى المقدمات فأجد النتائج تفضي إلى مؤاخذته، على أنّي لم أعدم من المبررات ما يجعلني أقدر ظروف حياته، وأقع باللوم على غيره ممّن أسرفوا في الرياء معه، فلم يُخلصوا له النصيحة، بل عُرفوا مكامِن أهوائه ليدَفعوه إلى ما نغّص حياته وأزالَ استقرارَه الآمن فمكثَ نهب الهواجس والظنون حتّى أسلمه ذلك إلى مِحنة قاسية، طال ليلها وأذلَهمّ».

وقد كانَ من نصيب هذا البحث أن يأخذ الجائزة الثانية لا الأولى التي حُجبت لأسباب رآها المحكّمون، وقد ألَقى الدكتور مهدي علاّم كلمة عن البحثين الفائزين، كعادته إذ هو مقرر اللجنة الأدبيّة، وكنت أوّد الاستشهاد ببعض ما قال، اعتزازاً برأيه، وتقديراً لمكانته، ولكن العدد الثاني والعشرين

لم أهتد إليه، وأرسلتُ إلى المجمع راغباً في شرائه فلم يردّ عليّ!

وقد وَقف مني المجمع بعد ذلك موقفاً لم أكن أتنظره، إذ اعترضَ الأستاذ زكي المهندس على توالي النّجاح المستمر، في أربع مسابقات، وقالَ إنّي أَسُدُّ الطريق على غيري، ورأى ألاّ يجوز لمتسابق أن يُكرر التسابق إلا بعدَ مرور خمس سنوات على منحه الجائزة، ووافق المجمع على ذلك، فأسِفتُ كثيراً، لأنّ موضوع المسابقة التالية كان عن مجلة الرسالة وأثرها في الأدب المعاصر، وأنَا تلميذُ الرسالة، وتلميذ الزيات فما لديّ من الحقائق الأدبية من هذه المجلّة كان سَيرفدني بخير كثير، وقد قابلني الأستاذ الزيات متأثراً، وقال لي: ماذا أصْنع؟ والرأي للأغلبية، منهم لله!

وأذكر أني نشرت بعض فصول البحث في مجلة الأديب سنة ٦٦، ٦٧، وفوجئت بمدرس في جامعة عربيّة يسطو عليها، مُدعيًا بعد افتضاحه أنه نشر هذه البحوث في مذكرات على الآلة الكاتبة منذ أعوام، وأنّي أنا السارِق، ولكن الحق قد ساعدَ على فضيحته إذ بَيْن ما نَشَرَه كلامٌ يخص أستاذي أحمد شفيع السيد الأستاذ بكلية اللغة العربية، وقد نقلتُه عنه، فكيفَ نقل عن الأستاذ وهو لم يرَ القاهرة، ولم يَعرف الأستاذ؟ لقد كان في طوقي أن أرفع الأمر إلى جامعته، ولكنّي فوجئت بوفاته، فانتهت القضيّة! وهنا أعلن أسفي لتردّي بعض أهل العلم في وهَدان خلقيّة لم يكنْ من المنتظر أن ينْحدروا إليها وقد جاءت الأيام بأفْظَع من هذه المثلات، وإلى الله الشكوى!

مرّت السنوات الخمس، فأتيح لي أن أتقدّم لمسابقات المجمع، وقد

أُعلن أن موضوع المسابقة خاص بالتفرقة العنصرية، فصمّمت على أن أقتحم العقبة، وألّفتُ مسرحية تحت عنوان (بأي ذنب) تحدّث عن مأساة الشاعر الأسود نصيب الأموي، وكيف كان سواده عائقاً عن بلوغ أمانيه شاعراً وعاشقاً! وكنت قد قرأتُ مسرحية شوقي عن عنترة العبسي وهي تُعالج الموضوع نفسه، فاهتديتُ ببعض إشاراته، ولكنْ مع الاستقلال التام في الأفكار ورسم الشخصيات، وقد ساعَد على هذ الاستقلال اختلافُ البيئة والدين ومزاجي العاشقين فعنترة متوثّب جموح. ونصيب مستكن متطامن، وقد تقدّمت بها إلى المجمع، فنالت الجائزة الثانية، وكانَ المتسابقون معي من أفذاذ الأدباء، فعرفَ لهم المجمع مكانهم الكريم، ومِن بعده. لم أتقدم إلى مسابقة ما، لأنّ ظروف اشتغالي ببحوث الجامعة العلمية قد حالت دون الانطلاق في أوج الفن الفسيح!

أنا والطبيعة

كانَ مَشهدا الشّروق في الصباح والغُروب في المساء مَوْضعي الإعجاب والعجب من نفسي إذْ جبلت على الافتتان الجاذب بهما افتناناً لا ينقصه تجدّدهما الدائم بتجدد الأيام حتى لكأنّي أرَى في كل مشهدٍ منهما شيئاً جديداً لم تألفْه العين من قبل، ولو نَفدتِ السعادةُ يوماً لاعتيادِ تكرارها، ما استحقّ أحد البقاء في دنيا تذهب مسراتها إلى غيْر ما عَود، ولكن الله عزّ وجلّ جَعَل في التكرار مسَرة دائمة ليَزيد الأُنس بالوجود فلا يصبح مدعاة للجلال.

أجْل كانَ مشهدُ الصّباح حبيباً إليّ في الريف الهادئ، في قُرى الدقهلية ذات النضرة الزاهية والأفق الصّافي الوديع، فكنتُ أخطُو بيْن مماشي الحقول، وتحت الغُصون المتراقصة بين أيدي النسيم، وقد امتدّت على الترع الدافقة بمائها الرقراق، فأرَى حبّات النّدى تعلق بالأوراق صافية شفافة، وكأنّها لانسجامها المتناسق تنتظم في سلوكٍ سحرية غير منْظورة فإذا تحركتِ الغصون قليلاً قليلاً، بمداعبات النسيم الفاتر أخذَ الصغير يتطاير رقيقاً رقيقاً، وكأنّه يشفّ عن الهباء دون أن يَتساقط، أمّا مشهد الأشّعة المشُوبة بالاخضرار، وقد انبثَقت من الأفق البعيد لتحضّن الشجر الممتد،

فمما يدهشُ الواصف لأنّ أثره الحقيقي لا يكتب على الورق في اكتمال، بل إنّ اليراع ليُحاول أن ينقل منه هيكلاً إذا استقامَ به الجرْام، عرضاً وطولاً فقد فاته نبض الدّم الفائر، واتساقُ اللحم الموزّد فوق العظام! فبالله ماذا يستطيع هيكلٌ عظميّ في صِوان زجاجي أن يُوحي به من معاني الروعة والجمال؟!

هذا في القرية، أما مشهدُ الصباح في المدينة فقْد أضافَ إلى جمال النبات جمالَ الإنسان، إذ كانَ أجملَ ما يأخذ العين منه ساعةَ انطلقُ إلى معهدي مبكراً في الشارع الحافل الممتد وقد خَرجت فتياتُ المدينة في أنضرِ حُلَلِهنّ الزاهية إلى ما يقصدن من كلية أو موضع عمل، ولهنّ في إشراق الطلعة وطلاقة الحركة وخفّة السّير ما يوحي بالبهجة المنعشة والجذل الطروب، ولا أنسى ـ ذات صباح ـ أن رذاذاً من المطر قد أخذَ يتساقط قليلاً قليلاً، فكان لمشهده فوق الرؤوس الجميلة ما لمشهد النّدى فوق أكمام الزهر، وقد تَتابع الرذاذ فوق آنسة رشيقة منهن، فجعلت تحرّك عُنقها في خفة، لتَنفض الجمان عن شعرها، وقد زانَتْه أكثر مما زانها، ولا شيء أجمل من تموّج الضياء في ابتسامها الرقيق ساعتئذ، وقد اتّسقت أسنانُها اللؤلؤية مَع حبّات القطر المتناسق، ثم شعّ وجهها ببريقٍ ضاعَفَهُ تألق العين وعذوبة الابتسام، فما أبصرتُ إلاّ هالة من النور تسير، بل تطير.

أما مشهدُ الغروب فأجملُ ما يفتُنني منه ساعةَ أشهدُ جوار نهرٍ صافٍ أو بحر ممتد، لأنّ الشفق الضارب فوق الأفق يجد انعكاسه الأرجواني فوق صفحة المياه، فتعجبُ للجناس المطبوع بين السماء والأرض، وتظل مأخوذاً برُؤية الماء المتكسر، وقد صَبغه الوردُ صبغة نقلتْ معنى الروض إلى الماء أما قرصُ الشمس فحمماً يبعث الشّجى حين يتوهج قبيل الغروب دامياً

وكأنه قلبَ أثخنته الجراح، بل كأن الشمس عانَتْ من نكد اليوم الطويل، ما فجرّ وجهها بالدم الحبيب، وإذا كانَ الحريق يتوهّج في قُرصها الساخن، فإن انحداره إلى المغيب في لجّة البحر هو في رأيي إطفاءٌ لِما تكابد من لوعة، وهيهات أن يطفئ الماء قلباً ذا غليل.

أذكر أني قرأت عدة روايات عاطفية،أصرّ كاتبوها ـ على اختلافِ مشاربهم ولغاتهم وأقطارهم ـ على أن يكون مشهدُ غروب الشمس هو ساعة افتراق الحبيبين وكأن المؤلف منهم قد عَجز أن يتمّ ما يشعر به من لواعج البعد، فرأى أن يكون احتجاب ملكة السماء عند غروبها رمزاً قويّ الدلالة لما يعقب الفراق من وحشة قاتمة، هي وحشة الليل الدامي بظلامه الكئيب، ولعلّ العاشق ينسى نَفسه لحظةً ليتأمّل حسناء الأفق وقد تركتْ عرشها كما تركتْ حبيبته يَدَهُ الحانية لتغرب في سفر بعيد.

لقد كانَ مشهد الغروب والشروق وحدَهما مجال التّنظّر والارتقاب لديّ في الزمن الممتد بين الصباح والمساء، وانقضَى زمن مديد دون أن أجد لهما ثالثاً يُقاسمهما الروعة والعجب حتّى وقع ما لم أكن أتوقع، خرجتُ في الظهيرة الكاوية من عملي الرتيب، مكدودَ الذهن مرهق الأعصاب، أكادُ أجرّ ساقيّ جراً على الغبراء المشتوية بالهجير، وقد تحملّت ذلك في صبر جاهد، لأثبت لنفسي أنني صحيح غير مريض وأن السّن التي تمنع الإنسان أن يُجابه الوهج الواقد لم تَحن بعد، وكانَ من المعهود أن أمر من الطريق على منزلٍ أحملُ لصاحبته من شريف العاطفة، وطاهر الحنين ما أُبالغ في كتمانه حتى عن نفسي، إذ لاَ أُبيح لخواطري الصامتة أن تسْتطرد في أمنيات حلوة، تتّصل بها، وكأنّها أجّل قدراً من أن تتعلّق بها أمنية مكتومة لا سبيل إلى البوح بها فضلاً عن تحقيقها، وإذَا استعذبَ بعض

الناس أمنياته الحبيسة، فأنا وحدي استشعر لهذه الأمنية مرارةً في الحلق لا يزيلها موج البحر! مررتُ على المنزل الأثير، دون أن أرفع رأسي إلى شرفته، وإنّ عَرَق الظهيرة ليغَسل وجهي، ويكادُ يعصر حلقي، فسمعتُ طرْقتيْن مُتواليتين خيّل إلي واهماً أنّي أنا المقصود بهما، وكانَ لهما على خُفوتهما الهادئ بسمعي جلجلة وبصدري زلزلة، فتطلعتُ أنظر عالياً، لأجدَ ذاتَ الذراعيْن الفضّيتين الشفيفتين تضرب بهمَا على وسادةٍ حريريّة منقوشة بأبهج الوشي، فخُيل إلي أن هاتيْن الذراعين جَدْولاَن يترقرقان حرّ الظهيرة! وهل كانت الوسادة بصورها الزاهية غير روضٍ بهيج؟ وتابعتُ النظر لأرى ابتسامة صافية، لتشع في وجهٍ أبيض مُتناسق، عهدي به في غير هذا الوقت كالبدر وضاءة، ولكن وهج الشمس أحالَه إلى كُم من الزهر يتوّهج بنورٍ ونار معاً، أما العينين فمنقُذان ساطعان من أصفى منافذ الضوء، وقد انحسَر ثَوبُها عن نحْر ساطع لا تقوى غُلالتها الشفيفة على كتمانِ محاسنه! نظرتُ مأخوذاً وأطرقتُ سريعاً فلم أستطع أن أُوالي النظرة وواليت السير في اضطراب وأنا أعجب لساقَيّ كيف استطاعَتا أن تحملاني، لأنّ كياني الداخلي قد تَهاوى، وطال عجبي حين أدركتني رحمة الله فلم أسقط على الأرض!

بعدتُ عن المكان وبعدتْ صورته عن عيني دُون أن تبتعد عن خاطري، لأن إرتسامها القوي قد ملأ أنحاء نفسي، وأنا أعي كل ملمح من ملامحها، وأدرك كل ضئيل حتى رجْفة الثوب ورعشة العذار وعلى امتلاءِ خاطري بها كَمْ وددت أن يتكرر المشهد ثانية لأملأ عيني بها، فليتها كانت كطلعةِ الصّباح، مما يكرر كل يوم، ولكنّ السعادة العظمى تتأبى على التكرار، لأنّها كالمعجزة الخارقة لاَ تقع إلا لنّبي يأتي على حقب شاسعة

من الأعوام، أفَلا يمدنا العلم الحديث بآلة تُسَجل ما نحبّ من المشاهد لا تسجيلاً شمسيًا كآلة التصوير، بل تسجيلاً يبرز ما كان كما كان، كما يَستعيدُ الرياضيون في الملعب ضَربةَ كُرة حُسبت هدفاً، ورَاقَ الحاضرُ أن يستطلعوها من جديد، أتكونُ ضربة الكرة أعظم منزلة من وقفةٍ ساحرة للجمال، تنقُل الشعور الإنساني من حال إلى حال، أكادُ أُجزم أن حرّ الظهيرة قد تبدّد فجأة حين ضربت الحسناء بذراعيها الشفيفتين، وكأنّ المناخ الجوّي، قد تأثرّ بهما في قوة، فأصبح غير الذي كان.

ألفَ الناس أن يلُوذوا بالمراوح الكهربية، وأدوات التبريد الهوائي حين يشتد الحر، وسُدًى ما يفعلون، فإنّ هذه الآلات الصناعية لا تخفف غيرَ الظاهر البارز من محيط المكان، وتَعجزُ أن تتغلغل إلى دَفين النفس لتُطفئ ما بها من لهيب، وما يقدرُ على ذلك كلّه غير نظرة حانية من ذاتِ قدر رفيع، نظرةٍ حانية في هجير الظهيرة، تنادي بالنسيم فيهب، وبالماء فيترقرق، وبالعطر فيفوح، وبالنفس الثائرة فتسكن وتستريح، فقلْ لأدوات التبريد الكهربائية رويدك، لقد فَاتَكِ الكثير.

.. ربّــاه!

لقد أنعمت عليّ كثيراً بتعدد مشاهد الشروق والغروب كلّ يوم، أفلا أبسط ذراعي إلى عرشك الأعلى في ملكك الأقدس راجياً أن تُنعم علي مرة ثانية بمشهد هذه الظهيرة الرائعة، حيثُ وافى على غير انتظار، ثم مضى سريعاً ليبقى أثرُه بنفسي مديداً مستطيلاً، وليغمرني بتفاؤل سعيد، لا عهدَ لي به، حين أقول راضياً لقد كانَ ثم قضى، وأنقادُ للوهم فأصبر متفائلاً: وماذا يمنَعُ أن يكون!؟

الأعظم تأثيراً

كلّ إنسان يتطلعُ إلى المعرفة، لا بدّ أنّه يقرأُ ما يقع تحت يده من آثارِ الكبار من معاصرين ومن الخطأ أن يُنسب توجُّههُ الفكري إلى أستاذ بعينه في زمن مليءٍ بالأفذاذ، لقد كنّا نطالع آثارَ عباس محمود العقاد وإبراهيم المازني وطه حسين ومحمد حسين هيكل ومحمد فريد وجدي ومصطفى صادق الرافعي وزكي مبارك وغيرهم من المشاهير، فكان من تأثيرهم الفكري في عقلي ما لا يُجحد، وقد أتكلّم في موضوع ما، فأتذكر أن مفكّراً كالعقاد قد عالجه منذ خمسة وثلاثين عاماً فأرجعُ إليه، وإذُن فمحاولة اختصاص فرد أو فردين بالتأثير في شخصية إنسان ليست بميزان صحيح.

ولكنّ هناك من الأفذاذ من تَجاوبَتْ رُوح القارئ معهم بنوع خاص فاختلّوا مكانة طيبة من نفسه، واستشعر نحوهم بمَيْل خاص يدفعُه إلى معاودة قراءتهم ومحاولة احتذائهم، فكانُوا أكثر من غيرهم تأثيراً، وأكبر إيحاء، ومن هؤلاء لديّ الأساتذة محمد فريد وجدي وعبد الرحمن شكري وخليل مطران.

أما محمد فريد وجدي فقد جذَبني إليه أسلوبُه الكتابي فيما يعالجه من

المقالات الدّينيّة بالذت، حيث رأس تحرير مجلة الأزهر أثناء تلمذتي بالأزهر، ولما كنتُ دائم الاطلاع عليها بحيثُ لم يَفُتني عدد واحد، فقد كنتُ أرَى الرجل نمطاً وحده بين كتّاب المقال الديني إذ كانَت ثقافتُه الواسعة تُوحي بكثيرٍ من الأفكار الجديدة التي لا تجدِها عند سواه فقد تقرأ في المجلة مقالَيْن في موضوع واحد، أحدُهما للأستاذ فريد وجدي وثانيهما لعالِم من كبار العلماء فتلمسُ لدى وجدي أنواراً ساطعة لا تَجد مثيلها عند سواه، ولستُ بذلك أقلّل من آثارِ هؤلاء الأفاضل، ولكنّي أعبّر عن شعورٍ صادق يتلَبّسني حين أنعم بقراءة مقالاته ولَعَلّي أستعينُ بما قال عنه الأستاذ العقاد حين كتب خواطره نحوه، إذ قال: «لقد عَرفنا في عصره طائفةً غير قليلة من حَملة الأقلام، ورجالِ الحياة العامّة، فلمْ نعرف أحداً منهم يُماثله في طابعَهِ الذي تفرّد به في حياته العامة والخاصة، وفي خُلُقه وتفكيره، وفي معيشته اليوميّة، وفي معيشته الروحية، وأَوْجَز ما يقال عنه في هذه الحالات جميعاً أنّه لم يخلق في عَصره مَن يَتقاربُ المثل الأعلى والواقع المنشود في سِيرته كما يتقاربان في سيرة هذا الرجل، فهو الفريد حتّى في لغة الجناس لأنّ اسمه فريد، والفريد في عُزلته لأنه كان في عُزلةِ النّساك والرهبان عليماً غاية العلم بالتحليل والتحريم».

وقد رَاعَني أن يظلّ عشرين عاماً رئيساً لتحرير مجلة الأزهر الّتي تصدر شهرياً ويكتبُ في العدد الواحد ثلاثَ مقالات أو أكثر، ثم لا تُجمع هذه المقالات الرائعة في كُتُب مستقلة تكونُ مصدر إشعاع للقارئ المعاصر الذي لم يُدرك مجلة الأزهر في عهده، فأخَذْتُ على عاتقي أن أجمع من هذه المقالات ما يَنْدرج في مجموعات ذات اتجاه مشترك، وأنْ أقدّمها للقارئ مشفوعة ببحوثٍ تحليلية، قد يتجاوزُ البحث منها أكثر من عشرين صفحة

لتلقي الضوء على اتجاهاتها وقد يسّر الله فأخرجت منْ هذه المقالات هذه الكتب :

١) مُهمة الدين الإسلامي في العالم: نشرته جماعة الدعوة الدينيّة بالأزهر في ٣٢١ ص.

٢) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة: نشرته المؤسسة المصرية اللبنانية في ٣٢٤ ص.

٣) من معالم الإسلام: نشرته المؤسسة المصرية اللبنانية في ٣٣٦ ص.

٤) مناقشات وردود: نشرته المؤسسة المصرية اللبنانية في ٤٠٢ ص.

٥) فصول من سيرة الرسول: نشرته المؤسسة المصرية اللبنانية في ٣٧٣ ص.

ولا زال لديّ مجموعةٌ أخرى أحاول نَشرها، ولو وَجدتُ الطّابع السريع، لاتّسع مجال النشر إلى أبعد نطاق، وقد كنتُ مع إعجابي الخالص بمثاليّة هذا الرجل إنساناً وعالماً أتهيّب أن أخصّه بمؤلف يكشف سيرته الوضيئة، لأنّ ما في نفسي عنه أكبر من أن ينحصر في أوراقٍ فجعلت أنشر عنه مقالات في الصحف والمجلات في ذكراه العاطرة وقد قرأها الأستاذ محمد علي دولة القائم على دار القلم ببيروت ودمشق فاقترح عليّ أنْ أسارع بكتابٍ شامل يُعرّف به، إذ تهيّأ لي كثيرٌ من المواد، بحيث لا تبقى غير الصياغة، ففكرتُ في اقتراح الأستاذ ثم رأيتُ أن أبذلَ ما أستطيع بعيداً عن التهيّب السابق، فتمّ الكتاب على وجهٍ أراه مقبولاً على رغم ما ألحظه من مآخذ العجلة، وإذا لم أبلغ المدى المنشود، فقد يأتي من يصلُ بالخطوات إلى مداها الرحيب ولعلّ أهم شيء أثر في نفسي من سلوك

الأستاذ وجدي هو نظافةُ قلمه في حواره الديني، فقد خاضَ معارك كثيرة يتحلَّى أثرها في كُتب مُستقِلّة، وفي الكتاب الذي جمعته تحت عنوان (مناقشات وردود) وكانَ في هذه المعارك عفيفَ القلم مع الذين تناولَوه بالتهجم والادعاءِ الكاذب، وهمْ بعدُ لا يبلغون مَرْتبة أقلّ تلميذٍ من تلاميذه فكانَ صدره الرضي يتَسعُ لهؤلاء الذين يفترون عليه الكذب، ويرّد عليهم ردّ الودود المُخلص للحقيقة! وهو بذلك يضْرب المثل الأعلى للجدال العلمي في أرْقى مجالاته، وكنتَ أقرأ ما كتبَه هؤلاء الأغرار من افتياتٍ رخيص فأعتقد أن الأستاذ سيغفل شأنهم ولا يرد عليهم، ولكنّه يحاول أن يهديهم إلى الحق بمسلكه المتواضع، وقد أشرتُ إلى أمثلة من ذلك في بعض ما تحدثتُ به عنه، ليكون بهدوئه النفسي منارة للمناقشين!

أما الأستاذُ عبد الرحمن شكري فقد أُعجبت به شاعراً وناثراً، وكَتْبتُ عنه مقالات صادفت ارتياحه في حياته، وأذن لي أن أجمعَ من شعره ونثره ما أستطيع جَمعه، وأن أنشرهُ بتصريح كتابي بَعث به إليّ، وقد وَفقني الله فاشتركتُ مع الأستاذ نقولا يوسف في جمع ديوانه الكبير ثم انفردتُ بنشر مجموعتيْن أدبيَّتيْن من آثاره، هُما دراسات في الشعر العربي، ودِرَاساتٌ في النفس والحياة، وقد نَشرتْهما الدار اللبنانية المصرية وتخطّفَتْهما أيدي القراء على نحو يدعو إلى الارتياح.

وقد افتتحتُ كتاب (دراسات في الشعر العربي) بصورةٍ ضوئيّة لخطاب الأستاذ شكري الذي أرسله إليّ، وقد كتبهُ بيده (الشلاّء) فكابَد عُسْراً شديداً، وهذا نصّه:

«الأستاذ الأديب الكبير محمد رجب البيومي المدرس بالمنصورة الثانوية»:

بعدَ التحية والسلام، لك أن تطبعَ كتابي (شعراء العصر العباسي) وأي كتاب سواه سواءٌ كان شعراً أو نثراً، ولكم الفضل والشكر، ولكنّني أرجو أن تفحص في الكتب وتُسقط أيّ مروق أو إلحاد غير مقصود، والله يعينكم على الخير..

٢٢ مايو سنة ١٩٥٨ المخلص عبد الرحمن شكري

ثم نشرتُ صورة ضوئية لرسالةٍ أخرى تتصل ببعض الشئون الأدبية ولا أطيل بذكرها وقدْ توالت رسائله الموجزة إليّ، واستعارَها بعض الذين كتبوا دراسات أدبية عنه فوجدوا بها بعض ما يضيء اتجاهه النفسي والفكري، ثم تكرّموا بردّها، ولم أشأْ أن أنشرها إذ هي في أكثرها من قبيل المعلومات الذائعة عنه لدى مؤرخيه!

وكما نقلت من قبل رأي الأستاذ عباس محمود العقاد في الأستاذ محمد فريد وجدي فإنني أنقل هنا رأي العقاد الكبير حيث يقول:

«عرفتُ شكري قبلَ خمس وأربعين سنة، فلم أعرفْ قبله ولا بعده أحداً من شعرائنا وكُتّابنا أوسعَ منه اطلاّعاً على أدب اللغة العربية وأدب اللغة الإنجليزية، وما يترجم إليها من اللغات الأخرى، ولا أذكر أن حدثتهُ عن كتاب قرأته إلا وجدت منه علماً به، وإحاطةً بخير ما فيه، وكانَ يحدثنا أحياناً عن كُتُب لم نلتفت إليها، ولا سيما كتب القصّة والتاريخ. وقد كانَ مع سعة اطلاّعه صادق الملاحظة، نافذ الفطنة، حسن التخيّل، سريع التمييز بين أنواع الكلام، فلا جرم أن تهيّأت له ملكة النقد على أوفاها، لأنّه يطلّع على الكثير، ويميّزها ما يَستحسنهُ وما يأباه، فلا يكلفه نقد الأدب غير نظرة

في الصفحة أو الصفحات، يُلقي بعدها الكتاب، وقد وَزَنَه وزناً لا يتأتى لغيره في الجلسات الطوال».

وإذا كانت آثارُ الأستاذ شكري في النقد الأدبيّ قليلة بالنسبة لآثار العقاد وطه حسين، فإنّ هذا القليل كان يُغني عنْ مئات الصفحات، لأنّه يكتب عن شاعر كالمتنبي أو الشريف الرضي أو أبي تمام أو البحتري أو ابن الرومي أو أبي العلاء، يكتب عن واحد من هؤلاء مقالاً أو مقالَيْن. فإذا القارئ امامَ حصيلة فكرية تُشبعه وترضيه، وإذا المؤلفُ قد عمد إلى أخصّ الخصائص لَدَى الكاتب فجلاها أحسنَ جلاء بأسلوبٍ ذاتي لا تجدُه عند سواه، وقد يُوازن بين عدّة شعراء في صفحةٍ واحدة، فيعطيك في هذه الصفحة ما يَرسم ملامَح كل شاعر على حدة، وذلك لا يتأتّى إلا لناقد مقتدر دَرسَ المادة دراسةً مستوفاة ليقدّمها في قارورة ذات نفح عطري أخاذ.

وأنقل للقارئ بعضَ ما كتبه في افتتاح حديثه عن الشريف الرضي[1].

«الشريفُ الرضي لا يُضارِع ابن الرومي في تحليله المعنى، وتقصيّه إياه، ذلك التقصيّ الذي ساعدَ ابن الرومي على إجادة الوصف، سواءٌ أكان وصفاً لهمسات النفس وخطراتها أمْ لأوجه الطبيعة والمرئيات، ولا يُضارع الشريف الرضي أبا تمام فيمّا يتقنهُ من فلتات الصنعة النادرة التي تأتي بالفلتات الفذة الآخذة بالقلوب، والّتي تسّتهوي الخيال، ولا يضارع الشريف الرضي المتنبي والمعري، ولا سيّما المعري في التفكير في النفس والحياة وأخلاق الناس، ولكنْ للشريف نصيباً لا يُستهان به من هذه الميزات، وهوَ

---

(١) دراسات في الشعر العربي ص ٤١ للأستاذ شكري، جمع محمد رجب البيومي.

على ذلك قد امتاز بالوجدانيات، ولهؤلاء الشعراء جميعاً شعر وجداني ولكنْ أحسَبُ أن الشريف قد بزهم جميعاً في هذا الضرب من الشعر، وهو قد أمن ما يعثور ابن الرومي في بعض الأحيان من الفتور بسبب ما يبدو منه من الإفراط في التقصّي والتحليل وتتبع الجزئيات، وأمنَ الشريف زلل البالغة في الصّنعة الذي قد يقع فيه أبو تمام إذْ افرط في حبّه للاختراع والتوليد وإتيانِ ما لم يكن ليَ به أحد من التشبيه أو غيره من صيغ الصنعة، وأَمن الشريف المبالغة غير المقبولة والمعاظلة كما في بعض شعر المتنبي، وأَمَن أيضاً ما قد تَرى في ديوان سقط الزند للمعرّي من مُبالغات المتأخرين التي لا تعبر عن وجدان صادق، ولو قارنَتْ بين شعر الشريف وشعر معاصريه لوجدت فرقاً كبيراً في الأسلوب والذوق لأنّ الصنعة كانت انتشرت في عصره وغَالَى الشعراء فيها من غير سيْل دافق من العاطفة والوجدان يلبسها لباس الإحساس».

فهذه السطور جَمعت خلاصة ما يمكن أن يقال في كبار شعراء العربية مدْحاً ونقداً، وقد فصّل هذه الخلاصة في مقالات تتابعت في الرسالة، وقُمت بجمعها كما أشرت من قبل، وهو بذلك قد شخّص أساليب هؤلاء الكبار تشخيصاً قد لا تجدُه عند غيره، وتلك مزية شكري التي حاولتُ الإفادة منها، وهي التركيز والبعد عن اللجاجة والفضول، ثم إنّ له البحوث النفسية الصائبة الخاصة به. وقد حاولتُ جمعها، ثم فوجئتُ بمن جمعها بعد أن تعبْتُ كثيراً في استقصائها وَلَهُ الشكر الموفور، لأنّنا نعمل في ميدان واحد، فلا حرجَ إذا تقدّم السابق اللاحق وإذا كان علم النفس قد بلغ الذروة لدَى الأكاديميين الذين درَسوا قواعده، وأكثرُوا من التحليلات النفسية، فإنّ الأدباء والشعراء قد أسهموا في هذا المجال إسهاماً كبيراً،

وهذا ما دَعَا شكري إلى كتابة أكثر من أربعين مقالاً في المقتطف بإمضاء (ع.ش) مُتتبعاً خطرات أمثالِ جوته ولارشفوكولد وشوبنهور وأناتول فرنس ومارسيل بروست ومونتاني وأليوت سويفت وثاكري وبلزاك، خاتماً الحديث بابن المقفع ليكون لبعض أدباء العربية سبق في هذا المجال، ومقالات شكري هذه أفادتني كثيراً في معرفة بعض أسرار النفس لأن التناقض في المشاعر، مشاعر الشخص الواحد، فضلاً عن مشاعر الأشخاص المختلفين مما كان في حاجةٍ إلى جلاء واضح لا تُبْهِمه المصطلحات والتعاريف، ولعلّ كثرة تفكير شكري في احاسيسه الخاصة هي التي دفعته إلى استكناه أحاسيس الناس فأوقعنا على هذا الكنز الدفين!

إن شكري قد فتح مجالاً في دراسة النفس الإنسانية لم أجده فيما درست من فصول علم النفس بمعهد التربية على أيدي المتخصصين، ولا شك أن قرّاءهُ جميعاً قد شَعرُوا بمثل ما شعرت فأفادوا منه، وهو بذلك رائد في الكتابة النفسية كما هو رائد في حركة التجديد في الشعر الحديث.

وأنتقلُ بعد ذلك إلى شاعر كبير تركَ صليلاً أي صليل في ميدان الشعر العربي الحديث، إذ كان الرّائد الأول لحركة التجديد الشعري المعاصر مهما حَاول حاسدوه أن يقلّلوا من خطره الأدبي الكبير، وقد كدتُ أحفظ ديوانه الكبير بأجزائه الأربعة لكثرة ما قرأتُ بها من القصائد الجيدة، والغريبُ أنّي عرفته في أثناء دراستي بالمعهد الديني عن طريق المصادفة، إذ كنتُ عاكفاً على دواوين الشعر القديم، ثم على مقلديها من شعرائنا الكبار أمثال البارودي وشوقي وحافظ، ثم وقع في يدي كتاب (مختارات الزهور) وهو مجموعةٌ من الشعر المعاصر اختارهَا الأستاذ أنطون الجميّل مِما نشرتْه مجلة الزهور التي كان يقوم على إصدارها قبل الحرب العالمية الأولى فوجدتُه

مبتدئاً بقصائد لإسماعيل صبري وشوقي ثم أتى بمطران قبل أن يأتي بحافظ، فأخَذْتُ أقرأ ما جاء به من شعر مطران فإذا هُو نمط آخر في بُعد الخيال، ورحَابة الأفق وسعة التصوّر، لقد وجدتُ ما لم آلَفُه في الشعر الحديث أو القديم، وأضربُ المثل بقصيدة (الوردة والزنبقة) حيث بلغت من التصوير الخيالي، والإحكام الفنّي ما لا عهد لي به، فالشاعرُ يتحدث عن حَبيبيْن كانا سعيديْن في عهد الطفولة يتمتعان باللقاء دُون حرج ثم مرّت الحياة فوجدا نفسيهما بعيديَنْ عن اللقاء بحكم الأوضاع الاجتماعية، والدارُ قريبةٌ، يراها وتراه دون حديث، والشاعر التقرّيري من القدماء يقول كما قال إبراهيم الصولي:

وإنّ مقيمات بمنعرج اللوى لأقرب من ليلى وها هي دارها

أو كما قال أبو العلاء:

فيا دارها بالحزن إن نوارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

ولكنَ مطران، نظم قصّة بديعة تمثّلُ مأساةَ وردة جميلة كانتْ تُجاور غُصْناً يحمل زنبقة فكانتا تتعانقان إذا هبّ النسيم، ثم صَلُبَ عودُ الزنبق فلم يَعدُ يميل مع النسيم إلى وردته. وقاسَى الجاران من ألم الفراق مُقاساةً أليمة، وكانت صاحبة الحديقة ذات صبابة بجار لها واصلْة أيام الطفولة ثم تفرّقا على نحو ما أشرتُ إليه، ولم تكنْ تفطن لمأساة الوردتين بل كانت تمر بالحديقة فتقطف منها ما تشاء، وحينَ أرادت أن تقطف الوردة رآها والدها الشيخ فأسرع يمنعها، وأخبرَها بمأساتهما العاطفية، وهو خالي الذهن من مأساة أبنته، فحين أدركتْ ذلك بلغ التأثر بها أعنف مبلغ، وأخَذْت تقبّل الحبيبة المهجورة، كأنها تقبل النائي الحبيب!! تصويرٌ رائع تسلسل في أكثر

من أربعين بيتاً من رائع الشعر، لم أكد أقرأه للمرّة الأولى حتى عرفت وظيفة التصوير الخيالي في تجسيد الحقائق، وعلمت أن الصورة الكليّة التي رسمها الشاعر في إطار تام تكتمل بداخله كلّ عناصر الإثارة والتشويق هي شيءٌ جديد عليّ. لم أعهدهُ من قبل، وأذكرُ من هذه القصيدة بعض ما قاله مطران على لسان الوالد الشيخ متحدثاً عن الزهرتين مخاطباً فتاته:

بُنَيّةَ عفواً عنهما فكلاهما شقيٌّ يود الموت والموت يمهلُ
فقد جاوَزْت هذي الوفّية إلْفها لَوْنٌ هو ميّاسُ المعاطف أميلُ
فكانَ إذا مَرّت به نسمةُ الصبا يُسرُّ إليها سرَّ منْ يتغزلُ
يُداعبها جُهْد الصبابة والهوى ويَعَرض عنها لاعباً ثم يُقبلُ
ويَرشف كلٌّ من جبين حبيبه دُموع الندى خمراً رحيقاً فيثملُ
ولكنّه لم يلبث الغُصْنُ أن قسا فلم تثن عطفيْه جنوب وشمألُ
وَعّما قليل يقضيان من الأسى وإنْ صحّ ظنّي فهي تهلل أولُ

وما سمعت الفتاة قول أبيها حتى قالتْ ما حكاه الشاعر الكبير على لسانها حين هتف!

فوارحمتّا هذي حقيقةُ حالنا رآها أبي في الزّهرتينْ تُمثّلُ
بكى جزعاً للزهرتيْن ولو درى لصانَ لَنَا الدمع الذي راح يبذلُ
هُما صُورَتَانَا في الهوى وحديثنا حديثهما بين الأزاهر ينقلُ

لقد فُتنت ـ يافعاً ـ بهذه القصيدة، فجعلتُ أسألُ عن ديوان خليل مطران، ولم يكن طبع منه غير الجزء الأول سنة ١٩٠٩ فجاهدتُ حتى اشتريته، وراقني أن أجدَ لوناً جديداً من الشعر، ومن هذا النمط الذي رآه

القارئ في قصيدة الوردة والزنبقة، فهناك قَصَصٌ شعريٌ رائع تحت عنوان (المساء) و (عوّادة) و (الجنين الشهيد) و (فتاة الليل الأسود) و (إن من البيان لسحرا) مَع قصّة غرامه الطويلة التي عنوّن لها بـ «حكاية عاشقين» فالتهمتُ كلّ ما عثرت عليه التهاماً مع قصائد أخرى ذات عناوين تقليدية ولكن مضمونها تجديدي مثل قصيدته في رثاء البارودي ومطلعها:

مُصابُكَ حيًّا غَرًا جعفراً وَرُزؤُكَ ميْتاً عمرا قيصرا

ومن هنا تغيّرت نظرتي إلى الشعر، وأحبَبْت أن أسير في ضوء مطران واذكر أني حين نظمت قصيدة (البدر العاشق) ونَشرها الأستاذ الزيات في الرسالة، قالَ لي: أَخْبرني مَن أستاذُكَ في هذا الاتجاه! فقلتُ له ضاحكاً: أنتَ! فقال لا تخْدعني، إن القصيدة مطرانيّة بكل المقاييس، وفرحتُ حين حكم الأستاذ الزيات بأن بقصيدتي رائحة مطران.

وقد ذكرت في كتابي (من أعلام العصر) فَصلاً عن تقديري لمطران، وقلت إنّني حاولت التعرف به، ولكنّ الطريق لم يُتح، إلاّ حينَ رجوت الدكتور زكي مبارك أن يصحبني إليه فقبل مشكوراً، وأعود إلى الكتاب فأنقل منه.

«لقيتُ الشاعر الكبير في ثوب مرضه، وأشفقتُ بيني وبين نفسي أن ألْقاه في وضع لا يسمح بالترسل الأدبي، ولكنّ الدكتور مبارك مهّد لي سبيل القول، فقلت صادقاً، إني لا أرى مثلاً أحتذيه غير شاعر العربية، لأنّه افتتح باب التجديد المعاصر، ومن ورائه تتابعت خطوات شكري والعقاد والمازني والمهجرّيين، وهذا تسجيلٌ لواقع لا ينكره أحد، وقد اعترف بذلك العقاد في قصيدة التكريم التي ألقاها في حفل مطران، وتكرّم الشاعر الكبير

فطلب مني أن أسمعه بعض شعري، فقلت بل عليَّ أن أسمعك بعض ما أحفظ من روائع شعرك فقال يكفي أن تذكر بعض الأسماء».

فذكرت له أسماء أكثر من أربعين قصيدة احتفل شخصياً بها، ونزلتُ على رأيه فأسمعته قصيدة لي تحت عنوان (قلب يتحدث) فسَمعها الشاعر مبتسماً، وقالَ: إنك شاعر حقاً، وعندك النّول الذي يَنسج عليه، ولكنّ الأفكار تتطلبُ امتداداً أكثر، وعليك أن تعمّق نظرتك للموضوع، فإذا كانت القصيدة تتحدّث عن شعورك نحو صديقك، فلا بد أن تمتّد بالحديث إلى الوجود بأكمله، فيجد سرّ الانسجام في الكائنات الحيّة دليل صداقة لا نُدركها كما تجدُ للذرات المتجاذبة في الجماد شبه صلة بوشائج الصداقة بين الأحياء، فلو امتدّ شعرك إلى هذه الآفاق فستكون شاعراً كبيراً، قلتُ ولكن شعراء اليوم مثل الأساتذة محمد الأسمر، وعلي محمود طه والجارم لا يمتدون إلى هذه الافاق، فقال، فلتمتدْ أنت؟

كان مجلس الرجل أمنية تحققت. وقد فرحتُ بتحقيقها، ولم يلبث أن انتقل إلى رحمة الله بعد شهرين، فكتبتُ عنه راثياً ومحلّلاً!

هؤلاء هم الثلاثة ذوو الأثر البارز في اتجاهي الأدبي، وقد أُضيف إليهم الأستاذ الكبير أحمد محرم لأنه دفعني إلى المجال الإسلامي فحاولت أن انهج نهجه، ولي فيه كتاب مستقل تحت عنوان (أحمد محرم صوت الإسلام الصارخ)، رحمه الله!

زيارة وزير كبير

كان الدكتور حلمي مراد رحمه الله، مديراً لجامعة عين شمس قبل أن يختاره الرئيس جمال عبد الناصر وزيراً للتربية والتعلم، وكانَ رجل قانون بَارز مِنْ أعلام التشريع، يُرجَع إلى مؤلفاته، وحينَ صارَ مديراً للجامعة، فتحَ بابَه لكلّ طارق، فلمْ يحتجْب عن طالب أو ولّي أمْر، بل كانَ يَدرس بنفسه كل شكوَى تقدّم إليه، وعَرف الطّلاب ذلك عنه، فكانوا يتخطون الوكلاء ومَن دونهم حتّى يصلُوا إليه واثقين من نُصرته، ولما حلّت كارثة سنة ١٩٦٧، رأس عبد الناصر الوزارة بنفسه، واختارَهُ وزيراً للتربية فكانَ صاحب الكلمة الجريئة في مجلس الوزراء، وقد تحمّله الرئيس على مضض، ثم عجّل بإقالته في موقف كان فيه صاحب الحق الذي لا ينكر ولكن عبد الناصر لم يكن ليسمح لأحد بمعارضته!

ولستُ في هذه العجالة أؤرخ للأستاذ حلمي مراد، فتلاميذُه وأصدقاؤه الكثيرون قد وفّوه حقه، وكانتْ جنازتهُ حين لقي ربّه، مضْربَ المثل في احتشادِ الجماهير، لأن مصر لا تنسَى أبْناءها الأصلاء، ومهما تكاثف الغيم فحجبت نور الشمس حيناً، فيسْنقشعُ الضياء. ويتوَهج الأفق بالنور.

وفي مجال الذكريات الخاصة به أُدوّن هذا الحادث، وهو عَلى يُسْره

الهيّن يُعطي أكثر الدلالات على رجولةِ الأستاذ المربيّ، الذي يحتقرُ السفاسف، ويُعنَى بالجوهر الخالص من الأعمال.

في ذاتِ مساء جَمع مديرُ التربية والتعليم بالفيوم نظّار المدارس الثانوية، ووكلاءَها، والأساتذة الأوائل بها، وكنتُ حينئذٍ المدرس الأول للّغة العربية بدار المعلمات، فلم أكُد أدخلُ صالة الاجتماع، حتى وجَدت الحشد مكتملاً، وقد جَلَس على المنصّة مدير التعليم والوكيل والمديرون المساعدون في تغطية تدل على مَزيد الاهتمام، وتحدّث المدير في صوت ممتلىءٍ، وملامُحه تُوحي بالحِرص البالغ، فقال إن سيادة وزير المعارف الدكتور حلمي مراد، يُمرُّ بالمدارس دائباً، ولا يجْلس في الوزارة بالقاهرة غيرَ ساعات معدودة، وقد أخَبرنا أنّه سيزور الفيوم يومَ الأربعاء القادم، ونحنُ نجتمعُ اليوم، قبلَ حضوره بأربعة أيام، ليقوم المسئُولون في كلّ مدرسة بما يجبُ من النظافة الشاملة، والإعداد المتّسع لمظاهر الاستقبال، وإبراز اللافتات المُنْبِئة بالترحيب، ووَضع صُوَر الرئيس جمال عبد الناصر مكبرة في ارتفاع ملحوظ يراها الزائر حين يدَخل المدرسة! وعلَى كلّ ناظر أن يختار في هذا اليوم المدرسين الأوائل وحدهم ليقُوموا بالتدريس، وعليهم أنْ يعدّوا الدرسَ خاصاً بأمجاد الثورة، تاريخاً كان الدرس أم لُغةً، أم تربية وطنية حتى يجد الوزير هُتافاً رناناً بمآثر الثورة، وتجسيداً حيًّا لأعمال الرئيس، ثم تختارُ المدرسة فريقاً من الطلاب يُلْقُون ما يحفظون من الأناشيد الحماسيّة عند دخول السيد الوزير، وكل ناظرٍ مسؤول عن اختيار الأساتذة، وعلَى المدرسين الأوائل من الآن أن يعدّوا الدرس المرتقب، وأن يمرّنوا أنفسهم عليه، كما يعدّون بعضَ الأسئلة. ويوجّهونها للتلاميذ قبل الميعاد بيوم، ويُراجعون الإجابة الشفوية، ويُقوّمون مِن انحرافها إن وُجد،

حتى تكون الفيّوم مرفوعة الرأس أمامَ الوزير، وقد بدأ الاقتناعُ التام على وجوه الحاضرين، وفيهمْ من تكلّم ليشكر السيد المدير على اهتمامه برفعة المديرية التعليمية وحرصه على أن تكون ـ كما هي دائماً ـ موضع الامتياز.

وقامت حركة نشيطة بين المفتشين لزيارة المدارس، والوقوف على ما أُعدّ ليوم الاستقبال، وكلّ مفتشٍ يُبدي من الاقتراحات ما يَراه مؤدياً لنجاحِ الزيارة، أمّا حركة النظافة، والطلاء، وتجميْل الجدران بالصور، والشعارات فقد بلغتْ ما استنفد الجهد الجاهد، وقد قال لي السيد مفتش اللغة العربية، إنّه يثق في اختياري موضوع الدّرس أمام الوزير، ولكنْ علّي أن أُشغل الطالبات في حِصّتَيْن متوالتَيْن بالأسئلة الّتي تدور حول الموضوع، كيلا تتلْكأ طالبة في الإجابة فتُلقى انطباعاً في نفس السيد الوزير لا تُحمد عقباه.

وحلّ اليوم المرتقب، وبدأ الوزير بزيارات المدارس، فأدهشه حينَ دخَل المدرسة الأولى أنّ كل الدّروس موجهة إلى الثناء على الرئيس عبد الناصر، وأنّ مواد الدراسة التي يَفْرضها النهج لا وُجود لها بالمرة، وقد تحمّل ذلك في المدرسة التي بدأ بها ظانًّا أن الحال ستستقيم في مدرسة أخرى، ولكنّه وجد الأمر مُتشابهاً لا يختلفُ في شيء، فعَرَف أن توجيهاً خاصًّا قد أشارت به المديرية، وحارَ فيما يقُول، إذ لا يجوزُ له سياسياً أن يستنكر دُروس الإشادة بالرئيس وبأعمال الثورة مع أنّ النكسة الأليمة كانتْ تُخيّم بكابوسها البغيض على النفوس، وقد بلغتِ الصدور من الضيق بحيثُ لم تعد تتحمّل أساليبَ النفاق إذ طفحَ الكيل، وكادت الأعصاب أن تتفجّر من الغيظ، رأى الدكتور حلمي ذلك ثم التفت إلى المدير وكانَ يرافقه في كلّ خطوة يخطوها، فسأله: أليْست للمدرسة مواد دراسية في شتّى العلوم؟ لم أرَ دَرْساً في الرياضة ولا درساً في الجغرافيا، ولا دَرساً في الفلسفة أو

المنطق؟ ما تعليل ذلك؟ فارتبَك المدير، وقال: أنا لمْ أُوح بشيء، ولكنَّ المدرسين أرادُوا مبايعة الرئيس في هذا اليوم، وهم مشكورون، فنظر السيد الوزير إلى المدير نظرة ازدراء تفوقُ كل تعبير.

ثم انتقلَ إلى المدرسة الثالثة، فرأى الأمر هو الأمر، فاكتفَى بزيارة فصل واحد، وأرادَ أن يُداعب العمال من الفراشين فقال لهم؛ هل تَحرصون على نظافةِ المدرسة كلّ يوم كما هي نظيفة الآن. وكانَ في العامل سذاجة دفعتْه إلى القول، إنّك يا سيادة الوزير تسْتحق الاحترام، لذلك نظّفنا المدرسة من أجل زيارتكم الكريمة ولا يُوجد أعز منك علينا. فليتكَ تحضر كل يوم، وتَرى بعينك نشاط العمال، فتطلَّع الوزير إلى المدير، وقالَ له باسماً: أسمعت؟ الرجلُ صريح، وسأمنحه مكافأة خمسة أيام!

وجاءَ الدور على دار المعلمات، فطلبَ أن تختار له السيدة المديرة فصْلاً يكتفي بزيارته فرأت أن يكون فصلي هو المختار، ودقَّ الباب فدخل السيد الوزير مع رفيقيْه، وتطلع إلى درس التعبير على السبورة، فوجده كالآتي:

«ثقة الناس فيك وسامةٌ على صدرك تَنَالِيَنه بالسلوك القويم، والجدّ المتواصل، والإيثار النّبيل».

ابتهجَ السيد الوزير، وأبَدى شكره لاختيار موضوع تربويّ يدعُو إلى ارتقاء السلوك ثم استمعَ إلى شرحِ يسير منّي يُبيّن عناصر الموضوع، وكأنّ الوزير صار مدرساً فَقالَ لي تفضّلْ بالجلوس وسأناقش الطالبات، قلتُ، لن أجْلس وأنت ضيفي، ومضى يسألُ عن معنى الثقة وعَن معنى السلوك القويم، وعنْ معنى الجدّ، وعن معنى الإيثار فوجَد استعداداً طيباً لدى

الطالبات، بل وجد فيهنّ من قامت تستشهد بالآية الكريمة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ (الحشر: ٩) (ومن قالتْ له إن هذا العنوان يلخص فضائل المرأة في رأي الإسلام، بلْ مَن داعبت الوزير فقالت نتمنى أن نحوز ثقة معالي الوزير! فقال الوزير على البديهة، ثقتكُنَّ وسام على صدري) وقبل الانتهاء شدّ الوزير على يدي، ثم عانقني، وقال للمدير سيكون الأستاذ ضَيْفي اليوم على مائدة الغذاء وسيجلس جواري!

انتهت الزيارة فكانت حديث الناس، وقد قال المدرّسون في المدارس الأخرى إن اجتماع المدير هو الذي جَعل المسألة مستهجنة! وأننا لا نتحمل أي مسئولية، لأن الأمر قامَ على تنفيذه المفتّشُون، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون.

وقد جاءت سيارة المديرية لتحملني إلى ردَهة الغذاء في فندق المدينة، وجلستُ جوار الوزير كما شاءَ، وأخذَ يسألني عن رسالة الدكتوراه التي نلْتُها منذ أسابيع من جامعة الأزهر وعن موضوعها ومن قاموا بالإشراف والمناقشة! وقد علم بذلك من السيدة المديرة.

وكانَ رجال الاتحاد الاشتراكي بالفيّوم، قد أعدّوا احتفالاً مسائياً يحضرُه الوزير، ولم يكنْ بينه وبين نفسه يريدُ هذه الزفة، فقال لي ستحضر معي وتتكلّم، وَسقط في يدي لأنّي لم آلفْ هذه المظاهر الحزبية، وما تكلمتُ من قبل في حفل سياسي، ولكن الوزير قد شملني بعطفه، فمِن الضروري أن ألبيّ دعوته، وجعلتُ في الزمن بين العصر والعشاء افكر فيما سأقول.

وحلَّ الموعد فكان الخطباء من أرباب الحناجر في الحفلات، وقد

رَحّبوا بالوزير، ثم تكلموا في حماسة عن نشاط الرئيس، وحِرصه على ردّ العدوان، ومؤامرة أمريكا وإسرائيل، وكان تكرار القول لدَى كل قائل مبعثَ سأم منفّر، ثم تقدّمتُ للكلام، فقلت: لَقَد تكلمتم عن الوطن العام، ولكنّي سأتكلم عن الوطن الخاص، وهو مدينةُ الفيوم إذْ لهَا حقّها الأكيد، إنّ الفيوم كانت زهرة البلاد في العهد الفرعوني، وآثارها في وادي الريّان، واللاهون وعين السيلَيّن وبحيرة قارون بما يغني عن الكلام، وفي الإسلام كانتْ أولَ مدينة استقبلتْ جيوش الفاتح عمرو بن العاص بعدَ الفسطاط، وحكّامها فيما تَلا عصر الفتح كانوا رؤس الأمة، وقادتها؛ أما طبيعةُ الفيوم حدائق وأنهار! ومُروجاً وأشجاراً وسواقي شاديات فكلّها تنطق بانفراد وامتياز، ودار الحديث في هذا النطاق بما لم يُجاوز عشر دقائق، ولكنّه كان فريداً في اتجاهه!

مرّت سنون عدة، وعُينت بالجامعة في القاهرة، وتركتُ الفيوم، ثم انتدبت إلى جامعة الإمام محمد بن سعود عدة سنوات، ورَجعت ثانية إلى كلية اللغة بالقاهرة، وغاب عن ذهني مَوقفي مع الدكتور حلمي فلم أعُد أذكره، حتى جدَّ ما أعادهُ إلى ذاكرتي من جديد حيثُ ذهبت ذات يوم إلى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فوجدتُ وزير الأوقاف هُناك، وهو أستاذي الشيخ عبد العزيز عيسى، ومعه الأستاذ الدكتور حلمي مراد فبدأتُ بالسلام، واستقبلَني الأستاذ عبد العزيز بما عُهد عنه من لطف ومودّة، وقال لي مشيراً إلى جليسه هذا أستاذُنا حلمي مراد، قلتُ ومَن الذي لا يعرف الأستاذ الدكتور حلمي مراد، لقد نَسيني تماماً، ولكنّي لن أنسه، فابتسمَ الدكتور حلمي، وقالَ أنا مريض بالنسيان في هذه الأيام فكّرني، قلتُ لقد شرفتني بالزيارة وأنتَ وزيرٌ في دار المعلمات بالفيوم، ودعوتني للغذاء

معك! فقام الرجل من مَقْعَده، وفتحَ ذراعيْه ليحضنني، وقال: لن أنسى لك أنّك الوحيد الذي أرَحْت أعصابي في هذا اليوم المشئوم، واتجه إلى الأستاذ عبد العزيز وقال: تصوّر إن مديرية التربية والتعليم بالفيوم صارت وكأنها تسيرُ في مظاهرة لتأييد مرشح انتخابي، وقد تحاملت على أعصابي، وأنا أرى من مظاهر السقوط ما لا يتّحمله مصرّي يخلص لوطنه! وجاءَ هذا الأستاذ ـ وأشار إليّ ـ ليردّ إليّ ثقتي في الكِرام من أبْناء الوطن العزيز! لقد تحدثتُ مع الأستاذ البقوري عنه فقال لي لا أعرفه، وتحدّثت مع الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصي عن موقفه الحر فأثنى عليه ثناءً طويلاً، وقالَ بالحرف الواحد إنّه من مفاخر الأزهر فقلت له: بل من مفاخر مصر، وقد تغيّر شكله قليلاً الآن، فلم أفْطن له حين قدم! فليُعذرني! قلت: لقد جمد لساني بعد مديحك فماذا أقول؟

وخرج الدكتور حلمي مُراد لبعض شأنه، فقالَ له الأستاذ عبد العزيز، أذكر بالتفصيل ما كانَ من أمرك الّذي أشرتَ إليه مع الدكتور حلمي مراد، فذكرتُ كلّ ما كان كما كان، فضحك كثيراً، وقالَ: العجيبُ أنّك نجوت من وِشاية المباحث! إنّ أولاد الحلال لو أخبرَهم مُخبر بشذوذ موقفك عَن زملائك! لقالُوا إنك خائن، ومَعهم الدليل، وعدُّوا ذلك منتهى اليقظة الدامية في مراقبة المنحرفين! وتطرق الحديث إلى مسامرة يجيدها الأستاذ عبد العزيز، وبعدها استأذنتُ ذاهباً حيث أريد.

مـــن رحــــلاتــــي

كان الأستاذ العقاد يقولُ إن الإنسان يرحل بالقراءة إلى كلِ مكان، فلا يعوزه أن يزور أرضاً قرأ عنها لكاتبٍ صادق، ثم بعد ظُهور التلفزيون أصبحت الرحلة موجودة فعلاً دُون سفر، فأنتَ ترى على الشاشة البيضاء بلادَ الله النائية رأى العين، وقد تلحظ بعقلك المتيقظ ما لا يلحظه الرحالة الّذي جاب هذه البلاد وقَضى فيها من الزمن ما لَم يُعْطِهِ الكثير مما يجب أن يعلمه، وفي هذا الكلام ما يحتمل النقاش، ولكنّه أوْجد العزاء لمن لم تُساعده ظروفه على الرحيل.

ومما أعلمهُ عن نفسي أنّي دُعيت إلى دُول شتى،فلبيتُ بعض الدعوات، وأبطأتُ عن بعضها لظروفٍ طرأْت فلم أستطع التنفيذ، ولكنّي الآن أشعر بندم لأني لم أستجب لكلّ ما وُجّه إليّ، مهمَا قامت الأعذار.

وأولُ رحلة أسعدتني رحلتي إلى الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، إذ ابتعثتُ أستاذاً لكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود، وكنتُ أكتُب في المجلاّت السعودية بمكة والرياض من قبل، فأسَعدني أن أجَد من الإخوة السعوديين من يُذكرني بالخير، ومن سَعى متفضّلاً إلى زيارتي مكرّراً، ودَعاني إلى زيارته في تصميم متكرر. كما

أسعدني أن أجَد القائمين على الإذاعة المسموعة بالعاصمة يرسلون إليّ من يدعوني إلى إلْقاء بعض الأحاديث، وإلى المشاركة في ندوات أدبيّة وعلميّة، ثم كانَ لي برنامج أسبوعي دائم امتد أربعة أعوام متتالية، وهكذا شعرتُ أنّي في مصر تماماً، فالجوُّ الأدبي هو الجو لأدبي، وكرمُ الضيافة تبدُو مظاهرُه الكثيرة دون انقطاع، وكانت المُقررات لكليّة اللّغة العربية بالرياض هي المقررات لكلية اللغة العربية بالقاهرة، وَإن اختلفت الكُتب والمذكرات، فالمضمونُ واحد، ومما دعَا إلى الارتياح التام أنّ الكلية ـ كلية اللّغة بالرياض ـ لعهدِي كانت تأخذ بنظام الفصول لا بنظام المدرجات، فكانَ كل فصل لا يَزيد طلابه عن ثلاثين طالباً، وقد بعث ذلك روحاً من الهدوء والاستقرار، وكانَ الطلبةُ حريصين كلّ الحرص على استماع الدروس ولهمْ رأيهم المعتدل في كلّ أستاذ، بلْ هُم المفتشون الحقيقيون، لأنّ الإدارة تستمع إلى أقوالهم، فإذا اتّفقوا على الإفادة من أستاذ، كانَ ذلك أكبر تزكية له، وقد تبرّم من ذلك بعضُ الزملاء، وليَس على حق في تبرّمه، لأنّ القوم صادقون لا يَعرفون التزلُّف الممقوت وإجماعُهم التام ويمثل الحكم الصادق، فلماذا يتبرم الأستاذ من كلمة حق تُقال.

وكانت مكتبة الكلية عامرةً بشتى المصادر والمراجع في القديم والحديث، فما أُشير إلى كتابٍ حتى أجد من الطلاب من أسرَع باستعارته، ومن قرأ منه فصولاً لمْ أتعرّضْ لها، فيُبادر بمناقشتي وأفسحُ صدري لكل رأي، وفي الطلاّب من كان يضيق بكثرة هذه الأسئلة، لأنّه يريد أن نظلّ في نطاق المذكرة أو الكتاب المقرّر، فكنتُ أُقابله بالرفق، وأوضّح له أن درس الأدب والنقد لَيس كدرس النحو أو الصرف محدوداً بالاصطلاحات والتعاريف، ولكنه ميدان رحيب لتبادل الآراء، وقد تخرّج في الكلية في

السنوات الأربع الّتي شغلتُها هناك مَن صارُوا اليوم من كِبار أدباء المملكة ومن القائمين على إداراتٍ هامة في الصحافة ودوائر الإعلام والتثقيف، وبَيْني وبينهم مراسلات، إذ هُمُ الذين يبتدءون متفضلين، وأذكر ممّا جذَب اهتمامي بالرياض أُمسيات الأستاذ عبد العزيز الرفاعي رحمه الله في ليلات الخميس إذ كانت حافلة بخيار المتحدثين من زائرين ومن مقيمين، والرّجل نبيلُ الخلق، باشّ الوجه كريمُ الحفاوة، وله قدرةٌ على تخفيف حدة الآراء حين يتصاول بعلن المناقشين في مسألة تستدعي الحوار.

أما الصديقُ الأعز الذي لا أَنساهُ فهو الأديب الأريحيّ المطبوع على أدب النفس، وأدب العلم معاً، الأستاذ عبد العزيز الربيعي، فقد كانَ السّاعد الأيمن لكلّ وافدٍ إلى المدينة، إذ يذهب في قضاء حوائجه المتعسرة كلّ مذهب، ولا يرتاح حتى يطمئن راجيه، وكنت أَلْمس فيه هذا النشاط الحافل فأَقِفُ أمام مروءةٍ لا حدّ لها، وأعتقد أنه كتابٌ مفتوح يَعرض لرائيه شمائل من الفتوة العربية الأصلية، التي تقرأ عنها في كتب التراث العربي. فكما يذكر السابقون معن بن زائدة وأبا دلف العجلي، وخالد بن يزيد وأشباههم من ذوي المروءات في القديم، فإننا اليوم نَذكر الأستاذ عبد العزيز الربيعي ليعرف الناس أنّ الهمة العالية، والمروءة النبيلة لا تزالان تتحدّران عبر العصور، وقد كتبت عنه مقالاً في مجلة الأديب سنة ١٩٧٢م وأعدتُ نشره في كتابي (كيف عرفت هؤلاء) فكانَ كل قارئ لما كتبت يقول: صدقت ولم تتزيد، وهو بإجماع ذو دلالة لا ينقصها البرهان، ولم تنقطع زياراتي للمملكة بعد انتهاء البعثة التعليمية، إذ كنتُ أَفد إلى الرياض أستاذاً زائراً، وإلى جدّة مُحاضراً في النادي الأدبي عدّة مرات، حيثُ تفضل الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين رئيس النادي بدعوتي المتكررة لإلقاء عدة

محاضرات، فكانَ الجوّ الأدبي الذي ألمسهُ يشعرني براحةٍ نفسية لا حد لها، وفي زياراتي المتكررة سعدتُ بلقاء كبار الأدباء ممّن عرفتُهم من قبل قراء أمثال الأساتذة على الطنطاوي ومحمد سعيد العامودي وأحمد عبد الغفور العطار، وعبد القدوس الأنصاري وأحمد جمال وغيرهم ممّن لاَ يغيب عني حديثهم، فكلّهم خيار من خيار، والذي سعدتُ به حقاً هو هذه الحرية التامة التي يُتيحها النادي الأدبي بجدة للمعُقبين على المحاضرات إذ يحتفلُ الجمهور الأدبيّ هناك بالتعقيب على كل محاضرة، وقد يطولُ الأخذ والرد حتّى يبلغ ضعفَ الوقت الذي قطعه المحاضر في بحثه، وهي ظاهرة صحية لا شك فيها، وإن كانَ القليل من المُعقبّين يتكلّم لمجرد الكلام فقط، وهوُ مَا لا حيلة للمشرف في تلافيه! والحديثُ عن حجّ البْيت الحرام، والتمتع بمشاهد هذا المؤتمر الإسلامي الكبير الذي ينعقد كل عام يحتاج إلى مقال مستقل، ولعلّي أشرتُ في موضع آخر إلى ذكريات حبيبه لها أجمل الأثر في نفسي حين وقفتُ بين يدي الله في الكعبة، وقرأتُ بعض سور القرآن بالروْضة الشريفة في المدينة المنورة ويا لهما من مكانيْن غاليَيْن لا يفوقهما أي مكان!

وأترك المملكة العربية إلى تونس فأذكر أني سعدت بزيارتها أربع مرات في مواسم ثقافية زاهية، لأنّ معالي الأستاذ الدكتور علي الشابي وزير الشؤون الدينية يُقيم كل عام احتفالاً علمياً بالمولد النبوي الشريف يدعو لَهُ مَن يختاره من مفكري العالم العربي، وقد حدَّد موضوعاً هاماً للمحاضرة يتناولَهُ كلّ محاضرٍ من وجهة نظره، وفي الندوة الأولى دار الحديث عن تونس ومركزها العلمي بمناسبة اختيارها عاصمة للثقافة في هذا العام، وتاريخُ تونس العلمي والأدبي والثقافي والحضاري كانَ ميداناً متّسعاً

للحديث، وقد سعدتُ سعادة تامة بلقاء أخي الأديب الأستاذ الحبيب شيبوب من أدباء تونس ذوي الصيت الذائع في العالم العربي، فكانَ رائدي في جولاتنا الاستكشافية في تونس العاصمة، وفي مدينة سوسة، وفي مدينة القيروان، أذكرُ أننا وقفنا أمَام الجامع العتيق بالقيروان وقفةً تاريخية أخذتْ تُذكرنا بمجد الإسلام في هذه الربوع حين كانَ البطل عقبة بن نافع يرفعُ لواء الإسلام فوق الأرض التي اختطّها لبناء أول مسجد بالمغرب الكبير، وهو المسجدُ الذي جَعَلَنَا نرمقه في شوق وحنين، كما صارَ من بعد معهداً علمياً لأئمة الفقه المالكي في تونس، واخرج من الأعلام من حَفروا أسماءهم في هيكل الفكر الإسلامي بحروف بارزة، وفي جولاتنا معه بتونس زُرنا أماكن العلم بها. وكانتْ للمدرسة الخلدونية زيارةٌ أثارت عمق الذكريات، وكذلك لجامع الزيتونة الّذي كان ولا يزال مصدرَ إشعاع ديني لا يُطفأ نوره مدى الأجيال، وفي الزورات المتتابعة زدتُ معرفة بتمجيد هذا البلد، وبما قدمَ للعالم الإسلامي من تراث، وأذكر أننا زُرنا منازل الفضل بالمدينة وضواحيها، ومن بينها منزل المغفور له العلامة محمد الطاهر بن عاشور شيخ الإسلام بتونس، وأمَامَهُ حديقةٌ ناضرة كانت مصدر وحي للإمام وولده النابغة محمد الفاضل بن عاشور، كذلك طفْنا بمنزل آل أبي حاجب الذي كانت تسكنه الأميرة المصرية نازلي فاضل زوجة خليل باشا أبو حاجب، وباعثة اليقظة النسائية بتونس، وقد زار الإمام محمد عبده تونس مرتين، ونزل ضيفاً على الأميرة في إحداهما، وألقَى دروساً في التفسير كانت مثار انتباه الشيعة التونسية من العلماء! ولعلّ الوزير الفاضل الدكتور علي الشابي يجْمع ما ألقاه علينا في النّدوات المتتابعة خاصاً بأعلام تونس في كتاب خاص، لأنّه سلك في تراجمه مسلكاً تحليليًا لم نجدْه عند من

كتبوا في هذا المجال إلاّ ما كتبه الأديب الكبير محمد الفاضل بن عاشور، فهو في هذا المجال يلتقي مع الدكتور الشّابي في روعة التحليل، ودقة التعليل، وسلامة النتائج مع التمتع بأسلوب أدبي رائع يجذبُ السامع ويشوقه كأنّه يستمع إلى موسيقى رائعة! ومما أذكره أني حين بتّ في فندق القيروان أرقت أوّل ليلَة، ولم يجد النّوم سبيله إلى عيني، فجال في خاطري هَاجسٌ عجبتُ له! وهو أنّي في القيروان بلدة الشاعر الشهير أبي الحسن الحصري صاحب القصيدة الشهيرة التي مطلعها:

يا ليل الصب متى غده ... أقيام الساعة موعده

فقلتُ في نفسي: لقد أرقتَ الليل في هذا المكان، أليسَ من الجائز أن يكون الشاعر الحصريّ قد أرقَ مثلك في هذا المكان قبل عدة قرون، وكافَحه وَجدُه مكافحةً دفعته هنا إلى إنشادِ قصيدته، فإذا كنتَ الآن أَرِقاً، وتحملُ من الوجد ما يحمل الحصري فهلّم إلى معارضته قصيدته التي عارَضها كبار الشعراء، ومنهم من شعراء العصر الحاضر شوقي وصبري وولي الدين يكن وشكيب أرسلان وفؤاد بليبل، ومن لا أستطيع حصرهم من النوابغ الأفذاذ، ولم ألبث أن أحضرتُ الورقة والقلم ولبثتُ أنظم حتى استقامتْ لي قصيدة متواضعة في نحو ثلاثين بيتاً أذكرُ من أوّلها:

لَهَبٌ يَزْدَادُ توقّدهُ ... ما غيرُ وصالك يُبْردهُ

يسقيه الدمعُ فيُشعله ... هَل كان كزَيْتٍ يرفدُه

والليلُ يهيجُ به ضَرماً ... فكأنّ حليفاً ينجده

ويُوافي الصبح فيمهله ... ردَحاً ما ثمّ يُجدّده

أَلقى الأصحاب فيُشغلني ... لَغوٌ من صَحْبي أعهده

ولَقَدْ أخلُو فيُعاودني ما كنتُ مُلمًّا أُبعده
ووَرائي الليل أحاذره صِلاً يتحقّرَ أسوده
ويطول فأسأل عن غده (أقيام الساعة موعده)

ولا أنسى سعة صدر الدكتور علي الشابي، ففي بعض الندوات النبوية قام أحد المتحدثين دُون أن يُدعَى، فتحدث عن التعذيب في إيران على يد الحكومة حديثاً كلّه افتيات، فلم أُطِقْ صبراً. وأخذتُ الكلمة لأقول لهذا المتحدث إننا ننشدُ في اجتماعنا التوفيق والسداد لجميع بلاد الإسلام، وليس المجال مجالَ افتيات على إيران بالباطل، وكنا نظن أن الحديث عن اعتداءات إسرائيل الوحشية سيكون موضع اهتمام هذا المتحدث، فيتجاذبُ شعوريًا وإنسانياً مع من أقاموا ندوةً تجمع شمل المسلمين أو أنْ يشذ هذا المتحدث هذا الشذوذ فلاّ بد أن نبحث عن دواعيه، ولن تكون مرضية بحال، وأخذ الكلمة بعد انتهائي سعادة الدكتور علي الشابي فشكرني وأعلنّ موافقته على ما أبديته، ولم يستطع هذا العجول المغرض أن يعقِّب بشيء!

وإن رحلاتي المتكررة لتونس العزيزة قد بعثت فيّ شوقاً جارفاً إلى قراءة كل ما يتعلق بأبنائها قديماً وحديثاً، فقد نزلت من نفسي أكرم منزل وأعلاه.

وأترك تونس إلى أختها الجزائر، فقد أُتيح لي أن أشهد مؤتمر أبي فراس الحمداني الذي دعا إليه السيد عبد العزيز البابطين منتخباً صفوة من رجال الأدب والسياسة ليحيوا ذكرى هذا الشاعر الفارس كما هي عادته في كل عام، حيث يحتفلُ بشخصية أدبية أو سياسية في إحدى العواصم العربية

فيعيد للأذهان أجمل الذكريات عن العزة الإسلامية والعبقرية العربية، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد الطنطاوي شيخ الأزهر، ولكنّ أعماله الكثيرة في ميعاد المؤتمر عَاقَتْه الحضور فأنَابني عنه قبل انعقاد المؤتمر بثلاثة أيام، وسارعتُ فأعددتُ بحثاً وافياً عن علاقة أبي فراس الحمداني بابن عمه سيف الدولة وهي علاقةٌ تكتنفها الضباب حيث لم يتّضح تفسير شاف لعزوف سيف الدولة عن الشاعر النابغة بعد احتفاله به، وتقديره إياه، وحَين قدّمت البحث للمسئول على المهرَجان قال في أسف إنّه سينشره في مجموعة الأبحاث، لأنّ البحوث التي ستُلقى في هذا المحفل قد طُبعت ووُزعت على القرّاء لإبداء النظر في مضمونها وليسَ بينْها هذا البحث الطريف، كذلك قال، فاكتفيتُ بالمشاركة في النقاش، وكانَ من حظي أن يعرف بعض الجزائريين عن بعض ما كتبتهُ عن الإمامَيْن الجزائريّن الكبيريْن عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، وهُما من زعماء الحركة الإصلاحية والدعوة إلى الجهاد، وبجهودهما مع إخوانهما العلماء بُعثت الحمية في التقوى، واستطاع الشعب الجزائري الباسل أن يَطرد الغاصب المحتل، أقولُ لقد جاءني من الأدباء إخوةٌ فضلاء ذكروا تقديرهم لما كتبت، وقالوا إن مصر والبلاد العربية في حاجة إلى مثلِ هذه الكِتابة الهادفة، لأن قراء الجزائر يعرفون كل شيء عن مصر أدباً وديناً وثقافة وفناً، ولا تكادُ مصر تعرف عنهم شيئاً، فقلتُ إنّ الشعب المصري يحبّ الجزائر البلد الشقيق، وكان يُتابع كفاحها الباسل فخوراً بتضحياتها الغالية، وهو بَعد استقلال الجزائر يقرأُ كل ما يقال عنها، وقد كانت جرائد مصر ومجلاتها أيام المحنة تنشر المقالات الضافية مؤيدة هذا الجهاد الباسل، ثمّ دقّت طبول النصر حِين انقشع غيم الاحتلال وأشرق نور الاستقلال، وقد تطرق

أحد الأعزاء إلى حديث عن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي فذكر أنه كتب مقالاً نارياً هاجم فيه شوقي لقوله:

دَمُ الثوار تعرفهُ فرنسا وتعلم أنه نور وحق

فقلتُ: إن الشيخ البشير جاهَر بهذا الانتقاد في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة، وشوقي شاعرٌ عربي مخلص لعروبته، وما جالَ بذهنه أن يمدحَ فرنسا بهذا البيت: ولكنّه يذكّرها بافتخارها بالثورة الفرنسية وادعائها أنّها هي التي حررت الشعوب! واعملت حُقوق الإنسان لذلك يقول بعد هذا البيت:

وحُررت البلاد على قناها فكيف على قناها تسترق!

والبيتان من قصيدة قيلت بمناسبة اعتداء الفرنسيين الهمجيّ على دمشق، وتسليط الحمم والقذائف النارية على العزّل الآمنين في خيم الظلام، وقد قال مخاطباً دمشق:

ولي ممّا رَمَتْك به الليالي جراحاتٌ لها في القلب عمق
لحاها اللّه أنباء توالت على سمع الوليّ بما يشق

ولا أستطيعُ أن أصف سعادتي بهذا اللقاء، فقد عرفت منه قوّة الالتحام الأخوي بين الشعوب العربية كما أدركتُ أن الوحدة الإسلامية لا العربية فقط هي السبيل إلى إنقاذ المسلمين في كل مكان من براثن الطغاة، ولعلّي أوضحت ذلك تماماً في هذا اللقاء، وأذكر أن أخاً فاضلاً من الرفاق يعملُ محرراً بجريدة الجهاد التي تصدر في الجزائر باللغة الفرنسية حرص على أن يُسجّل حديثي عن الأخوة الإسلامية بألفاظه، وجاءني في اليوم

التالي بالفندق ليُسمعني كل ما كتبه قبل أن يُترجمه، وقال إنه يطلب بتوقيعي على ما قرأت، فوقعّت شاكراً، وعند السفر رأيتُ في المطار هؤلاء الرفاق الأعزة وقد حضروا تلقائياً لتوديعي! فكانَ حضورهم المفاجئ مبعث ارتياح لنفسي، فآمنت بأنّ الأواصر الأدبية تستطيع أن تتأكد وتعمق في مجلس واحد، إذا تلاقى أصحابها على هدف شريف ولا أشرف من هدف التمسك بالعروبة والإسلام، وبعد حضوري إلى مصر، توالت رسائل الأخوة، وفيها أريج الحبّ فرددت عليها بما يحمل من الشكر والثناء!

أما رحلتي إلى باريس في ١٩٩٨/١٢/١٥ فقد كانتْ ذات فائدةٍ علمية كبرى، حيث كنت أمثّل الأزهر في مؤتمر الحوار بين الأديان، وكان رئيس الجلسة الأستاذ الدكتور علي السمان مثالاً طيباً رائداً للمسلم المستنير صاحب الصدر الرحب الّذي ينصت لكل رأي ويردّ في هدوء مُحاولاً تَضْييق أبواب الخلاف، وكانَ المتحدثون جميعاً من أقطاب الفكر الديني، حيث يمثّل الإسلام والمسيحية واليهودية من يشرح رسالة دينه في أدب مُتزن، وقد أدّى هذا الحوار إلى إيجاد أرْض صلبة يقف عليها المؤمنون جميعاً، وكان الاتجاه البارز هو التمسك بالآداب الخلقية التي جاءت بها الآداب السماوية إذ هيَ ممّا لا خلاف عليه بينْ دين ودين، فلن يُتيح دينٌ جدير بهذا الاسم رذائل الحياة من استباحة الحرمات، وسفك الدماء، ونهب الأموال، وتأريث أسباب العداوة والبغضاء بين الناس، أما القصائد الخاصة لكِلّ دين فالالتزام بها لا يمنَع العمل المشترك على تحقيق الفضائل، ومحاربة الرذائل، ومن الرذائل المستقبحة أن يظن أحد المتسرعين أن نصرة دينه لا تأتي إلا بمهاجمة دين آخر، وهي محنة قاسية ذاقتْ منها البشرية

أهوالاً لا تقف عند حدّ، وكم سالت دماءٌ ينكر الله أن تسيل، إذ أَوْحَى بإراقتها التعصب القوي.

ولعلّ تقدّم الإنسانية في موكب الزمن الزاحف إلى مستقبل مشرق يجعل ما كان من جرائر الماضي دافعاً لتجنّبها والأخذ على يد من يثيرون الفتن إرضاء لأنانية شخصية ينكرها الدين الذي يدين به!

وما كدت أنتهي من كلمتي المتواضعة حتى توالْت كلمات التأييد دُون اعتراض، وسجّل الأستاذ الدكتور علي السمان في تقريره أنّ الكلمة كانت محلّ اتفاق بين المتحدثين، ولما كان من أهداف هذه الجلسة الحديث عن حماية الشباب من النزعات الإلحادية، فقد رأيت أنْ أوضح أن كثيراً من الشباب يُعذر في انحرافه لأن بعض الكليات تؤسّس أفكارها الحديثة على أساس إنكار العقيدة فعلومُ الاجتماع والنفس والتربية لدَى كثيرينَ من أدعياء الفكر العلماني، ترتكزُ على إنكار عالم الغيب، وتؤيد كل نظرية تدعو إلى هذا الإنكار، والشبابُ معذورٌ حين تقرع أسماعه هذه الاتهامات من أناس يلبسون طيالس المحاضرات، والعلاجُ لهذا النشاز أن يكون الأساتذة من ذوي النزعة الدينيّة؛ لاَ سيّما أن تزعزع العقيدة هو الذي أدّى إلى انحراف الشباب لأنّ الشاب الذي لا يعترفُ بوجود الله يقدمُ على الموبقات غير هيّاب، بل لا يَرَى مانعاً من ارتكاب الجرائم إذا احتاط في جريمته فلمْ يُبق أثراً ينبئ عنه! وهو مستريحٌ تماماً لأن الله في اعتقاده غير موجود!

وكانت مناسبة المؤتمر فرصةً سانحة لرؤية معالم باريس الحضارية، فذهبنا إلى متحف اللوفر، وبرج إيفل، وقبر نابليون، وسُررت حين شاهدت المسلّة الفرعونية تحتل أجمل ميدان في العاصمة. وإذا كانت الزيارة في مناسبة عيد الميلاد، فقد امتلأت الشوارع ليلاً بالثريّات الكهربائية على

أشكال مختلفة تأخذ بالألباب، وقد انعكست أنوارها على صفحة نهر السين فصار كأنّه في شمس الصباح: وانطلقت المراكب حافلةً بزمر الشباب والشابات، والجميع في فرح يغمر الوجوه بالبشر والابتهاج، وقد قُمنا بزيارة جامعة السوربون، والمكتبات الشهيرة بباريس، وشاهدْنا بعض أساليب الحياة مما كنا نقرؤه من كتب الذكريات عن باريس. تلك التي كتبها من عاشوا بها ردحاً من الزمان هيّأ لهم أن يستنبطوا من الأسرار والسرائر ما قد يفوتُ الزائر العجول. وباريس هي باريس لم ولم آسف على شيء في هذه الرحلة الباهرة إلاّ على تحديد الوقت القصير لكل متكلم في قاعة الحوار، وهو أمرٌ لا بدّ منه بالنسبة لمن يتكلمون لذات الكلام، أما مَن يريدون العلاج الشافي لما يعترض الأديانَ من صعاب، فلم يبلغوا من الإسهاب ما يريدون! وحين رجعت إلى القاهرة كتبت تقريراً يشمل ما كان، ونشرت انطباعاتي عن المؤتمر وعن الرحلة في مقالاتٍ متعدّدة بالصحف المصرية، كما ترجمتْ إلى الإنجليزية مجلة الأزهر كلمتي التي ألقيتها باللغة العربية ليقف القارئ الأجنبي على ما ابديت من آراء.

أمّا الرحلة التي أسعدتني أكثر من سوابقها الماضيات على ما صادفتُ من مَسرّاتٍ في جميعها، فهي رحلتي إلى إيران لأني كنت في شَوق شديد إلى زيارة هذا البلد المسلم العريق الّذي وقف صامداً ولا يزال أمام الطغيان الأمريكي الفاجر، وقد آلمني أنّ ذيول الغرب أخذوا يفترُون الأكاذيب على الثورة الإيرانية الباسلة ويصمونها بالرّجعية والجمود ليُوهنوا علاقاتها بالعالم جميعه وفي مقدّمته العالم العربي، وقد عملَت إيران على إزالة هذه الأراجيف بالتّواصل الدائم مع زعماء العرب وكانَ في مقدمة ما قامت أن دَعت الأزهر الشريف إلى إحياء ما بدأه الإمامين عبد المجيد سليم ومحمود

شلتوت من التقارب الرائع بين السنة والشيعة. وهو تقاربٌ تحتمه الظروف الخطيرة التي تجتاح العالم الإسلامي فاستجابَ الأزهر وأرسلَ وفداً من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية كُنْتُ من بينهم، وقد لَمس الوفد الأزهري في شتّى الجلسات الحوارية، والأسمار الحرّة في أوقات الراحة في إيران حكومةً وشعباً احتفالاً بالغاً بمصر ومَبعوثيها إلى المؤتمر، وتحدّث الخطباء من الجانبيْن عن أثر الإمام محمود شلتوت وآية الله برجرودي في تدْعيم الإخاء الديني، وتكاشَف الفريقان مَكاشَف الأحبّة الذين تجمعهم الآلام والآمال، وقد بدَا للعيان زيفُ ما أرجفَ الأذناب من افتراءات نحو الثورة الإسلامية، ورجال الإصلاح مما قطع جهيزة كل خطيب، وأذكرُ أني ألقيتُ في إحدى جلسات المؤتمر قصيدة صادقة عبّرت عن الشعور الإسلامي في مصر وإيران معاً، وقد قلت فيها:

نُفخ الصور فاستفاقتْ عقول	جاءها الحق بعد طول مَطالهْ
أوَ نَبْغي التّقريبَ! ماذا دهانا	بابتعادٍ، نفحّ في أغلالـه؟
لِمَ كانَ البُعد الذي قطَع الحبلَ	وجئْنا نروم بدءَ وصالـه؟
إخوةٌ نَحْنُ، كيف يحدث هذا	ولنّا الدين نَهْتدي بمقالـه!
أفلَسنا نَخْزَى لما كان منا	حينَ يشتط خابط في ضلاله!
إنّ فقه المذاهب اليوم في	الأزهر يُعطي الجزيل من أفضاله
فيه للشيعة اجتهادٌ وللسّنة،	كلٌّ يُوحي بصدقِ اعتداله
أخوةٌ يَلْتقُون في حَوْمة	الرأي، وكلٌّ مدجّج بمقاله
تتلاقى الأنهار في البحر فاتركْ	آسِنَ الماء وابتردْ بزُلالـه
والبصَيرُ البصيرُ من يعرف الدرّ	بَ فيهْدِي سواه في تجواله

وقد زُرنا بلاداً عزيزة مثل قم، وجَلسْنا في حلقاتها العلمية، وخالطنا ذوي الرأي من كبار الشيعة، فرأينا نبض قلوبنا في عروقهم، ورأوا أنفاسهم في صدورنا، ونجحت الزيارة أحسَن نجاح لأن الإخلاص كان الرائد، وصوت القرآن يهتف في الآذان إنما المؤمنون إخوةٌ وصوت الرسول يصيح (المسلم للمسلم كالبنيان يسند بعضه بعضاً).

وطهران من أجمل العواصم بشوارعها النظيفة، ومتاجرها الحافلة، وحدائقها المتجدّدة، وعمائرها العالية، ومساجدها الزاهية بالإيمان، ومعاهدها ذات الهدى والإرشاد! وقد أهديت لنا مجموعة من الكتب ـ أدبيّة وعلمية ـ كانت موضع التقدير من نفوس تتطلع إلى المعرفة، وتشم عبق الأدب فتشعر بالانتشاء!

هذا حديث الرحلات، وقد أوجزته ما استطعت، لأن كل رحلة تحتاج إلى فصل خاص، ولكني اكتفيت بهذه السطور!

حديث التليفون

ذكر الأستاذ الدكتور زكي مبارك شجوناً من أحاديثه الأدبيّة الرائعة، كانَ من بينها ما تحدّث به عن فتاة أديبّة تُراسله دون أن تكشف عن اسمها، وعن عنوانها، وتحادثُه في التليفون أحاديثَ شتى في الأدب والسياسة والاجتماع دُون أن يعلم رقَم تليفونها، وقد شُغفَ بها إلى غير ما حدّ، فكتب عنها عدّة فصول، منها ما جاء في مجلة الرسالة العدد (٣٨٣) تحت عنوان (إلى. . .) وقد صدر بتاريخ (١٩٤٠/١١/٤) وفيه يقول:

«أعيذُكِ أن تظنّي ـ وبعض الظن حق ـ أني استهدي لمحةً جديدة من لمحات العطف، فأنا رَاضٍ بأن تظْلّي مَحجوبةً عنّي ما دام لك هوى في هذا الحجاب، ففي كلّ لفظة من رسائلك الكريمة، عروسٌ تتخطر وتميس في دلال وكبرياء، وفي كل نَبْرةٍ من صوتك ـ الرنّان ـ ولم أسمعْه إلاّ من طريق التليفون لحنٌ ينقل قلبي برفق إلى أجواز الخلود فإن كُنتِ فتاةً حقيقية فأنت البشيرُ بأمل معسول، وإن كنت فتاةً خيالية فأنت المطلع الجميلُ لأنشودة رائعة من وحي الخيال، ولي غرضٌ من هذا التشكيك فما أحب أن تكوني أنت أنت، لئلا يَعرف السفهاء باب التطاول على نجم السماء».

هذه فقرةٌ من مقال نفيس احتل أكثر من ستة أعمدة في مجلة الرسالة،

ولستُ هنا بصدد تزكية المقال، ولكنّي أذكر أن قصّةً مماثلة تماماً وقعَتْ لي، كقصة الدكتور زكي مبارك هذه. فالرسائلُ تتلو، وأحاديثُ التليفون تكثر، واللمحات الذكية تتردد فيما أقرأ وأسمع، ولكن مَن الكاتبة؟ لا أَدري! ومَن المتحدثة؟ لا أعلم؟ وما عنوانُها؟ ليس لديَ ما يدلّ علَيْه، لقد كِدت أن أكذّب نفسي أمام هذه الألغاز؟ ولكن الرسائل موجودة والصوت يتردّد!

أوّلُ ما وقع لي مع هذه المتّحدثة المتحجّبة، أني كتبتُ مقالاً بجريدة «الوفد» تحت عنوان (تسمية الجرائم بغير أسمائها) أشرتُ فيه إلى ما يقعُ من جرائم صارخة لبعض السياسيين تُسمّى بغير أسمائها، فمثلاً قد راجت كلمة (السلبيّة) لتدلّ على فظائع يجب أن تُوصف بصفاتها الحقيقية مثل الرشوة والاختلاس واغتصاب الأموال، وطرد أصحاب الحقوق مِن ممتلكاتهم، والتهرّب من الجمارك، وإخفاءِ مستحقات الضرائب، وإهداء المناصب الكبرى لمن لا يَعرفون من أمرها شيئاً، وإقْصَاء أهل الكفاءة من ذوي النزاهة وغير ذلك من المستنكرات الفاضحة! فإذا تحدّث ناقدٌ مخلص عن هذه الآفات القاتلة! تصدَّى من يقول له: هذه سلبيّاتٌ! مع أنّ المعنى لكلمة (السلبيّة) هو الامتناع عن الشيء، فأنتَ سلبيٌّ إذا لم تفعل شيئاً، أما أنْ تكون السلبيّة هي الرشوة والاختلاس، واغتصاب الحقوق، وتدبيرُ جرائم الاغتيال، فهذا أمرٌ مضحك حقًّا، إذ لا جريمة إذن على الإطلاق.

ما كادَ المقال يظهر حتى رنّ الهاتف في منزلي بصوت رقيق جاذب، وبعبارات مختارَة ذات تركيز صوتٌ يُعلن الإعجاب بهذا المقال، ويستزيدُ من طرازه، ويقول إنه عبّر عن مشاعر كظيمة في نفس المتكلمة، وكأنّني نقلت من صدَرها ما تلَتْه من خواطر وانفعالات، ثم تسأل لماذا تصفُ

البَلْوى ولا تتحدث عن أسبابها، ولماذا لا تَذكر أسماء هؤلاء المجرمين، وهم معروفون، تراهم في صورهم الخادعة، على صفحات الجرائد، وعلى شاشات التليفزيون، وكأنهم ملائكة أطهار، فقلتُ: قد يكون التلميحُ أقوى من التصريح! فقالت في حسم: هذه أُولى نقاط الضعف وقد سكتّ، لمْ أُجب بشيء. ولكنها اعتذرتْ عن قسوتها، وليسَ في الأمر ما يوجبُ الاعتذار!

انتهت المكالمةُ دون أن أعرف اسم المتكلمة، لأنّها لم تشأ أن تفصح عن ذاتها. وما كان لي أن أطلبَ منها ما لا تودّ، ولكن حديثها معنًى وصوتاً، قد أثّر في نفسي، إذْ إن تسلسل الحديث معَ رنّات موقعه قد ملأ عليّ تفكيري! وتمنّيت أن يطولَ! ولكن كيف؟

لم تبرح هذه المهاتفة خاطري زمناً طويلاً، ولبثت أنتظر مثلها حتى يئست، ولكن الفرج جاء بعد عام، حيث كنت نائماً في الثلث الأول من الليل، فأفزعني صوت الجرس فقمت مستنكراً أنْ أُخاطَب في مثل هذه الساعة، ولكنّ الصوت الحبيب فاجأني بما أزال الغيظ، إذ كانت المتحدثة صاحبتي، فقالت: لقد تعمّدت إغضابك حين هاتفتُك بعد نومك، ولكني لا أخْلُو بالتليفون إلا في مثل هذا الوقت! لقد تحدثتُ إليك لأَسألك عن كتابٍ ضخم تصفحته في الأيام الماضية القريبة، لمؤلّفه الإمام ابن الجوزي يسمّى «ذم الهوى» وقد قرأتُ فيه من الحوادث ما يَجب ألاّ يُذكر من إمام جليل. فما رأيُك في هذا الرجل الذي حَيَّرتني إمامته، حين ينزلق في ذكر روايات آثمة تضرّ القارئ ولا تفيده، وهل تجهل أثر ذلك لدى قرّائه، وهو إمام مشهود المكان!

وكنتُ قد قرأت الكتاب من قبل، وعرفتُ ما أنكَرتْه المتحدثة الفاضلة، وكأنّي أردتُ أن أعاود معها الحديث في مكالمةٍ تالية، فقلتُ لها، سأقرأ الكتاب غداً، فإذا تفضلّتِ بالمكالمة، فسأجيب بارتياح، وأذكر لكَ بدءاً، أن أكثر المؤلفين في الماضي يعتمَدون على الإسناد في الروايات ويَخْرجُون من عهدتها دون تحقيق لما يُرْوَى، وابن الجوزي كما أتذكّر كان يذكر الأسانيد قبل الروّايات لدرجةٍ تدفع إلى الملل، وهو بذلك يقولُ للقارئ إنّ هؤلاء الرواة هم الذين ذكروا، فلْتصدّق أو لا تصدق!

فقالت مُسْرعةً: ليس هذا اعتذاراً، فعلَى المؤلف أن يُسقط كلَّ ما يظهر بطلانه، والرجل قد ذكر من الروايات ما يشملُ على قبائح خُلقيّة وضيعة ما كانَ أحراه أن يبتَعد عنها، قلت هذا رأيي أيضاً، وسيتصل الحديث في الهتاف التالي:

انتهت المكالمة، وعرفتُ منه أن المتحدثة مثقفة، تُطالِع وتقرأ وتنقد، وأن مثلها ذات حظ كبير في البحث والتدقيق، وكم ودَدت لو أعرف اسمها أو عنوانَها أو رقم تليفونها، ولكنها ضنّت! وقد تعيد الحديث قريباً كما وعدت فأسعد بها.

وقمت من فوري فأحضرتُ كتاب ذم الهوى لأنّ محققه الدكتور البحاثة مصطفى عبد الواحد كان قد تفضّل بإرساله إليّ، فوجدتُ من الأنباء فعلاً ما كان يجب حذفه، وجعلتُ أدير في نفسي ما سأقوله إن سُئلت.

وكأنّ المتحدثة كانت على شوق لمعرفة ما أحكم به في شأنِ الكتاب، ففي الليلة التالية مباشرة تفضلّتْ بمهاتفتي، فشكرت لها اهتمامها، وقلت أنا أوافقك بعد الاطلاع على الكتاب على نقدك الحصيف، ومُحقّق الكتاب

الفاضل يوافقنا معاً، فقد قال في بعض تعليقاته ص ٤٥٣؛ هذا من الأخبار البشعة التي ترخّص ابن الجوزّي في إيرادها، وليتُه ما انزلق إليها، وهي لو صَحّت لكانت صورةً من صور الانحلال الذي أصابَ المجتمع القديم، وأشاعَ فيه هذه المآسي والأحداث. وكأني أردتُ أن أعيد لها ثقتها في ابن الجوزي فقلتُ إن لابن الجوزي كتاباً رائعاً سينالُ إعجابك تماماً،هو كتابُ «صيد الخاطر» إذ كان أشْبَهَ بترجمة ذاتية له، فقدْ تحدث كثيراً عن خطراتِ نفسه أمامَ المغريات الدنيوية، وكيفَ كابدَ رهقاً في البُعد عن هذه عن الشهوات ذات الطعم الجاذب، وضَرَب المثال بذلك للإنسان البصير الذي يفكّر في أمر آخرته قبل أن ينغمس في مَلاهي دنياه، وله جرأةٌ حميدة في الاعتراف بأخطائه، وهذا الكتاب سيرفع من قدر الإمام لديك، فقالتْ عاجلة: سأشتريه غداً، ولعلّي أسعد بقراءته؛ ولم أشأْ أن أطيلَ معها الحديث، بل كنتُ أجيب فقط على الأسئلة في احتراز، لأنّي أحرص على مودتها ومن أسباب بقائها ألاّ أتدخّل في أي موضوع دون أن تكون البادئة فيه!

٭

أخذتْ هذه الفاضلة تَشْغل جانباً من فكري، لأنّي أريد أن أعرف من هي؟ وفي أيّ بلدة تقطن؟ وما حالتها الاجتماعية؟ وما رقم تليفونها؟ ولكنّ هذه أسئلة لا يمكن الحصول عليها إلاّ منها، وهي لم تشأْ أن تجيب على أحدها! وقد تذكرتُ قصّة أحلام شهرزاد التي كَتبها الدكتور طه حسين، ونُشرت في سلسلة إقرأ، فهذه القصّةُ الأدبية الجميلة قد جعلتْ شهرزاد لُغْزاً في نظر شهريار، تأتيه على حين غفلة حين يبدأ في النوم فتحدثه حديثاً شائقاً دون أن يراها، لأنّه يسمع فقط، ثم تفرض عليه ألواناً من التفكير، وتُوقعه في غموض لا يدري كيف الخلاص منه، فإذا انتهتْ من آرائها

المفاجئة، تركتْه، واستيقظ ليسأل هذا السؤال الحائر من هي؟ ومَن تكون؟ والفرقُ بين القصة الواقعية لديَّ والقصة الخيالية لدى الدكتور طه حسين ليسَ ببعيد بل هو قريب قريب!

وفي صباح يوم بعدما يقَرب من شهريْن، وصَلني خطابٌ على بريد الكلية، فقرأتُه، لأعلم أنّه ورقةٌ من مجلة «نصف الدنيا» تحملُ إجابة أستاذة في الجامعة عنْ سؤال اجتماعي، وفي الأعلى هذانِ اللّفظان. «ما رأيك»؟ لم يحْمل الخطاب غيرَ هذه الورقة؟ وليسَ على الظرف ما يُوحي بمصدره البريديّ على وجه التحديد، لأنّه من بريد القاهرة ذات الأثنى عشر مليوناً من الناس! مَن يكونُ المرسل؟ أو مَن المرسلة؟ إن عنوان الظرف مكتوبٌ على الآلة الكاتبة، فعزَّ عليّ أن أعرف مِن الخطّ، أهو خطّ رجل أو امرة؟ ثم مِلْتُ إلى أن صاحبة الهاتف هي التي أرسلت الخطاب؟ وإذا كان ذلك كذلك، فكيفَ أجيب؟ وعلى أيّ عنوان يصل الرد بالبريد.

وبعد أسبوع دوّى الجرس الليْلي فصدَق وهمي إذ قالت المتحدثة: هل وصلك السؤال الخاص بمجلة (نصف الدنيا) قلتُ نعم، قالَتْ وما جوابُك؟ قلتُ إن السؤالَ له وضْعُه الملزم، وسأنشر مقالاً عنه في جريدة (صوت الأزهر) ولعلّي فعلت؟ قالتْ أرجو أن ألّم بالإجابة فقد لا تقع في يدي الجريدة، قلت هيّا!

أما السؤال التي توجهتْ به المجلة إلى نفر من الأساتذة، فهو هذا: هَل يجوزُ أن تتزوج الفتاة القاهرية من الريف، أو يجوزُ أن يتزوج الريفي من فتيات القاهرة؟ والسؤالُ لا يجد موضعاً من الرّد؛ لأنّ الواقع العملي قد أجابَ عنه بما لا يحتمل التردّد، فآلافُ السيدات من الريف قد تزوجن من

القاهريِّين، وآلافُ الأزواج من القاهريين قد تزوجْن من الريف! وما رأيْنا أدنى مشكلة ترتبت على ذلك؟ ولكنّ المجلة أرادتْ ملء الفراغ بأيّ حديث جلّ أو هان، أما الإجابة التي كانتْ موضع الغرابة جدًّا من أستاذ الاجتماع في إحدى الكليات المرموقة فهي بالحرف الواحد: «إن ارتباط الشابّ الريفي بالفتاة القاهرية فكرةٌ مستحيلة، لأنّ لهذا الشاب عاداته وتقاليده المختلفة عن أهل المدن، ففتاةُ المدينة قريبةٌ من أهلها، وهي تصافح أولاد خالها بالقُبلات البريئة، وهذا شيءٌ طبيعي، ولكنّ الشاب الريفي يرَفض ذلك رفضاً باتاً حتّى ولو كان من أغنياء الريف فتقاليده تخالف تقاليد فتاة المدينة».

هذا ما أجابت به الأستاذة! وهي إجابةٌ مضحكة، لأن المانع لديها فقط هو إباحةُ القبلات بين الأقارب والقرينات التي يحرّمها المجتمع الريفي! وقد عجبت كثيراً لهذا الشذوذ النادر في الإجابة ورَددت عليه بما هو معروف من رأي الشّريعة في القبلة المحلّلة، والقبلة المحرّمة، وقرأتُ لصاحبتي نص الإجابة كما أرسلتها للجريدة. فقالت: إني غضبت كثيراً من إجابة أستاذة علم الاجتماع بالجامعة، لاَ لأنها مخطئة فحسَب، بل لأنّها لا تدْري شيئاً عن واقع الفتاة القاهريّة فهي مسلمة لا تفترقُ في هذه الناحية عن أختها الريّفية، فكيف تجهل الأستاذة هذه البديهة وهي أستاذة علم الاجتماع! وأفاضت في ذكر عجائب مما قرأت عن بعض أساتذة اليوم واستاذات المادة المظلومة، وكأنّها تقرأ من كتاب مسطور، وكان إلقاؤها يرن في سمعي رنين الحلى في أيدي الغواني كما قال أبو الطيب المتنبيّ، فشكرتها، ولم أُتمْ بعد المكالمة، إذ كانَ صدى الحديث يملأ آفاق فكري على نحو ما قال الأستاذ خليل مطران :

يسكتُ الأيكُ والمسامع مَلأى بشجيّ الغناء والترديد!

وأظنني قلت في مثل هذا الموقف:

ما رنّحَتْ نبراتُ صوتك لسمعي	إلاّ لتشعل بي الجديد من الهوى
تطويه أمْواج الأثير فليتها	تُحيْي مسامعنا فتنشرَ ما انطوى
أو ليتَ لي منه شريطاً نَاطِقاً	فأظلّ أسمعه على رغم النوى
وأكادُ ألمح وثْبه متطايراً	حتّى ليعلو فوق أرفع مستوى
غردٌ يزيد الكون سحر وضاءة	فكأنّ صبْحاً في مقاطعه ثوى
يرْوي حشاي صداحه فإذا انقضْت	نبراته أبْقت، غليلاً ما ارتوى

ثم مضتْ مدّة أعتبرها طويلة بالنسبة إليّ، ولكنّها في الواقع قرابةُ شهر فقط، لم تُحاول أنْ تحدثني، وكنت أتساءل: أهي مريضةٌ؟ أم أنّ ما عندها من الأسئلة قد نفذ فلم تَعد في حاجة إلى إجابة مني أم أن إجابتي لم تكُن بالدرجة البالغة حدّ الإقناع! ثم جاء ما لم يكن في الحسبان!

لقد بدأ الموسم الثقافي بالأزهر، وكُنتُ أول المتحدثين به، ونَشَر الأهرام إعلاناً عن مُحاضرتي بقاعة الإمام محمد عبده مُحدّداً الساعة واليوم، واتجهتُ بعد صلاة المغرب إلى القاعة وجلستُ على المنصّة وكانَ الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد الطنطاوي شيخ الأزهر والدكتور محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف والدكتور أحمد عمر هاشم رئيس الجامعة يجلسون معي في مواجهة الجمهور، وكان عنوان المحاضرة (حرية الفكر في الأزهر الشريف) حيث تعرضتُ إلى حركة التجديد في مطلع القرن العشرين. وأشدتُ بمدرسة الإمام محمد عبده التي اتبعتْ نهجه، وأيدّتْ دعوته في الإصلاح الأزهري، واحْترمتْ حرية الفكر ممثلةً فيما صَدر من كتب، وفيما

ردَّ به المعتدلون على حركاتِ الإلحاد، ودَعوى التنوير الكاذب، وأفضْتُ في وجوب الاهتمام بالدراسات العليا بالأزهر لأنّها منذُ عشرين عاماً أخذتْ في الهبوط، بحيث لا تُقارن الرسائل العلمية الآن بما قبلها كيفاً وجدّة، وابتكاراً، وعلَّلتُ هذا الهبوط مقترحاً ما أراه من وَسائل الإصلاح المنشودة، وقد عقّب الأساتذة الذين يجلسون معي على المحاضرة تعقيباً أضاف الجديد، وخرجتُ من القاعة معتقداً أني بذلتُ جهد المستطاع فيما ألقيت من حَديث، وبتّ الليلة في القاهرة لدَى ابنتي، نظراً لتأخر الموعد أكثر مما كنت أتوقع.

وفي الليلة التالية رنّ الجرس في الوقت المعهود، وكانتْ هي المتحدثة، ففَاجأتْني بما لم أكن أتوقّع، إذ قالْت إنها قرأتْ في الأهرام عن محاضرتي، وعَرفت الزمان والمكان فأسرعت بالحضور مع صَديقتيْن عزيزتين لديها، واستمعْت إلى كلّ ما قلتُه، ورأتْني رأي العيان لحماً ودماً كما قالْت، وهي تعتبُ لأنّ إحساسي الرقيق ـ هكذا تقول ـ لم يَفْطِن إلى وجودها، فدهشتُ مما سمعت، وشكرتُها أن تَفضّلْت بالحضور فأضافت الآن إلى نفسي سعادة كنت في حاجة إليها، ثم قالت:

لقد سررتُ كثيراً من حملتك على الرسائل الجامعية التي تُمنح اليوم لمن لا يستحقون فهي تعرف من أقاربها أكثر من إنسان يحمل الدكتوراه، دون أن يظهر له أدنى تميّز، بلْ إن حديثه في اجتماعات كثيرة لا ينبئ عن شخص يحملُ أعلى الدرجات العلميّة، وقد فكّرت في هذا الانحدار المخيف فلم تهتد إلى رأي، وبعدَ حديث دار هذا المدار، قلتُ لها لقد عرفتُ شيئاً كبيراً عنك، هو أنك من القاهرة، ولذلك تفضّلتِ بالحضور، وبقيْت أشياء أخرى في الطريق، فقالتْ وهي تضحك ومَن يدريك أنّي من

القاهرة ألا يُحتمل أن أكون زائرةً لها في هذه الأيام، حيث أقيم لدى بعض أقاربي! قلْتُ هو احتمال، ولكنه بعيد!

وحين انتهى الحديث أخذتُ أتحايل على ذاكرتي لأتذكّر وجوه السيدات الثلاث اللاتي كنّ في المحاضرة، وعبثاً حاولت، وخشيتُ أن أسأل بعض الحاضرين من زملائي عنهن، وفيهم مَن كان قريباً من مجلسهنّ، فالسؤال بكل المقاييس غريب وغير معقول.

أرجعُ إلى مقال الدكتور زكي مبارك الذي بدأتُ به الحديث، فأقول، إنه ختم المقال بعبارات صادقة منها:

«الصحيح أننا لا نجد السعادة الحق إلا إذا تَلاقَينا وجهاً لوجه؟ وتصافحنا يداً بيد، وآذنّا الناس بما نحن عليه من وداد وصفاء؟

أشعرُ يا مولاتي بأنّ موازين الأحكام الروحية قد اختلّت بعض الاختلال، وإلاّ فما بالنا لا نصدّق بالتصافي التّام إلا إذا تصافحت الأيدي وتلاقت الوجوه».

هكذا قال زكي مبارك فما عسى أن أقول؟ على أني أسعد كثيراً حين أخذتْ تتحدث معي حيناً بعد حين في شجون من فنون الأدب والدين فأحس أن ظلام الليل يوشك أن يزول..

لَيْلةٌ نادِرةٌ في شَهرِ رَمَضَانِ

تغيرت تقاليد رمضان في هذا القرن عما عهدناه في القرن الماضي أو في نصفه الأول على التحديد، وقد تحدثت في العام الماضي عن سهرات شاعر الربابة في هذا الشهر الكريم، وأريد اليوم أن أتحدث عن بعض حلقات الذكر في هذا الموسم، إذ كانت هذه الحلقات ذات رواج ذائع في المساجد، ولها عشّاقها الذين كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر، لأنها تضفي كثيراً من البهجة الروحية على نفوس صافية تريد أن تؤكد صلتها بالسماء في حفل بهيج كله نشاط ومتعة وإيقاع، ويزيد من متعته الروحية أن الذين يَقُومون بالذكر قضوْا نهارهم صائمين، وقد أقبلَ الليل عليهم ليضيفوا إلى ثواب الصوم لدى الله ثواباً آخر فيما يقومون به من ذكر جماعي يتخلّله الإنشاد الديني، وله من المتهللين مَن يقوم بالترجيع الخاشع، ومَن يجلس وسط الحلقة ليضربه بيده متجاوباً مع رنات المنشد، وقد يكون الجالِسون جماعة إذا اتسعت الحلْقَة فامتدّ صفّاها إلى الجداريْن المتقابليْن، والمنشد يصدح والذاكرون يهتفون بأسماء ذي الجلالة، الله، الله، حيّ حي، هو هو مبعث وفق نظام متعارف لا يحيد عنه إنسان، وأذكر أن الدكتور طه حسين قد وصف في الجزء الأول من الأيام بعض حلقات الذكر فقال عن اجتماع

الذاكرين «إنهم يذكرون الله أوّلاً قاعدين ساكنين، ثم تتحرك رؤوسهم وترتفع أصواتهم قليلاً، ثم تتحرك أنصافهم وترتفع أصواتهم قليلاً، ثم تنبثُ في أجسامهم رعدة فإذا هُمْ جميعاً وُقوف، وقد دُفعوا في الهواء كأنما حركهم لولب». ويظهر أن حلقات الصعيد التي وصفها الدكتور تختلف بعض الشيء عن حلقات الوجه البحري، حيث أن ما شهدتُه من الحلقات، لا يبدأ بالذكر الصامت فجأة، بل يبدأ بقراءة أجزاء القرآن، حيث يأتي صندوق من بيت شيخ الفقهاء ويضم ثلاثين جُزءاً، هي جميع أجزاء القرآن. ثم توزع الأجزاء على الجالسين فيقرأ كلّ إنسان ما بيده من كتاب الله. حتّى إذا فرغوا من ذلك كان كتاب الله قد قرئ جميعه، وتُجتمعُ الأجزاء لتوضع في الصندوق كعهدها السابق ثم يأتي قارئ حسن الصوت فيفتح المجلس بقراءة ما تيسّر من آيات الله، وفق اختيار دقيق لآيات الترغيب والترهيب مما ينقل السامعين إلى العالم الروحيّ، فإذا انتهى من قراءته ابتدأ الذكر الصامت على نحو ما ذكره الدكتور، أمّا عند الخاتمة فلا بد أن تُوزع النّفحة، وهي قطع صغيرة من الحلوى، يتبرّع بإحضارها أحد الذاكرين طيلة شهر رمضان لتوزع على الذاكرين تذكير بطعام أهل الجنّة ومنهم من يحتفظ بها كعلاج روحي للشفاء إذا نزل به داء. لأنّ جو الذكر والخشوع قد خلع عليها في اعتقاده ما يجعلها بعض أسباب الشفاء!

لقد كان المتبّع أن تقام الحلقات في هذا الشهر الكريم كل ليلة، فهي من الأمسيات الدينيّة التي لا تقل مكانة عن دروس الوعظ في المساجد بعد العصر، وبعد المغرب، بل إن بعض هذه الدروس في المساجد الكبيرة، يخلق جواً من الانتعاش الروحي، فينهض السامعون فجأة لينتظموا في حلقة الذكر تهليلاً وتسبيحاً، وقد حدثني أحد أساتذتي بالأزهر منذ عهد طويل أن

الأستاذ الكبير الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية كان يلقي في العشرينيات درساً دينيًا في شهر رمضان بمسجد الحسين بعد صلاة العصر، وقد اختار حكيم ابن عطاء الله المسكنوري موضوعاً لدروسه الرسميّة، وفي أحد هذه الدروس تعرّض لشرح قول ابن عطاء الله عن ربّ العزّة.

كيف يتصوّر أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الواحد ليس معه شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أقرب إليك من كل شيء؟ كيف يتصور أنْ يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود شيء؟

وكان السامعون في شبه انجذاب روحي يتفاعلُ مع هذه المعاني، فنهض أحدهم صائحاً لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، فهبّ الجالسون جميعاً من ورائه، وانتظموا تلقائياً في حلقة صوفية ذات رنين وابتهال، ونزل الشيخ بخيت رحمه الله ليجلس وسط الحلقة إذ كان في سنّ متقدمة لا تسمح له بالنشاط كتلاميذه الشبان، وظلت الحلقة ممتدة حتى أذّن المغرب، فآثر القوم أن يأكُلُوا سندويشات الفول، ولم يذهبوا إلى منازلهم، ليعتكفوا في المسجد حتى يؤدوا صلاة التراويح بعد العشاء! وهم في جوّ رُوحي شغلهم عن الحياة والأحياء!

أخلص من هذه المقدمة إلى وصف ما أريده من الحديث عن ليلة من

ليالي الإيمان في أول يوم من رمضان قُدّر لي أن أكون سبباً في إقامة احتفال دينيّ بها ترن فيه الأذكار، وينتصب المحيا هاتفاً بألحان السماء، فقد كنت زميلاً للمستشرق الكبير الأستاذ عبد الكريم جرمانوس في إحدى زوراته للقاهرة الخاصة بدورة مجمع اللغة العربية السّنوية، حين ذهبت معه لزيارة مسجد الإمام الشافعي، فقلت له: وهل نسيت عمر بن الفارض سلطان العاشقين، إنه قريب منا، فرحّب باقتراحي، ومضى يتحدث عن نوادر طريفة تُروى عن العارف بالله شعراً ونثراً وسرنا في الطريق فقلت له إن هذا الطريق كان يسمّى في العهد الأيوبي (وادي المستضعفين) فقال: تسمية وافقت معناها، إذ لا يوجد مستضعف أذلّ من عاشق، فما بالك بسلطان العاشقين.

ولكنّ سرورنا لم يتم، إذ ما كدنا نصل إلى مسجد الشاعر الكبير حتى رأيناه مهجوراً تظلّله الوحشة وليس به من زائر، والمصابيح منطفئة، ولا أدري هل انقطعت الكهرباء فجأة في هذ المساء أو كان انقطاعها دائماً، وقد كان ظلام المسجد، وانصراف الناس عنه، ممّا خلع على نفسيّنا كآبةً قاتمة، فقال الدكتور جرمانوس: لو لم يكن ابن الفارض صوفياً كبيراً، لكان شاعراً قديراً، فكيف يهمل مزار نابغة مثله، إن عبقريات الشعراء المشاهير من أمثال أبي تمام والبحتري والمتنبي متشابهة لأنها تأخذ من بئر المدائح الإنسانية، أما عبقرية ابن الفارض فمصدرها النبع الدافق من القلب الرقيق، وقد تكون خبرته بالحياة العامة قليلة، ولكنّ خبرته بالنفس العاشقة ذات عمق بعيد، وانتهت الزيارة، ولكن صداها كان أليماً في نفسي، فاتجهت في صبيحة الغد إلى الجامع الأزهر وبه الشيخ العارف الشهير صالح الجعفري رحمه الله، ولي به صلة حميمة، وكان الرجل يرى بنور الله فقال لي حين

رآني: ما تركت عملك وجئت في الصباح إلا لأمرٍ شغلك فما هو؟ قلتُ: وأي أمرٍ يا سيّدي، لقد كنت في مساء الأمس أزور مسجد عمر بن الفارض، فلم أجد به إنساناً ولا سراجاً حتى ماء الوضوء كان منقطعاً، لقد أحسَسْتُ أني فقدت أملاً كبيراً جئت إليه سعيداً، فرجعت حزيناً؟ لماذا لا تهتم وزارة الأوقاف بالمسجد، وهي تهتم بمساجد تحمل أسماء لا نعرف عنها شيئاً! ما شعور الشاعر الدفين بجسمه، الحيّ بروحه، وهو يرى الوحشة تكتنفهُ في كل مكان، فقال الشيخ صالح، ما نَصّه: صَهٍ يا مولانا إن روح الشاعر العارف بربه تطرد كلّ وحشة، وهو في قبره يعيشُ في رَوْضةٍ من رياض الجنّة، فالوحشة لا يعانيها ابن الفارض، ولكن نعانيها نحن! قلتُ وماذا نصنع إزاء هذه الحالة؟ فسكت الرجل قليلاً، ثم قال: نحن الآن في الأيام الأخيرة من شعبان، وعليك أن تحضر في اليوم الأول من رمضان إلى مسجد ابن الفارض قبل الغروب بساعة لترى احتفالنا به قلت وكيف؟ قال لا تنس الموعد، وتوكّلْ على الله!

كنت أعرف عزيمة الشيخ وصدق حديثه فلم أتردّدْ في تصديق ما قاله، وأخذت أنتظر مرور الأيام حتى حان اليوم المرتقب، فاستأذنت أولادي بالفيوم أن أتركهم في أول أيام الموسم السعيد، لأسافر إلى القاهرة في عمل ضروري ـ هكذا قلت ـ وما كدت أصل إلى الطريق المتجّه للمسجد، حتى رأيته مُحاطاً بأناس كثيرين من مريدي الشيخ، وفيهم من يضع القدور على النار، وبجوارهم أكداس الخبز الطريّ، وما خالطت القوم حتى عرفت أن الشيخ صالح سيحي الليلة بالمسجد، وأن أحبّاءه جاءوا بالمصابيح الغازية ليكونوا على مأمن إذا انقطع التيار الكهربائي فجأة، كما عرفت أن هذه القدور تمتلئ بالفول المدمّس، إذ رأى الشيخ أن يكون الإفطار منه، أما ما

جاور القدور من أقفاص الفاكهة فهي للسحور، وقد اتجهت إلى المسجد فكدت أضيع في الجمع المحتشد به، ثم علت ضجّة، فانتبهت لأرى الشيخ صالح الجعفري يقدم بقامته الفارعة، ساحباً عباءته الفضفاضة، وبيده مسبحته الشهيرة، وخلفه جمع من مريديه، وما كاد يطأ سجّاد المسجد، حتى اتجه إلى الضريح في شوق، ثم عَلاَ صوته هاتفاً بقول الشعر:

وأقرب ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

ثم أخذ يحتضن الضريح، فخيل إليّ أن الشيخ يعانق صديقاً يتقبل أنفاسه، ويسمع صوته، ويتمتع بدفء حنانه، وقد اهتاج الحاضرون هياج الطرب، وغمرهم روح من التواجد، فانتصب المحيا تلقائياً، صفوفاً خلف صفوف، والشيخ في الوسط يتواجد ويترنح، وقد حضر جميع من كانوا خارج المسجد ليشاركوا في الابتهال، ويستمعوا لما ردّده الشيخ من شعر ابن الفارض إذ يقول:

كلّ من في حِماكَ يهواكَ لكن أنا وحدي بكل من في حماكا

لك في الحيّ هالك بك حيّ صام واستعذب العذاب هناكا

وبشيري لو جاء منك بعطف ووجودي في قبضتي قلتُ هاكا!

ولا أدري لماذا هب نسيمٌ كلّه عطر، حتى رحت أتساءل: هل حمل بعض الذاكرين قارورة عطر وأراقها! أم أن هذا الجو الروحي جعل للهواء رائحة غير التي نعهد؟ ولم ينقطع المحيا حتى ارتفع صوت المؤذن فخشعت الأصوات للرحمن! ثم اتجه الشيخ إلى المحراب، فأدينا الصلاة خلفه، ولم

يُظِل، حيث جلسنا في صفوف، لنتلقى لفائف السندوتش تحمل ما يحليها من التوابل والسلطات، وكانت مهلة للراحة، حدّدها الشيخ بأذانِ العشاء!

حان موعد الصلاة فأم الشيخ، وقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة خاتمة سورة الكهف ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (الكهف: ١٠٧) قرأ الآيات بصوت شجي كأنه ترجيع الطير، وقرأ في الركعة الثانية بعد الفاتحة قول الله تعالى في خاتمة سورة غافر، وقد بلغ ترتيله غاية الروعة حتى ليخيّل لسامعه أنه يبكي، قرأ قول الله، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ. فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ. فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (غافر: ٨٢ ـ ٨٥).

وتبعت فريضة العشاء سنّتها، فَصَلاتَا التراويح والوتر، وجلس الشيخ ليعظ، فجعل يتحدث عن أنبياء الله ورسله، ويلم بشذرات من أخبار المتصوّفة، حتى وصل إلى عمر بن الفارض فأفاض في سيرته إفاضة مدهشة، إذ حدّثنا بما نعلم ونجهل معاً، واختار نبذاً من خطراته الوجدانية أذكر منها ما رواه عن الشاعر العاشق من أنه كان يمشي ذات ليلة في سوق القاهرة، فمرّ على جماعة من حُرّاس البضائع. إذ لم يكن للدكاكين أبواب حينئذ، ولكنّ حرّاساً منتظمين يكلفون بحراستها لقاء أجر شهري، وكي يطردوا النوم جعلوا يترنمون بأبيات شعرية سمع ابن الفارض مِنها:

مولاتي سهرنا نبغي منك وِصالْ مولايَ فَلَمْ تَسْمحْ فقنعنا بخيالْ
مولاتي فلمْ يطرقْ، فَبِلا شكٍّ ما نحنُ إذنْ عندك يا مولاتي ببالْ

فصرخ عمر صرخة مدويّة حين سمع (ما نحن إذن عندك يا مولاتي ببالْ) وأقبل الناس على الوليّ الصارخ، وتحلق حوله المارة وهم يردّدون معه (ما نحن إذن عندك يا مولاتي ببال) وترك الحرّاس أمكنتهم حين سمعوا الضجيج، وجعلوا يكرّرون الأبيات، والحاضرون يذكرون مبتهلين، وترنّح القوم، وسقط الكثير على الأرض مُتواجدين، وسقط معهم عمر بن الفارض فحملوه على الأكتاف، وساروا به في حفلة ذكر متنقلة، ومنهم من خلع ملابسه، ورمى بها في الطريق، وظل يذكر في شبه غيبوبة، ثم أعاد الشيخ الأبيات السابقة بإيقاع شجيّ لا يسمح به في كثير من الأوقات، وأخذته الصبوة فانتصب واقفاً، وانتصب من خلفه سامعوه، وهم يملئون ساحة المسجد، وانتظمت حلقة ذكر تلقائية ما شهدت مثلها إلا في القليل، وأذكر أن الشيخ قد جلس ليستريح، وجلس معه القوم، ثمّ دَارَ بعينه فرآني، وسألني، ماذا سأنشد مما تختاره أنت في النوبة الثانية من شعر ابن الفارض، فقلتُ إني لا أملّ سماع القصيدة الغينية، فقال: بارك الله فيك، لقد خطرت على بالي، وأنا أراجع بيني وبين نفسي قصائد الديوان، إن هذه القصيدة ذات نَفسٍ حار، وذات نبض دفّاق! ودارت كؤُوس القرفة فشرب من شرب، حتى إذا تمت الراحة على نحو مستطاب، نهض الشيخ للذكر مرة ثالثة، وما كادت الأرواح تتجاوب حتى سبح الشيخ في جو ابن الفارض، فأنشد قوله:

أبرقٌ بَدَا من جانب الغور لامعُ أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقعُ

أنارُ الغضى ضاءت وسلمة بذي الغضى أم ابتسمت عمّا حكته المدامعُ

ألا ليت شعري هَلْ سليمى مقيمة بوادي الحمى حيث المتيّم والعُ

وهل عَذَباتُ الرّفد يقطف نَوْرها وهل سلماتٌ بالحجاز أيانعُ

وهل ظبياتٌ بالغُويْر يُرينَنَي مرابع نُعْم، نِعْم تلك المرابعُ

وهل ظِلُّ ذاكَ الضّالِ شَرقي ضارج ظليل فقد روّتهُ مني المدامعُ

وهل عامرٌ من بعدنا شعب عامر وهل هو يوماً للمحبين جامعُ!

ولا أذكرُ أن حَلاوةً للإنشاد قد تذوقها من مُنشد ـ على كثرة ما سمعت ـ كما استمرْأتُ هذه الحلاوة.

والعجيب أن الذاكرين من العامة وأكثرهُم من أرباب الحرف المتواضعة ممن لاتؤهلُهم معارفُهم وخبراتهم إلى فهم الدقيق من هذه المعاني، قد بلغ بهم الطرب الوجداني أبلغ ما يتصوّر، ولله في ذلك سرٌّ لا أدريه، أما أنا فقد خُيّل إلي أنّ الذي ينشد الأبيات هو عمر بن الفارض نفسه، لاَ الشيخ صالح، وقد حدّثته بما تخيّلت، فقال إني لا أشك أنه كان حاضراً معنا وأنه هو الذي خلق هذا الجو الروحاني بين الذاكرين!

وبعدما يقرب من ساعة ونصف، جلسنا نستريح؛ وانفرد الشيخ في المحراب خالياً للتسبيح، بينه وبين نفسه، وكذلك فَعل أكثر الحاضرين، وجاء من مريدي الشيخ من يفرقون الفاكهة من برتقال وموز وجزر وطماطم، لتغنى غناء السحور، فأخذنا نأكل مستمرئين، وسقاة الماء من المتطوعين يدورون علينا بالأكواب، فكان الماء خاتمة السّحور.

وارتفع الابتهال قبل أذان الفجر، فكثرت ركعات التهجد، وترددت

التسابيح من الشفاه ردحا من الوقت، ثم انشق عمود الفجر الصادق فدوّى الأذان، وخشعت النفوس، وتليت آيات من القرآن، نهض الشيخ بعدها للإمامة، ومن خلفه جميع الحاضرين!

وجئتُ أسلّم عليه بعد انتهاء الصلاة، فضغط على يدي وقال: هل أدّينا بعض حق سيدنا عمر، ثمّ قال: ولنا عودة إذا أذن الله، وتفرق الجميع رجالاً ورُكباناً حتى وصلنا إلى محطة الترام بعد ليلة ساحرة من ليالي رمضان!

وبعد، فقد ينكر بعض قرّاء اليوم ما للإنشاد في حفلات الذكر من تأثير، ولكنه واقع مشهود، بل رويت فيه من الغرائب ما لا يكاد يُصدّق، ومنها ما ذكره الدكتور زكي مبارك في كتاب «التصوف الإسلامي» وهو رسالة جامعية ناقشها كبار المفكرين في مصر من نشهد لهم ببعد النظر وبراعة التصويب، وعنها أنقل ما يأتي جـ (١) ص ٣٣٤.

«والمغنّي [المنشد] كان يسمّى «القوّال» وللقوالين نوادر كثيرة مع الصوفية من ذلك ما وقع حين زار ذو النون المصري بغداد، فقد حضر أحد تلاميذه مجلس أحد القوّالين، فلما طاب السماع، وتواجد السّامعون، صرخ هذا التلميذ ووقع على الأرض فحركوه فوجدوه ميّتاً، أقول وإلى هنا والأمر طبيعي فقد يكون لدى التلميذ مرض قلبي لم يتحمّل هزات الذكر فانكفأ ميتاً، ولكن غير الطبيعي أن يقول الدكتور زكي مبارك بعد ذلك فوصل الخبر إلى ذي النون فقال لأصحابه: تجهزوا حتى نصل إلى هذا القوّال، فلما وصلوا دارت الحلقة وأنشد ذو النون، والقوّال يسمع، ثم صرخ ذو النون فوقع القوّال ميّتاً، فقال ذو النون: أخذنا ثأرنا، قتيل بقتيل

هذه النادرة كانت تحتاج إلى توثيق يدفع عنها الشك الصريح، ولكنّ الدكتور زكي مبارك، ذكر لها أشباهاً وأمثلة ممّا سجلته كتب التصوف عن منشد يسمّى الشجاع جبريل، كان يؤثر في بعض السامعين فيموت منهم من يموت! وقد اعترف ابن خلكان أنه شاهد وقائع هذا القوّال بنفسه. ورأى بعينه كيف مات أحد السّامعين، وابن خلّكان لم يكن متصوفاً، ولم يذكره من المناقب عن الصوفية، إنما كان مؤرخاً يلتزم بالواقع! فبم نفسّر ما كان؟

لقد ضاع الكثير من مباهج رمضان الروحيّة في المُدُن والقُرى هذه الأيام. فلم تبقَ سهرات القرآن في المنازل، ولا حلقات الذكر في المجالس، ولا ابتهالات اللّقاء ونواميس الوداع في المآذن، ولا امتداد الموائد قبيل المغرب أمام البيوت ليفطر مَن يشاء كرماً يتدفق في شهر كريم، والذي بقي مسلسلات الخلاعة وبلاهة الفوازير، ورقصات المجون على الشاشة البيضاء (ابتهاجاً) بالشهر الكريم!

كدنا لما جدّ من عكس الأمورِ بنـــا نمشي على الرأس لا نمشي على القدم

بين الكتابة والقراءة

إذا أردتُ تأليف كتاب في موضوع أختارهُ أو توجيه ظروفٌ خاصة، فلا بدّ من تنظيم القِراءة، بعدَ أن أجمَع المراجع، لأستَوعب ما يمكن أن يكونَ موضع رَصْدٍ ومناقشة، وفي هذه الفترة قَلَّ أن أقرأَ غير ما يتصل بالبحث الذي أعكف عليه، إذ يتلبسّني نشاط موّجه إلى ما أنا بسبيله، وقد يَقع في يدي كتابٌ جيّد يثير الانتباه، فأُقفله عن عمد، كيلا تَتشتت أفكاري التي تتكامل في خاطري، وكأنّها حلقات في سلسلة مديدة، وقبل أن أبدأ الكتابة أكونُ قد فرغت من استيعاب المراجع، ووضعت عَناوين البحث كما تتراءى بَعد القراءة، وقد أتركُ فرصةً هادئة، للتفكير الصامت إذ أعتمدتُ على إحساسٍ داخلي يُساعدني على التحليل والاستنباط، وأُفاجأُ بما أصل إليه أثناء هذا التفكر الصامت، لذلك أرى أنّه لا بد من فترات السكون الهادئة لتتعارف المعاني وتتلاقى على وجهٍ صحيح، كما يشعرُ شارب الماء بالارتواء بعد الشراب، كأنّي بعد هذا السكون الصامت أَحسّ جيشانَ الأفكار في نفسي، وأخافُ عليها أن تشرد فلا أستطيع استيعابها إذا أرجأت الكتابة، فأحضرُ الورقة والقلم وما أريده من المراجع، وأبدأُ في تحرير الفصول، وقد عودني الله التدقيق فيما أحاوله، ومنه العون والسداد.

هذا حين أريد أن أؤلف كتاباً في موضوع معين، أما في غير أوقات التأليف فإني أصارح القارئ ـ وقد يكون هذا عيباً ـ أني لا أتبع طريقة منظمة في القراءة، بل قد أجد كتاباً في يد صديق ولم أفكّر في موضوعه من قبل، فأستعيره إذا راقني محتواه، وأبدأ في قراءته، وقد عهدتُ نفسي أن أسارعَ إلى قراءة كل كتاب استعيره، وانّ أعدّه ضيفاً يجب تكريمه الحافز، بقراءته دون إبطاء، وكذلك ما أشتريه من الكتب التي أضمّها إلى مكتبتي فقد يغريني كتابٌ ما بشرائه، فإذا ملكتُه فَسحْت له مكاناً في المكتبة، وقد يظلّ أمداً طويلاً دون قراءة، بل قد يُهمَل فلا يُقرأ، لأنّي اعتقد أنه طوَع يدي في أي وقت! وإذا شَاقني كتابٌ جيّد مما استعرته فإنّي أسارع باقتنائه الفوري، وأضعُ من الملاحظات في هوامشه ما يدَفعني إلى استعادة قراءته وقد يكونُ الكتاب موضعَ نَقْدٍ لي أنشره في بعض المجلاّت، تعبيراً عن أفكار راودتني أثناء القراءة فأكثرت من هذه النقدات حتّى لو جمعتُ ما كتبت عن المؤلفات الحديثة لبلغ عدّة أجزاء وأنا بسبيل تهيئة بعْضها إلى النشر القريب، وأذكرُ أن مجلة المنهل التي تصدر في جدّة رأث أن أحرّر على صفحاتها باباً تحت عنوان (رحلة في المكتبة) بعدَ أن أرسلتُ إليها عدّة نُقودٍ حازت القبول فنُشِرت سريعاً، واطمأنَنْتُ إلى أن أحرر الباب بصفة دائمة قدر المستطاع.

وقد أوقعني ما أكتب في هذا المجال في مآزق كنتَ غنياً عنها، لأنّ بعض الكتب تختلف فيها وجهات النظر. فأُبدي ما اهتديت إليه من التصويب، علَى ثقةٍ من أن المؤلف سيحمد لي اهتمامي بكتابه ويَرى حديثي عنه نقداً لا تقريظا دليلَ اهتمام به، وهذا ما يقع كثيراً، إذا اتَلقّى رسائل الشكر مِن هؤلاء الفضلاء في كثير من الأحيان. ولكنَّ فريقاً آخر يسوؤه أن

أخصّ كتابه ببعض الملاحظات، فيظهر لي ما ينبئ عن الاستياء في عتاب ـ هادئ أو غير هادئ، ومن عجائبُ ما واجهني في هذا النطاق أنّ أحد الزملاء أهداني كِتاباً دينيًا في موضوع مَدْروس، فرسلت إليه شاكراً ومقدّراً. ولكنّي فوجئت به يزورني على غير موعد، وهو يقولُ: لقد أرسلت لك الكتاب لتتحدث عنه في جريدة أو مجلّة، لا لكيْ تكتب لي خطاب شكر، وأنا بيني وبين نفسي لا أجد ما يَدفعني إلى الحديث عن كتاب يخْلو من الجديد، ولكنّي رحمت موقفه، واندفعتُ إلى كتابة كلمة تحمل الإعجاب والنّقد معاً، وظننتُ أن هذا مما يكفي! ومضتْ ثلاثة أشهر، وجاءَ صاحبي ليُخبرني أنه أرسل ردًّا فورياً على نقدي، وظهرَ عددان متواليان من المجلة دون أن يسمح رئيس التحرير بالنشر فقلتُ له: وما ذنبي أنا؟ قالَ إن الرجل صديقك، وقد ظَنّ أن ردّي سيُضايقك فآثَر مرضاتك قلت: وماذا أصنع؟ قالَ تكتب إليه راجياً أن ينشر ردّي فهذا من حقّي، وسكتّ سكوت المعترض في صمت، ولكنّ صاحبي عاود القول في توسل تصل إلى درجة التذلّل، فأحضَرتُ الورق وكتبت إلى صديقي الأستاذ محمد سعيد العامودي رئيس تحرير المجلة راجياً أن ينشر الرّد، لأنّ صاحبه طلب مني أن أتوّسط، ولعلّه يقبل وساطتي، وقد استجاب الصديق العزيز الأستاذ العامودي رحمه الله إلى رُغبتي فنشر الردّ، وكنتُ أظنّ المسألة ستنتهي عند هذا الحد، ولكنّي فوجئتُ بالمؤلف يُحضر المجلة إلي ويقول: أريدُ أن ترد على ما خالفتُك فيه، فاستغربتُ كثيراً، وسألتُ في انفعال، ما هذا الشطط يا أخي؟ قالَ أُريد أن تدور معركة علمية حول هذا الكتاب! فقلتُ لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها وقد تحملتُك أكثر مما يجب، فلا تلحّ مرة أخرى، فخرجَ غاضباً، وسمعتُ أنه قال لبعض الزملاء إني أحاربه ولا أريد اشتهار كتابه!

وجاءتْني الأنباء فلم أعلّق بشيء، لأنّ من سمعوه لم يصدّقوه!

أعود إلى قراءاتي، فأذكر أني في عهد التلمذة توجهت تلقائياً إلى قراءة القصائد والقصص الّتي تنشرها الصحف والمجلات الأدبيّة، فكانت الرسالة والثقافة هما الزاد الأسبوعي لي، أبدأُ بقراءة الشّعر، وأُثنّي بقراءة القصّة، وطالبُ القسم الأدبي لا يزعم لنفسه أنه يستطيع هضم المقالات والبحوث، وقد يفهمُ بعض ما ينشر في هذا المجال. ولكنّ حفظ القصائد قد سيطّر عليّ سيطرة تامة. والعهَد عهد ازدهار أدبي ناضر. فقصائدُ علي الجارم وخليل مطران ومحمد الأسمر تُنشر تِباعاً بالأهرام وقصائد علي محمود طه ومحمود غنيم ومحمود الخفيف ومحمود حسن اسماعيل تنشر في الرسالة وقصائد أحمد الزين وفؤاد بليبل وأحمد العجمي وأحمد محرم تُنشر في الثقافة، وكانت قراءة القصيدة مرتّين كافيةً لديّ في استظهار أكثر أبياتها، فالذهنُ في الصّبا صفحة بيضاء ينطبعُ بها ما يروق من رائع القوافي! أما القصص القصيرة فقد اشتهر بكتابتها في هذا العهد نجيب محفوظ ومحمد سعيد العريان وعلي أحمد باكثير وصلاح نضمي ومحمود البدوي ويوسف جوهر وكوكبة من أدباء الشباب فكانتْ على تنوع أساليبها بتنوّع الكتّاب ترضي خيال الطالب الطامح، بل كنت أقتطع بعض العبارات التي تروقني وأسجّلها في كراسة تجمع هذه المختارات! وقد دفعني حبي للقصائد أن أقرأ الدواوين الشعرية في القديم والحديث، وإذا كانتْ مرحلة القسم الابتدائي قد قصرتني على الشعراء المحدثين ممن ذكرت أسماؤهم من قبل، ونظرائهم في الوطن العربي من أمثال شبلي ملاط وبشارة الخوري وإيليا أبي ماضي والرصافي والزهاوي، فإنّني في القسم الثانوي قد سموت إلى قراءة دواوين المشهورين من أمثال المتنبي والبحتري وأبي تمام وأبي العلاء، وقد

استأثر بميلي الأدبي ديوانان أثيران، هما ديوان الحماسة الذي جمعه أبو تمام، وديوان الشريف الرضي، فديوان الحماسة متنوّع الأغراض، ومقطوعاته في أكثرها ذات جذب شديد للقارئ وبخاصة في غرضَي الغزل والرثاء، والشرح في الهوامش يلقي الضوء على اللفظ الغامض فيجلوه، أما ديوان الشريف فقد جَذبني غَزَلهُ الوجداني العفيف، وكنتُ أجهر بتفضيله حين أناقش زملائي في مكانة شعراء العربية من نفسي وهمْ يخالفونني لأنّ أساتذتهم لا يعدلونَ شاعراً بأبي الطيب المتنبي، وقد قرأت أنّ حجازيات الشريف تحتلّ مكانها الجهير لدى الدارسين، فأحضرت كرّاسة، وجعلت أنقلُها في شغف، بل جعلتُ أترنم بأبياتها، وبخاصةِ الأبيات المجزوءة ذات الإيقاع الخالب مع المعنى الجاذب مثل قول الشريف:

آهِ من جيدٍ إلى الدارِ كثير اللفتاتِ
وغرامٍ غير ماضٍ بلقاءٍ غير آتْ

وقوله:

يا غزالَ الجزع، لو كانَ على الجزع لمامُ
أحسد الطوق على جيدك والطوق لزامُ
أنا عرضت فؤادي أولُ الحب كلامُ
وحلولٍ ما قِرى نازلهم إلاّ الغرامُ
بدَّلوا الدار فلما نزلوا القلب أقاموا؟

إلى ما لَو أستطرد في تسجيله لملأتُ عشرات الصفحات! وأذكر أني حين حَججتُ للمرة الأولى تراءى لي الشريف بقوّة عاتية جعلتني أتذكر كل

ما قال غيْباً من الذاكرة، ثم صَفَتْ نفسي فأنشدتُ قصيدةً مؤمنة في مشهد الحج مصوّراً أحاسيس المؤمن المخبت، وغلبني ذكر الشريف فقلت في نهاية القصيدة مُتأثراً بروح الشريف في حجازياته.

أَقلبي هل سمعت لذات طوق	بضال المنحنى تشكُو هواها
وهل لكَ بالغضى زفرات وجْد	فكم نفس به لقيت رداها
تصاعُد من فَم المشتاق ناراً	كأنّ من الغضى قبسْت لظاها
وما يَبْغي الحجونُ لدى نفوسٍ	معذبة شجاها ما شجاها
وهلْ رَقّ الصفا لمتيّميه	وإن تلكُ صخرة صلدت قواها
معاهدُ للصبابة دارساتٌ	ومن عجب تُحيّر من أتاها
سَبتْ عقل الشريف فهام وجداً	وأغلُنَ كل قافية طواها
أحاولُ أن أقلّدهُ فأعيا	كتمتام تلكأ حين فاها

أما القصص الطويلة فقد جذّبني منها نوعٌ يكتب بالأسلوب الأدبي الشفّاف، وكان الكاتب المختار لدّي في هذا المجال هو الأستاذ محمد فريد أبو حديد حيثُ صوّر البيئة العربية تصويراً زاهياً لا أظن أحداً بلغ مداه في هذا النسق البديع، وأولُ قصّة قرأتها له بالقسم الابتدائي قصّة (المهلهل سيّد ربيعة) وكنت أعرف وقائعَ حرب البسوس من قبل ممّا سمعته من شاعر الربابة المتنقل في قُرى الريف، فحين فُوجئت بروعة الأستاذ أبي حديد في جمال تصويره، وبراعة تحليليه وتشرّبه لعهد المهلهل تشرّباً جعله يرسم الوقائع كأنك تنظر إليها متحركة عاصفة، أقول حين فوجئت بهذه الروعة جعلتُ أتنظر مؤلفاته على شوق لم أعهدُه بالنسبة لكاتب آخر، وقد توالى

إبداعه الفنّي في قصص الملك الضليل، زنوبيا والوعاء المروي، وأبي الفوارس ومع الزمان وجحا في جانبولاد، وقد قرأتها جميعاً، وكانتْ سُلّمي إلى قراءة روائع الغرب المدهشة مم ترجَمه حسن صادق وأحمد حسن الزيات وخليل مطران، ومحمد عوض محمد وغيرهم، وإذا كانَ لي استقامة متواضعة في الكتابة الأدبيّة فإلى هذه القصص الرائعة يرجع الأثر، لا من ناحية التعبير البياني وحده بل من ناحية التحليل النفسي، والإبداع في تصور العواطف ثم تصويرها على أبدع مثال.

والتراجم الشخصية إذا كَتَبها أديبٌ مقتدر قريبةٌ جداً من القصص الأدبية التاريخية، لأنّ الترجمة في صميمها قصّة حياة، لذلك كانت التراجمُ الأدبيّة ذاتَ جاذبيّة لنفسي، فقد قرأتُ كل ما استطعتُ الحصول عليه لكبار المؤلفين، قرأتُ ما كتبه الأستاذ محمد فريد أبو حديد عن السيد عمر مكرم وعن صلاح الدين الأيوبي وشاقني جَمْعهُ من حقائق التاريخ دون تزيد أو تنقص وبين ما عَهِدتُه لديْه من الأسلوب المشرق الذي يجعلك لا تترك الكتاب من يدك حتى تنتهي إلى آخره، بل يجعلك تأسف على أن الكتاب قد انتهى ولم تتّصل صفحاته إلى أبعد مدىً، وليسَ الأسلوب الأدبي المتدفق كل شيء في انجذابي إلى أمثال هذه الترجمات، فإنّ مَن الكتّاب من يقصدون في هذا الاتجاه ولكنّ الغوص العميق على أسرار النفس يَجْلو للقارئ لأنه يكتشف نفسه حين يعرف أسرار سواه، وممن برعوا في هذا الاتجاه وشغفنا بآثارهم المتعدّدة الأستاذ علي أدهم فقد قرأتُ له عن أبي جعفر المنصور، والمعتمد بن عباد، وصقر قريش وغيرهم ما جذب التفاتي، بل قرأتُ له «تلاقي الأكفاء»، وهو نوعٌ من الموازنات التاريخية بين الرجال إذ يضع قِمتّيْن في الميزان ليخْبرهما اتجاهيهما ودوافعهما ويجلو

شخصيتيهما بما يكشف آفاقاً للقارئ، وهو في الصفحات المحدودة بالباب الواحد يُعطيك ما يُعطيه الكتاب المستقل ذو الصفحات، ولا أنسَى إعجابي بما كتبه عن أبي جعفر المنصور مقارناً بأبي مسلم الخراساني، وكأنّ هيامي بالتراجم دَفعني إلى خوض هذا المجال قدر طاقتي فكتبتُ كُتباً مستقلة عن أحمد بن حنبل وهارون الرشيد وصلاح الدين الأيوبي وأبي فراس الحمداني، وعدي بن زيد في القديم ثم عن مصطفى صادق الرفعي وأحمد محرم وأحمد أمين ومحمد فريد أبو حديد ومحمد المتولي الشعراوي وغيرهم في الحديث، ولي موسوعة تاريخية في ستة أجزاء عن النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، حاولت فيها أن أؤرخ للنهضة السياسية الدينيّة، وللفكر الإسلامي من خِلال سير أعلامها في العالم الإسلامي جميعه حيثُ لم أقتصر على مصر أو العالم العربي بل امتد المجال إلى الهند وتركيا وبلاد القوقاز وأوروبا، ومِن الإنصاف أن أذكر أن الأستاذ محمد سعيد العامودي رئيس تحرير مجلة الحج كانَ أحد الأسباب الدافعة لهذا الاتجاه فقد كان يستحثّني دَواماً على الكتابة عن أعلام العصر الحديث، ويقولُ إن للممثلين والمطربين ونجوم الكرة وأشباههم تواريخ مسجلة في كتب مستقلة، وليس للعلماء غير القليل، ولم يقف الأمر عند الرغبة، بل كان يقترح عليَّ بعض الشخصيات فإذا اعتذرتُ لِقلّة ما لدي من المعلومات، قال إن القليل قد يُغني وقد يدفع كاتباً آخر إلى الاستقصاء! وأذكرُ أنه قال لي إن كتاب الدكتور أحمد أمين عَن زعماء الإصلاح قد سدَّ مسدًا جيداً في بابه، ولكنّه وقف عند الإمام محمد عبده ومَن سبقه، وعليك أن تواصل حلقات هذه السلسلة الشريفة، وقد أخْرَجْتُ جُزءَيْن بادئ ذي بدء فكأني قدمت النموذج، ولكنَّ القراء اندفعوا يطلبُون الحديث عن

أعلام أُخر فأخرجت المجلد الثالث، وتوالت الاقتراحات فتتابعت الأجزاء التالية، وأرى أن توفيق الله وحده هو الذي أمدّني بالعون، وأزال من الطريق كثيراً من العقبات!

والحق أن هموم النفس التي لا خلاص منها في خضم الحياة، قد تقف حائلاً دون الإنتاج المفيد إذ تأتي من الأحداث ما تصرف النفس، فلا تجد الرغبة في الكتابة مهما سهلت المصادر، ودنت الوسائل، بل بدون هذه الأحدث قد يعزف الإنسان عن القراءة فضلاً عن الكتابة، فتظل حياً كميت، وحاضراً كغائب، ويمتد ذلك إلى بضعة أشهر لا بضعة أيام، وقد عالجت الكتابة العلمية، والكتابة الأدبية فوجدت الكتابة العلمية قد تكون أيسر منالاً من الكتابة الأدبية لأن الكتابة العلمية تسهل وتلين إذا توفّرت المصادر، وهدأ البال، أما الكتابة الأدبية فلا بدّ لها من الصفاء الروحي والإشعاع النفسي حتى تستجلي الخوالج الدفينة في أعماقك، ومن حسن الحظ ـ لا من سوئه ـ أنّي لا أرضى عما أكتب، وكلما قرأتُ ما كتبت لاَحَتْ لي نواحٍ من النقص كانَ يجب استكمالها، لذلكَ جعلتُ دَيدني أخيراً ألاّ أراجع المقالات الأدبية والاجتماعية بعد كتابتها، بل أتركها كما سمح بها القلم في الجولة لأولى، لأنّ المراجعة تفتح لي أبوابَ الزيادة والحذف حتى يكادُ الموضوع أن يتحوّل إلى شيء آخر، وهذا مما يُتعب ويرهق، وعلى العكس من ذلك القصيدة الشعرية، فإني أجدُ رغبةً شديدة في معاودة المراجعة لها، وأحذفُ ما أحذفُ مستريحاً وأزيدُ ما أزيد في شوق، لأنّ الفكرة وإن كانت تامّة، والتصوير وإن كان مكتملاً، فهذا التمام وهذا الكمال لا يمنع الخيال أن يُوحي بالجديد، لا سيّما في العاطفيات التي تلج إلى مسارب النفس، والنفس غور عميق لا يُسْبر مهما حاول الإنسان

الغوص، فيكتفي بما جادت به المقادير، وفرحي بالقصيدة إذا اكتملت على الوجه الصحيح أكثر من فرحي من المقال أو الكتاب إذا اكتملَ وطُبع وذاع، لأن كل إنسان يتمنى في أعماقه أن يُبدع مِن ذَاتيته ما يُفاجئ به القارئ، والكشْفُ عن الذات كما يكون في المقال الأدبي وفي القصّة ذات التحليل، يكونُ في القصيدة أكمل وأتم مهمّا قلّت مساحتها اللفظية، لأن ما يَغْمر الشعر من التصوير والموسيقى والإيحاء والرمز كلّ ذلك لا يتوّفر على الوجه الأكمل في غيره، لذلك تجدُ الشعر يُحفظ ويستعاد، وكأنه مقطوعة غنائية يطرب لها الجمهور، وأعْنِي بالشعر هنا الشعر الحقيقي الجديد بهذا الاسم لا كلّ ما يقال ممّا نعهد لدى العروضّيين والنظاميين.

وإذا كانت الكتابة فنّا، فالقراءة فن آخر، فلَيْست مجرّد اطّلاعٍ عابر، ولكنها جهد يبذله القارئ في تَفهم المراد، والغوصِ إلى ما بين السطور من أعماقٍ لا يدركها غير الناقد الحصيف، وأنا قد عرفتُ من التجربة أن قراءةَ الكتاب الجيّد مرّةً واحدة لا تكفي، فلا بدّ من العودة إليه مرةً ومرّة حتى استشف كل ما أستطيع امتصاصَه من خوافيه، كما عرفت أن القراءة المتصلّة دُون مهلة مما يضيع معها الكثير، والأفْضَلُ أن يَقرأ الإنسان فصْلاً واحداً ثم يطوَى الكتاب ليَخلُو إلى نفسه مفكراً فيما قرأ، مُحاولاً تلخيص أهم ما حصّله بينه وبين نفسه وإذ ذَاكَ ينعم بجني ما في الكتاب من ثمار علَى مهل والتذاذ، وبهذه الطريقة تكون قراءةُ الكتاب الواحد من الكتب الجيّدة، أفضلَ من قراءة عشرة كتب قراءة طائرة لا تميل إلى التبصر، فإذا عُلِم أن القارئ الجديد بهذا الوصف قارئٌ وناقدٌ معاً، لأنه أثناء القراءة، يوافق ويخالف، وينكر ويعرف، إذا أعلم ذلك كانت العودة الثانية إلى الكتاب من ألزم الضرورات، هكذا افعل، وبهذا أنْصَح!

لقد ذكر الدكتور منصور فهمي في إحدى الندوات الجامعة بأمسيات القاهرة هذه العبارة «احذر مؤلف الكتاب الواحد» وقد أتيح لي أن أستوضحه المزيد، فقال إن مؤلف الكتاب الواحد قد أحاط بموضوعه إحاطة المتريث المدقق، فهو بالنسبة لموضوعه قمة عالية جعلته من ذوي الاختصاص. وأنا أقول لنفسي لا تعبأ بقراءة الكتاب مرة واحدة. فهي لا تعطيك الكثير مما أراده الكتاب، واحذر أن تغتر بهذه القراءة، إذ لا بد من المعاودة والمراجعة كي تبلغ ما تريد!

ولعلّي أوضحت خواطري عن القراءة والكتابة كما التزمت بهما دون أن أحيد.

أمام غار حراء

وقفة لا تُنْسَ في حياتي:

تُعتبر فريضة الحج قراءةً ميدانية لسيرة رسول الله ﷺ فأكثرُ الأمكنة في مكة تذكّر قارئ مسيرته الشريفة بما كانَ له من موقفٍ تاريخي مشتهر بها، وغارُ حراء ليس من مناسك الحج، ولكنّه يذكّر رائيه بأوّل حلقةٍ من حلقات الإسلام في تاريخه المديد، إذ نزل الوحي على النبي، فكانَ مَهبطاً لأولِ اتّصال تمّ بين السماء والأرض في مكة، وأذكُر أني كنتُ في الحافلةِ راجعاً من منى إلى مكة، فوجدتُ صَديقاً من الراكبين، يُوقف السائق ويقول: سأنزلُ لأقف أمامَ جبل حراء، ورأيتُني مدفوعاً إلى مصاحبته تلقائياً دون أن يكون في خطتي الوقوف أمام هذا الأثر الخالد، وعجبتُ كيفَ ينْهَضُ الجبل بروقه الممتد إلى أجواز الفضاء، ثم لا يَلْفتُ الزائرين إلى مشاهدته والتمتع بذكريات سعيدة تدور حوله؟!

سرتُ وسار صديقي صامتيْن، لا نَتحدث، وكأنّ إيحاء الذكرى قد ملأ الخاطر بما عقد اللسان عن الحديث، وقد توقّعْتُ أنْ أرى أفواجاً من الحجاج تقفُ وقفة المتأمل، فوجدتُ المكان خالياً إلا مِنْ مقهىً صغير ليس به غير كُرسيّين وقد تَراخى صاحبه إذ كانَ لا يتوقع زائراً في هذا اليوم الذي

اتصلت به حلقات السير الراكض من منى إلى مكة فأيقظناه برفق ونهض ليعدّ الشراب، وليجيبَ عن أسئلةٍ حاوَلتُ أن أستمعَ إلى جوابها منهُ، فقلت له: كم من الزمن يكْفي للصعود إلى القّمة العالية لنرى الغار المبارك ونرجع؟

فقال: الطريق وعْر، وليسَ به مسلكٌ مستقيم ليساعد على الصعود، وقد جاءَ هنا منذ أسبوع فريقٌ من الكشّافة من إحدى البلاد الإسلامية وكلهم شبابٌ يتمتّع بالصحة وحاوَلوا الصعود، فرَجع أكثرهم مبْهوراً يتصبب عرقه، رجع من منتصف الطريق!! أما الّذين ثابَروا حتى بلغُوا القمة فقليلون، وما جَهدوا أنفسهم إلا استنكافاً من أثر الخيبة، وأن يُقال عنهم: إنّهم غير شُجعان متمرسين!..

قلت: ولكّني أقرأ في كتب الرحلات عن كثير من الشيوخ والشباب قد صَعدُوا إلى القمة ورأوا الغار فعلاً، وفيهم مَن دَخَلَهُ واستمتع بذكريات حلوة عنه!

قال: صحيح.. صحيح، وهؤلاء محظوظون!

كان حَديث الرجل دافعاً بي إلى خواطر عجيبة، أخَذَتْ تنهال على خاطري، فقد قلت في حديث صامت بيْني وبيْن نفسي:

يا للّه! فريقٌ من الكشافة! كلُّهم شبابٌ أشداء، وقد قدموا إلى الجبل يركبون السيارات المريحة، فلم يُعانوا مشقة الطريق، ثم ينكصُ أكثرهم دون القمة، فلا يبلغونها ويفضلون الرجوع، ورسولُ الله ﷺ كانَ يأْتي من منزله في أقْصى مكّة سائراً على قدمه، يَحمل زادَه الخاص به طيلة شهر رمضان المبارك، حتّى إذا بلغ الغار ـ وقد يكون ذلك في مقدمة الليل ـ حَمل ما

معهُ من الزاد.. وأخَذ في الصعوّد يجتاز العقبات، وتعترضه الصخور والأحجار، وتُدْمِي قدمَه الأشواك، ثم لا يَعبأ بما يُصادفه مِنْ عوائق حتى يبلغ مأمنه!

قد كرّر ذلك مرات عدة! أليسْت هذه معجزة؟!!..

التفتّ إلى صاحبي أسألهُ الرأي فيما عنّ لي من خاطر؟ فوجدتُه أيضاً يسبح في موج صاخب من الأفكار عبّر عن بعضه حين قال لي:

إليك يا صديقي من قصة الصعود إلى الجبل في حِندس الليل، ومما يعترض من الصخور، ومما يخاف منه من سقوط بعضها تحت قدم الصاعد، فتهوي به إلى حيث لا يذوق طعم الحياة، دعْك من ذلك كله يا أخي وانظْر معي متسائلاً:

كان الجبل مُستقرًا آمناً، أهو فُندق سياحي يلجأ إليه المتعب فيستريح، أهو روضٌ يزدان بالأزهار والنخيل، وتَجري تحته الجداول؟.. إنّه مكان منعزل، قد تأوى إليه اللصوص، فتعترض القادم نَأهبة إياه وقاضيةً على حياته، وقد يكون به الوحش الكاسر المتربّصُ بكلّ قادم ليَجْعله زاده بعد سفر طويل، وقد تكونُ به الحيات المتوحشة والأراقم السامة، تكمنُ في كل مكان، بل تختبئ بالغار نفسه، فتجد من القادم مائدةً مستطابة! ماذا تظنّ بجبل موحش مُنعزل في مكان مخوف، كيف يجرؤ على الصعود إليه إنسان يعلم عن حقيقة هذه الأهوال؟.. أفيفكر عاقل في اقتحامه؟.. ومَتَى؟ في حندس الليل، وسكون الظلام، وإذا تمّ ذلك فعلاً أليست هذه معجزة؟

الحقّ أن الخواطر المتشعبة قد ملكتْ عليَّ تفكيري، فما استقر على

جواب مريح! إلا أن يكونَ الإلهامُ الربّاني وحده هو الذي قاد نبيَّ الله إلى معتزله الكريم!

ولنتركْ رسول الله ﷺ قليلاً إلى أهلِ بيته، وفيهم زَوْجته العاقلة المدبرة خديجة بنت خويلد ومَنْ يَلوذ بها من الحميمات الأثيرات، أمَاكنَّ يعرفْن خطر الرحلة؟ وَمَا ينتظر الزوج الكريم هناك؟ لم تكُن خديجةُ بالسيدة الغَافلة، فهي من بيتٍ مرموق، ولها تجارةٌ تقوم على إدارتها، وتعلمُ من أحوال مكة وجبالها ووَحُوشها وناسها، ما قد يجهله الغافل الساذج، فكيَف بزوجةٍ مفكّرة مُدبرة، كَيْفَ وافقتْ على هذه الرحلات المتكررة؟ وكيفَ عاونَتْ زوجها على الاعتزال البعيد في جَبلٍ موحش قابض، وهي التي تحبه وتفتديه؟

للإجابة عن هذه الأسئلة أقول: إنّ مُعاشرةَ خديجة لزوجها الكريم، جعلتها تعتقد اعتقاداً جازماً أنه ليسَ رجلاً ككل الرجال! لقد شاهدتْ من أحواله ما أجَلسه مَجْلساً لا يتشابه مع أحد سواه! ألمْ تعرف أنه صاحب الرؤيا الصادقة؟ كان لا يحدّثها عن حلم رآه إلا وجدتْ تحقيقه في الحياة دون مهل! تكرّر ذلك حتى أصبَح شيئاً بدهياً لا مجالَ للشك فيه، فليست الرؤيا الصادقة فلتةً من الفلتات جاءتْ مرة على سبل المصادفة ولكنّها أمر تقرر وعُلم، فهل تشك بعد ذلك في سلامة اتّجاهه، مهما بدا للنّظر المجرّد أنّه صعب عسير.

ثم ما رأيُها في سلوكه الشخصي؟ هل كان أنانيًا كغيره من الأزواج؟ وقد جربت قبلَه اثنَيْن! لم يكُن غيرُ إنسانٍ سامي الخلق، رحيم القلب فسيح الصدر، ألم تَقُل عنه حين جاءها مُرتعشاً مما نزل به عند هبوط الوحي عليه

أول مرة: والله لا يخزيك الله أبداً، إنَّك لتصل الرحم، وتحمل الكّل، وتكسب المعدوم، وتَقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق!..

لقد ذكرْت أمثلة من سلوكه الإنسان في الحياة، لمَسْتها لَمس المشاهد المجرب عن قرب، أعجبت بها لنزاهةٍ أصيلةٍ في خلقها، لم تقل له: «إنّك تكره عبادة الأصنام، وتَتَجَنب الخمر، وتعزفُ عن أماكن اللهو» فكلّ ذلك خاص به بينه وبين ربه، ولكنها امتدْت بسلوكه إلى أثره في الناس، وإلى مقدار ما ينهمر على يديه من برّ فهو يصلُ الرحم، ويحمل الكل، الضعيف ويكسب المعدوم ويقري الضيف، ويُعين على النوائب! أيكونُ هذا المتسامي في سلوكه، المتدفّق بالخير عن يمين وشمال، مجزياً من ربه بغير الثواب والنعيم! فإذا جاءه الملك، فلن يكونَ ذلك إلا جزاءً وفاقاً لهذه المآثر وحبًا خالصاً من ربٍّ أورثه هذه المحاسن!

لقد شاهدْت هذه النواحي الممتازة في سلوكه، فعلمتْ أنه فوق الناس جميعاً! وأن الذي يعتزل الناسَ لا بد أن يكون ربُ الناس قد وفقه إلى هذا الطريق وليس لها أن تعترض بعد هذا اليقين!

وناحية أخرى بدتْ من خديجة ـ رضي الله عنها ـ تدل على تقريرها الروحي لزوجها وأن له بالسماء صِلة ليست للناس، هذه الناحية تتجلّى في سعَيْها إلى ابن عمها الراهب النصراني ورقة بن نوفل لتسألَه عن تفسير ما نَزل بزوجها في الغار عند مشاهدة الملك؟ لم تلجأ إلى كاهنٍ من كهنة الجاهلية؟ لم تلجأ إلى عرّافٍ يضرب الرمل، ويتنبأ كاذباً بالغيب؟ لم تلْجأ إلى ساحرٍ ينفث في العقد، ويزمزمُ بغوامض الكلمات! إنّها في وعيها الحريص، وفكرها العميق تكْفرُ بهؤلاء جميعاً، ولكنّها تعلم أن ابن عمها

يقرأ الكتاب ويلمّ بأخبار النبيّين من قبل، فلا بدّ أن يكون لديه ما يُريح في هذه الموجة الغاشية، وقد زاد قلبها رسوخاً في إيمانه، حين سمعت ورَقَة يبّشره بالنبوة ويقرنه بموسى عليه السلام، كانت ـ رضي الله عنها ـ تتحسَّس في أعماقها ما يرتفع بزوجهَا إلى مرْتبة النبوة، تحسّساً لم يأت من فراغ، ولكنْ عن خبرة حية ملموسة، تتراءى للعين، وتتجسد باليد حتى لتلمَس لمساً، فجاء ما قاله ورقة مصداقاً لظنٍ صارْ يقيناً، وحُلمٍ أصبح حقيقة!

هذا إذنْ سرُّ موافقة خديجة على اعتزال زوجها الأيام ذوات العدد في الْغار؟ ولم نسمعَ عنها أنها قلَقت عليه في معتزله أو أنّها أرسلت إليه من يدعوه، وبثّتَاهُ وابناه من حولها يسألونَ عن أبيهم فتزيدهم اطمئناناً، ومن يزورونها من أقاربها يتساءلون فتبتسمُ وتعلنهم أنه يتعبد على دين إبراهيم، وهي واثقة أنه سيعود متى رأى أن يعود وأن أمره بيده، وحاشا أن تكون كالزوجات الساذجات ممن يسألن حين غياب الزوج؟ أين بات؟ ومع من؟ فقد عَرفتْ أنّه من ربّه في حرز حصين!

ولنَا ونحن أمام الغار أن نمتدّ بالأسئلة إلى شتّى اتجاهاتها الواسعة، فلا نقف عند سؤال أو سؤالين، بل نُحاول أن نجيب عما يرد على الذِّهن فنتساءل: فيم كانَ يفكّر الرسول ﷺ في معتزله الأمين بغار حراء؟ أكان معتزلاً صامتاً ينقطع فيه صاحبُه عن التفكير، وقد بَعُد عن الناس، وخلصَ من دوامة الأحياء! أمْ أنّه تَفَرّغ في هذا المعتزل ليبحث في أمور أخذت عليه منافَذَ تفكيره؟ يبحث فيما عليه الناس من أباطيل، حين عبَدوا الحجارة الصماء؟ وحينَ شربوا الخمور وارتكبوا الأوزار؟ وحين شنّوا الحروب للغارة والنهب وسلب الأموال، وغصب النّساء؟! أليستْ هذه كلّها شروراً يضيق بها صدر الحليم؟ قد لا يجوز لمثلي أن يتصوّر أحلام الرسول وخواطره

الشريفة، في هذا المعتزل لأنّ الّذي يصدُق في تصوير هذه الخواطر لاَ بدّ أن يكونَ لديه من الإحساس الشريف ما يماثل إحساس الرسول، وكيف يتأتى ذلك لغير رسولٍ كريم! إنما أحاول محاولة أن أقرّب بعض الشيء من هذه الخواطر في ضوءِ ما قرأته من سيرته وما حفظتهُ من كلماته، فلا جرَم كانت هذه الكلمات الشريفة خلاصةً لتفكير سامٍ رَاوَحَ الرسول وغَادَاه في مفتتح حياته النبوية، إنه اعتزل بالغار فراراً من النّاس ليتأمل في أعلى مكان ما يصل بينه وبين السماء من وشائج، ليرَى حركة الكون في النجوم المتلألئة والليل المدلهم، والشمس الساطعة كلٌ يجري إلى أجل مسمى، ثم يَنْحدرُ إلى مجتمعه، يُشاهد هذا الانتظام الكوني من أمور الناس، فهنا الاتزان والضبط والالتزام في ملكوت السموات يشهده من قمة الجبل وهنَاك الفَسَاد والطيش والبغي في ملكوت الأرض يعلَمهُ، فيفر هارباً من مآسيه، فإذا كانت أمور الكون في أعلاه تجري على نسق مرتب لا يتبدل وإذا جرَت أمور الناس في أدناه على هذا الخَلل والاضطراب فلا بدّ من إصلاح لهذا الفساد الشامل، والبلاءِ المحيق، إن غفلة الناس عن اليوم الآخر، واعتقادهم ألاّ حياة بعد هذه الحياة هي السّيئة الأولى في هذا الفساد! وهذا ما استنْتجتُه استنتاجاً من أول خطبة ألقاها رسول الله ﷺ مُعلناً رسالته إلى قومه، فأوّل خطبة نبوية لا بدّ أن تكون خلاصة لتفكيرٍ متّصل امتد سنوت وسنوات حتّى انتهى إلى نتيجةٍ جازمة لا تقبل الشك وكانَ الرسول منطقياً مع قوْمه حينَ جمعهم لإنذارهم فابتدأهم بهذا السؤال: «أرأيتم لو أخبرتُكم أن خيلاً بالوادي تُريد أن تغير عليكم أكنتُم مصدّقي؟ فقالوا جميعاً نعم: ما جرّبنا عليكم كذباً»؟

بهذا السؤال وبهذا الجواب قد الزَمهم الرسول بما يشق عليهم

الانحراف عنه دون جهد جاهد، حتى إذا اطمأن إلى ثقتهم فيه، تابع حديثه فقال: إنّ الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبتَ الناس جميعاً ما كذبكتم، إني لرسول لله إليكم وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولَتَبْعثُن كما تستيقظون ولتحاسبنَ بما تعملون ولتجزونّ بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً وإنها لجنة أبداً، أو لنار أبداً».

إنّ فساد المجتمع كلّه يكمن في عدم الإيمان بالبعث، وإنّ الرسول ليعلمُ أن قضية البعث في رأي المشركين تحتاجُ إلى دليلٍ يقربها للأذهان، وقد انتهى من تفكيره في الغار إلى صدق هذه القضية التي تُوجب المساءلة والمؤاخذة، والثواب والعقاب وجاءه الوحي معلناً حقيقة هذه القضية في أول سورة نزلت بعد سورة (أقرأ) التي بُشّر فيها بالرسالة، حيث يقول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ . وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ . فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ . فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ (سورة المدثر: ١ ـ ١٠).

أما الدليل المُشاهَد قد جاء في قوله ﷺ «لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون» فإذا أنكر إنسان أنه يستيقظ بعد أن ينام، فليفكر أنه سيبعث بعد أن يستيقظ!

هذه خواطرُ جَاشَتْ بخاطري، وأنا أقف أمام جبل حراء، وتلتها خواطر أخرى تدور مدارها وقد تركتها تتعارف فيما بينها، دون أن أفصح عنها وحين رجعت إلى مثواي نشطت إلى قراءة ما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (في منزل الوحي) خاصاً بوقفته أمام جبل حراء، أقرأ

فيه من المعاني السامية ما أعهده لدى كاتب مُقتدر تَتدافعُ هَواتقه السامية كما يتدافع الموج من أعالي القمم إلى الوهاد السحيقة، وقد قال متعجباً:

«مَا للمسلمين ممن يقصدون مكة للحج أو العمرة لا تَميل بهم الأسوة إلى معالجة هذه الرياضة الروحية ولها في تهذيب النفس أكبر الأثر، وأي تهذيب للنفس كاتصال الإنسان بالكون في مثل هذا المنقطع الرفيع، اتصالاً يسمو به المرءُ فوق غايات الحياة، ويرى أثناءه في شظف العيش والغنى بالنفس ما يزيده إيماناً بالله وحده... إنّما يرغب المسلمون عن مثل هذه الأسوة الحسنة لأنهم انحرفُوا عن أمر الروح، وأذعنوا لسلطانِ المادة، فاستولت عليهم الأثرة وما يتبعُها من ابتغاء المال والجاه، والنّاس إذا هَوَوْا إلى هذا المنحدر فاتهَم معنى العبادة على وجهها الحق، فالوحدةُ للتفكير ابتغاء الحقيقة لا يُطيقها إلا ذَوو الأرواح القوية يتلمّسونها هُروباً من ضَعْف الجماعة، وضلالها لأن الحق لا يتمثل في الجماعة الإنسانية قدر ما يتمثل في أطواء النفس ودَخيلة القلب لدى من يتلمسون الحقيقة في أعماقهم ويتجهون إلى القوة العليا التي برأتهم، فإذا اهتدوا إليها اهتدت الإنسانية بهواهم وسعدت برأيهم».

ربّاه، أَلاَ عزلةٌ نافعةٌ مثمرة بإيحائها الهادف لا عزلةٌ جدباء، كالأرض الموات!

وقد يتقارب الوصفان جداً ومَوصوفاً هُما متباعدان!

عقرب الساعات

أرى عقرب الساعات منتظم السّير
أما عائق يثنيه حيناً من الدهر

يُسرع يطوي العمر في دورانه
ولو كلّ بعض الوقت راخى مدى العُمر

أناشدهُ بعض التريّث كالذي
يرى الريْث يُسراً وهو في منتهى العسر

يخّف إلى المُنجهول بي حيث لا أرى
بأبعاده القصوى بصَيصاً من الخير

ولو كانَ مجهولاً كما أنا واهم
تَسَاوَتْ بنفسي كِفَّتَا الخير والشر

ولكنّ سوء الهَجْسِ يعشي بصيرتي
فأسري بليل ليس يُفْضي إلى فجر

أقمتُ بأفياء الطفولة غافلاً
عن السّحر يهفو في رفافِها الخضر

نشاطي موفور، وعُودي ناضر
وخطيّ سباق، وبيتي في يسر

زمان نديّ الظل مزدهرُ الرؤى
كأنّ ربيعاً منه يعبق بالزهر

ولكنْ على عينيّ منه غشاوةٌ
فلست أرى ما ضمّ من فتنة تغرى

لعمركَ ما بالبدر للعين من سنا
إذا لم تلحْ في النفس إشراقة البدر

من الصبح حتى العصر أُلْزم مقرئي
وأقبع في بيتي ابتداءً من العصر

وما عقّني أهلي، ولكنّ بيئةً
ترى في اعتزال الطفل مبعدة الضير

نكرتُ زمانَ الورد، وهو محبب
وثانيةٌ منه تُوَازَنُ بالتبر

وكابدتُ شوقاً للشبيبة كالّذي
يحسّ به زهر الفيافي إلى القطر

فخيّل لي أنّ الشباب خميلة ... منضّرة الأفنان فواحة العطر
فجاء شبابي مُلقياً فوق كاهلي ... مصاعبَ أعباء ينوء بها ظهري
إذا أخذ الطّلاب يوميَ دارساً ... سهرتُ طوال الليل أقرأ في سفري
وأنتظر الصّيف القريب لعلّني ... أهدّئ هوناً ما يمور به صدري
فتبتزّ أيام المصيف سكينتي ... لحاجةِ بيتي في مطالبه الكثر
أندبُ نفسي إذ أراها كموجة ... تقاذفُ من عبرٍ يهول إلى عبر
يمضي الشباب النّضر لا رَوْضة ... بنفسي ولا أغصانه ألهمت طيري
ترنّ الأهازيج الرخيمةُ في الضحى ... لدى مسمع الدنيا وأذنيَ في وقر
إذا فَضَضَتْ شمس الصباح مَسَارِحي ... طوتْها عن العين الشواغلُ من فكري
ألا وَقفةٌ تمضي بهمّي لحظة ... فأرصد أبهاء الجمال وأستقري
ألا ونيةٌ للكدّ تُسلم خطوتي ... إلى النهر أستجلي الرواء على النهر
ألا هدأة تعطي العيون قيادها ... فألمحُ ومض الحُسْن في الأوجه الغر
ألا نومةٌ فوق الحشيا رخيّة ... فأسعد بالطيف الملم إذا يسري
ألا رحلة من عالم الوعي تنتهي ... لعالم أطياف تماوج بالسحر
طلبت محالاً إذ أروم تبدّلاً ... وإعصار عيشي يزعج الموج في البحر
على أنني أهوى الشباب وإن قسا ... واذخر من أيامه أنفس الذخر
أشدّ عليه باليدين مثبّطاً ... وهيهات، قد شدّ الرواحل للسير

* * *

تلّقيتُ إنذار الكهولة صارخاً ... تصايحَ مظلومٍ يضجّ من الجور
كأن سفيهاً بذّر المال مسرفاً ... فعاجله الحكم القضائيّ بالحجرْ
فطاحَ بأحلام رقاقٍ كأنها ... نواعم زغْب تطعم الدّفء في الوكر

لسرعان ما انصبّ الرحيق ولم يعدْ بقارورتي غير الثمالة من عمري
أتمضي قُوى جسمي لوشك انحلالها فيغدُو ماءًا بارداً وهج الجمر
يعذّبني سيري الحثيث لغاية تلوح على قرب، فأجفل في ذعر
أأصبحُ في الغبراء لا شيءَ بعدما خطوتُ على الغبراء مستجمعاً أمري
أيبقَى معي حسّي فاصطحب الثرى وبي ألم المأسور يصرخ في الأسر
أأفقدُ إحساسي فأغدو كصخرة وأرتاحُ إذ لا حسّ ينبض في الصخر
أأحجبُ عن نور الصباح مُباعداً على حاجتي للنور في حندس القبر
لأحسبُ بين الصحو والنوم حالة حكى المتنبي أمرها باكيَ الشعر[1]
تكونُ كمثل الحُلم يدرك ربّه ـ وإن كان ذا نوم ـ حقائق ما يجري
فيدري الذي يأتي بصيراً مفكراً وتحسبه فوق الحشية لا يدري

---

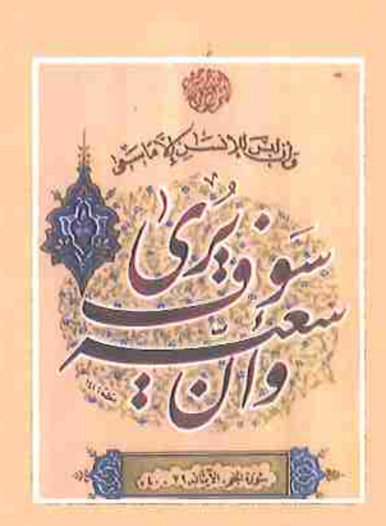
(١) إشارة إلى قول المتنبي:

تمتع من نصيبك من رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام



محتويات الفهرس





الحياة مرحلة يعبر الإنسان منها إلى ما بعدها وخلالها يمرُّ بأحوال مختلفة فيرى ألواناً من آمال الحياة المُشرقة ومواجعها المبكية ، والتجارب تُصقل النفس الإنسانيّة عبر الأيام ولكلّ إنسان في حياته وقفات تأمّل وذكريات مع النفس لا تخلو من سرور وحزن ورضى وغضب في أحوال من الصحّة والمرض والغنى والفقر . .

وبعد ذلك ، فالحياة هي الحياة والإنسان هو الإنسان . .

فميراث الذكريات له طابع خاص فهي تجارب إنسانية مرّت بالإنسان في حياته وسجّل بصمة شخصيّته عليها وتركها معيناً للمتأمّلين قدّم من خلالها خبرة في الحياة وفي ذلك عِبرَة . . وهذا الكتاب الذي يقدّمه الأديب البارع الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي عن ذكريات من حياته يتميّز بميزات عديدة ، إلا أن السِمَة البارزة عبيق الصدق الذي يضوع من أرجاء الكتاب ، فقد حرص مؤلّفه أن يسجّل خلجات النفس وشفيف الروح بأمانة الصدق ، فالصدق هو الذي يرفع من قيمة الكلمة ويزيد من شرف العبارة .

عمر بن حسين الموجان



سنا الفاروق للنشر
هاتف : ٠٠٩٦٦(٢)٦٦٧٦١٧٢
فاكس : ٠٠٩٦٦(٢)٦٦٧٦١٠٧
ص ب : ٥٣٤١٣ جدة ٢١٥٨٣
المملكة العربية السعودية